المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا العربية
فرع الأدب والبلاغة والنقد

# وصف القوس في الشعر الجاهلي

"دراسة بلاغية نقدية"

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في البلاغة والنقد

إعداد الطالب

فهاد بن محمد بن فهاد آل غلفص الدوسري

الرقم الجامعي/ ٤٣٢٨٠١٥٦

إشراف الأستاذ الدكتور

دخيل الله بن محمد الصحفي

أستاذ البلاغة والنقد بجامعة أم القرى

الفصل الدراسي الثاني

١٤٣٥ – ١٤٣٦ هـ

## المقدمة

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

أما بعد :

فإن الشعر الجاهلي حافل بكثير من الأغراض الشعرية والمظاهر الفنية والأبعاد الدلالية ، التي تقف إليها البحوث النقدية والبلاغية ؛القديمة و الحديثة على سواء .

وعلى الرغم من كثرة دراسة هذا الشعر وتناوله قديماً وحديثاً من قبل باحثين و نقاد ، جمعوا ونقدوا وبينوا ، فلا يزال الطريق مفتوحاً ، لمزيد من الدراسات.

وهذا يدل على قيمة هذا التراث الشعري ومعينه الجم ، الذي يتجدد بتجدد الدارسين والناقدين له ، في الدراسات الأدبية عامة ، والبلاغية والنقدية خاصة ، ولما له في فهم الكتاب والسنة من دورٍ كبير لا يخفى على ذي لب .

وتحاول هذه الدراسة أن تتناول " وصف القوس في الشعر الجاهلي " دراسة بلاغية نقدية تقوم على الوصف والتحليل والموازنة .

ويعود اختيار الموضوع إلى رغبة من الباحث نحو دراسة التراث الشعري الجاهلي، وإلى ملحوظات أثارها وأشار إليها ، الأستاذ الدكتور دخيل الله الصحفي ، مستعيناً بالله عز وجل ، ثم مسترشداً بأساتذتي الفضلاء .

### موضوع الدراسة :

القوس والسهم ، من الأدوات الفاعلة والمهمة بل و الضرورية في حياة العربي في السلم والحرب ، وفي الإغارة والسلب والنهب والصيد إلخ...

وهما في الحرب أداتا نصر وغلبة عند الجاهليين ؛ فلذلك أكثروا من وصف قسيهم و سهامهم التي أعدوها لقتال أعدائهم ، وأكثروا من الافتخار بها .

و في السلم وسيلة لكسب العيش و القوت عن طريق الصيد والقنص .

وعليه أكثر شعراء العربية وخاصة الجاهليين من التأمل في القوس والسهم ، فتحدثوا عن أصلهما ، ونسبهما ، وصوتهما ، ولونهما ، وخلْقهما ، و احتفلوا بالحديث عن لباسهما

وزينتهما . والقوس بخاصة هي موضع الاعتناء في هذه الدراسة ،و وجودها في الشعر له ميزة تخرج بها عن المألوف في التقاليد الشعرية ، فكانوا يتسلون بها عن الحب بدلاً من الناقة ، ويقنصون بها الثور بدلاً من الكلاب ، ولها صور متعددة في لوحتي الصيد والحرب ،كما يترامى وجودها الشعري إلى آفاق من الرمزية والأسطورية ؛ فهي ترهن للوفاء ، وتشهر للحياة، وكان الحديث عنها يشبه الحديث عن الكائن الحي في ميلاده وتنشئته واستوائه ، ومع ذكر الشعراء لها ووصفهم إياها إلا أن هناك من الشعراء من أسهب في وصفها و أفرد لها قصائد تبين ما ذكرناه من صفات سابقة ، ومن هؤلاء الشعراء : أوس بن حجر ، والشماخ الذبياني ، والشنفرى الأزدي . و تتجه هذه الدراسة إلى تجلية وصف الشعراء الجاهليين للقوس ، من حيث سمات تلك القوس في ذلك العصر ، و من حيث وصف مقومات تلك القوس ، وما تضمنته من أبعاد جمالية ودلالية ، وتحليل ما يميزها من الخصائص الفنية، والدلالات الشعرية ، تلك الصورة التي لم تلتفت إليها الدراسات السابقة — في حدود علمي — بما تستحقه من الاهتمام .

ومن خلال استقراء الشعر الجاهلي ، يبرز اهتمام الجاهليين بالقوس من حين نشأتها إلى حين استخدامها ، مبينين مواطنها ، وشجرها ، وكيف تصنع ، وماذا تشكل في حياة العربي ، فهي مصدر من مصادر كسبه — صائداً بها– وقوته — مقاتلاً بها — يقول أوس بن حجر عنها :

**ومَبْضُوعَةً منْ رأسِ فرعٍ شظيّةً بِطَوْدٍ تَراهُ بالسَّحابِ مجلَّلاَ**

إلى قوله :

**فَجرَّدَهَا صَفْرَاءَ لاَ الطُّولُ عَابَهَا وَلاَ قِصَرٌ أَزْرَى بِهَا فَتَعَطَّلاَ**

**كَتومٌ طِلاعُ الكَفِّ لا دونَ مَلئِها وَلا عَجسُها عَن مَوضِعِ الكَفِّ أَفضَلا**(١)

وقوله كذلك في قصيدة أخرى :

**وَصَفْرَاءَ مِنْ نَبْعٍ كَأَنَّ نَذِيرَهَا إِذَا لَمْ تُخَفِّضْهُ عَنِ الوَحْشِ أَفْكَلُ**

(١)أوس بن حجر : ديوان أوس بن حجر ،تحقيق محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت ،١٣٩٩هـ=١٩٧٩م ، ص ٨٥

تَعْلَمُهَا فِي غَيْلِهَا وَهْيَ حَظْوَةٌ          بِــوَادٍ بِــهِ نَبْــعُ طُــوَالٍ وَحَثْيَــلُ(١)

ويقول الشماخ :

وَحَلأَهَا عَن ذِي الأَرَاكَةِ عَامِرُ          أَخُو الخِضْرِ يَرْمِي حَيْثُ تُكْوَى النَّوَاحِزُ

قَلِيلُ التِّلاَدِ غَيْرَ قَوْسٍ وَأَسْهُمٍ          كَـأَنَّ الـذِّي يَرْمِـي مِـنَ الـوَحْشِ تَارِزُ(٢)

ويقول الشنفرى :

وَحَمْرَاءُ مِنْ نَبْــعٍ أبيٌّ ظهيرةٌ          تَـرِنُّ كَـإِرْنَانِ الشَّـجِيّ وَتَهْتِـفُ(٣)

ويقول عنترة :

بِكُــلِ هَتُــوفٍ عَجسُــها رَضَــوِيَّة          وسَــهْمٍ كَســيرِ الحِمــيَرِي المُؤنَــفِ(٤)

ويقول زهير بن أبي سلمى :

مَعَـهُ مُتَابِعَـةٌ إذا هـو شَـدَّها          بالشِّــرْعِ يَسْتَشْــزِي لــه وتَحَــدَّبُ

مَلْسَـاءُ مُحْدَلَـةٌ كَـأَنَّ عَتَادَهـا          نَوَّاحَـةٌ نَعَـتِ الكِـرامَ مُشَـبِّبُ(٥)

وفي هذه الشواهد وفي غيرها من تنوع الوصف والصور والدلالات ما يستدعي البحث والتقصي لهذه الأوصاف والدلالات .

(١) المرجع السابق ، ص ٩٦ .

(٢) الشماخ: ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ،تحقيق صلاح الدين الهادي ، دار المعارف ،القاهرة ص ١٨٣ .

(٣) الشنفرى : ديوان الشنفرى، عمرو بن مالك ، جمعه وحققه وشرحه إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ص ٥٤

(٤)عنترة : شرح ديوان عنترة للخطيب التبريزي قدم له مجيد طراد، دار الكتاب العربي ، بيروت ط١ ١٤١٢هـ = ١٩٩٢ م ، ص ١٠٢ .

(٥)شرح شعر زهير ، لأبي العباس ثعلب ، ت د . فخر الدين قباوة ، مطبعة الغوثاني ، دمشق، ط ٣، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٨ م ، ، ٢٠٩ ، ٢١٠ .

**أسئلة الدراسة :**

وصف القوس في الشعر الجاهلي ، دراسة تطمح إلى الإجابة عن جملة من الأسئلة التي يمكن صياغة أبرزها فيما يلي :

١ –كيف تجلى وصف القوس في بنية القصيدة الجاهلية ؟ وما دلالته ؟

٢– فيم تتمثل خصائص وصف القوس بمختلف مظاهرها الجمالية ، وما مقاصدها الدلالية في الشعر الجاهلي ؟

٤ – بواعث اختلاف الشعراء في صف القوس من شاعر لآخر ؟

٥ – ما أبرز الظواهر البلاغية التي اتفق عليها الشعراء من خلال وصفهم للقوس ؟ وما سبب ذلك ؟ و ما أقل الظواهر ذكراً ؟ مع بيان السبب ؟

**أهداف الدراسة :**

يمكن إجمال الأهداف التي تتطلع إليها هذه الدراسة فيما يلي :

١- تحديد الإطار الذي يرد فيه و صف القوس في القصيدة الجاهلية ، وأثره في تشكيل بنيتها الفنية ، وبعدها الدلالي .

٢- إظهار السمات الخاصة بالقوس في مختلف عناصرها ( المكان ، المجتمع ، الهيئة ) وما تعكسه تلك السمات بمكوناتها من خصائص فنية جمالية ، وقيم إنسانية واجتماعية وحضارية .

٣- الكشف عن الفنون البلاغية في الشواهد التي رسمت وصف القوس ، وتحليلها في إطار علوم البلاغة ، ودراسة علاقات الجمل في تك الشواهد ودلالتها ، فضلاً عن خصائصها التركيبية .

٤- تجلية طبيعة العلاقة القائمة بين القواس وقوسه ، وأثر المجتمع والبيئة التي يعشهما .

٥- إبراز دلالات القوس من خلال المعجم والسياق .

**أهمية الدراسة :**

تجتمع عدة أسباب تشجع على تناول هذا الموضوع درساً بلاغياً ، من أبرزها ما يلي:

١- ثراء الشعر الجاهلي وتنوعه ، أغراضاً ، ومظاهر فنية ، ودلالات .

٢- كشف ذلك الشعر مظاهر الحياة الفردية والجماعية والبيئية ، وما تقوم عليه من القيم الأخلاقية وأنواع النشاط الاجتماعي والإنساني ، ومنها القوس الذي يكشف عن اهتمام ذلك المجتمع و يبين مقوماته وهويته ، فيكسبه قيمة وثائقية مهمة .

٣- ظهور اهتمام الشعراء الجاهليين بالقوس ووصفها ، وإبداعهم في ذلك حيث عني بها وحرص عليها وحماها ورعاها مذ كانت نبعة في الجبل ، خاطر في سبيلها بحياته، واحتمل المكاره في الوصول إليها ، واعتز بها وحافظ عليها وصور تثقيفها، وبريها، وذلك متمثلاً في عناصرها التكوينية المتمثلة في : البيئة ، المكان ، الأدوات .

٤- قلة الدراسات وندرتها حول القوس ووصفها ، وإن وجد بعضها فهو لم يكن بشكل موسع، وإنما هي إلماحات للقوس في مجلات و في مباحث يسيرة ، لم تول القوس أهميته التي ظهرت في الشعر الجاهلي ، مما دعاني للم عناصر هذه القوس ووصف الجاهليين لها، وعنايتهم بها .

٥- دراسة وصف القوس في الشعر الجاهلي، تعد مجالاً خصباً للموازنات بينها ، وبين الشعراء في ذلك العصر .

٦- جعل الشعراء من القوس وسهامها فكرة رمزية، وجعلوا ذلك الوصف مفتاحاً لفك أسرار ذلك الرمز .

٧- أن وصف القوس يختلف من شاعر لآخر، وهذا الوصف يحتاج من يكشف عن جمالياته ودلالاته .

**الدراسات السابقة :**

تعد الدراسات التي تناولت القوس في الشعر الجاهلي قليلة ، إذا ما قورنت بالدراسات التي تناولت غيره، ضمن دراسة غرض الوصف، وهي — على قلتها — قد تناولت القوس في كليته، من خلال تركيزها على عناصره التكوينية مجملة ...ولم تلتفت لوصف القوس إلا عرضا ، وبذلك فإنها لم تعط تلك الصورة حقها من الدراسة التي هي جديرة بها، واكتفت بإشارات عابرة لا تفي بالصورة منزلتها ، حيث ركزت على بعض الشعراء وبعض ما قالوا ، وهي عبارة عن بحوث عرضت في مجلات محكمة وفي كتب عامة ، حيث إني لم أقف على

رسالة حول القوس في الشعر الجاهلي وغيره – حسب علمي وبحثي – تفصل وتبين وتنقد ، وإنما وجدت مباحث عامة حول القوس ولعلي أذكر ما وقفت عليه ومن ذلك :

١- مبحث حول القوس في الشعر الجاهلي في كتاب الشعر الجاهلي ، دراسة في منازع الشعراء ، للدكتور محمد محمد أبو موسى مكتبة وهبة ،القاهرة

٢- شعرية القوس ، د : محمد مشعل الطويرقي ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها ، ج١٩ ، ع ٣١ ، رمضان .

وقد أشار الدكتور محمد الطويرقي في دراسته شعرية القوس ، إلى أن للقوس وجوداً شعرياً مكثفاً في الشعر الجاهلي ،إلى درجة أن الشاعر الجاهلي اتخذ صوراً متعددة في بنية القصيدة ، خاصة في مجالي الصيد والحرب ، يستعيض بها الشاعر عن الموضوعات المألوفة كوصف المرأة ، والناقة ، والراحلة ، ووعثاء السفر وغيرها .

وقد ركزت الدراسة على خمس قضايا أساسية وهي : –

دلالة القوس بين المعجم والسياق ، رمزية القوس ، تحولات القوس في بنية النص ، القوس بين الأسطورة والشعر ، تناصيات القوس .

٣- القوس في الشعر الجاهلي والإسلامي،د : سلامة السويدي ح. كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية- ج. قطر، ع١١، الدوحة ١٩٩٨.

في دراسة القوس في الشعر الجاهلي والإسلامي - للدكتورة سلامة السويدي – وقفت الباحثة عند دور القوس في الشعر الجاهلي وفي الشعر الإسلامي ، وعن مكانة صاحبه الاجتماعية ، حتى أضحى القوس يعادل الثروة والمال والنفس، قبل أن ينهض في العصر الإسلامي بدور آخر مرتبط بأقوال الرسول- صلى الله عليه وسلم – التي تحث على تعلم الرماية .

وقد اهتمت الدراسة بتتبع القوس والسهم في الشعر الجاهلي والإسلامي ؛ مركزة بصفة خاصة على أشهر من وصف القوس والسهم من الشعراء مثل أوس بن حجر، والشماخ بن ضرار ، والشنفرى ، و زهير بن أبي سلمى ، و أبو ذؤيب الهذلي وغيرهم ؛ مبينة لنا معلومات موثقة عن صناعتها ، وأماكن هذه الصناعة ، وبعض من عرف بها ، وقد

اتبعت الباحثة أسلوب العرض والبحث في وصف القوس والسهم ، بدل التركيز على الرؤية المنهجية ، في النقد والتحليل البلاغي.

## منهج الدراسة :

إذا كانت طبيعة الموضوع هي التي تحدد طبيعة المنهج ؛ فإن هذه الدراسة ستعتمد — بعون الله – على المنهج البلاغي النقدي الذي يقوم على الوصف والتحليل والموازنة ، في دراسة الصور الأسلوبية المختلفة التي لها علاقة مباشرة بوصف القوس في الشعر الجاهلي ، وسوف يستخرج الباحث شواهده الشعرية من دواوين الشعراء أنفسهم ، ومن المصادر التي اعتنت بجمع الموروث الشعري الجاهلي ، وستكون الإحالة إليها في غريب الألفاظ أو المصادر الموثقة ، ولن يغفل دور المعجم فسيرجع إليه في غريب اللفظ موثقاً حسب مادته ، وقد اقتصرت الدراسة على الشواهد التي مثلت صورة القوس والسهم .

## خطة البحث :

المقدمة :

وتشمل: موضوع الدراسة ، وأسئلتها ، وأهدافها ، وأهميتها ، إلى جانب عرض الدراسات السابقة .

التمهيد :

ويشمل:- باختصار — الوصف في الشعر الجاهلي .

الفصل الأول :

سياقات وصف القوس ومواقعه في بنية النص :

المبحث الأول : القوس والإنسان ( سياقاته و مواقعه ) .

المبحث الثاني : القوس والناقة ( " " ) .

المبحث الثالث : القوس والصيد ( " " ) .

المبحث الرابع : القوس والحرب ( " " ) .

الفصل الثاني :

البناء الفني ودلالاته في وصف القوس :

المبحث الأول : الأبنية وعلاقات التراكيب ودلالاتها.

المبحث الثاني :الصور البيانية ودلالاتها.

المبحث الثالث :المحسنات البديعية ودلالاتها.

الفصل الثالث :

صورة القوس بين ( أوس بن حجر والشماخ بن ضرار ) :

المبحث الأول : المعجم الشعري .

المبحث الثاني : السياقات والمواقع .

المبحث الثالث : البناء الفني والدلالي .

الخاتمة :

الفهارس :

- فهرس الموضوعات .
- ثبت المصادر والمراجع .

***سائلاً المولى القدير التوفيق والتسديد .***

الباحث

# التمهيد

# ( الوصف في الشعر الجاهلي )

قبل البدء في موضوع وصف القوس ، يحسن الوقوف عند مفهوم القوس والسهم في المعجم ، وقد ذكر صاحب اللسان ما مضمونه :

"القَوْس: معروفة، عجمية وعربية. الجوهري: القَوْس يذكَّر ويؤنَّث، فمن أَنَّث قال في تصغيرها قُوَيْسَة، ومن ذكَّر قال قُوَيْس.

وفي المثل: هو من خير قُوَيْس سَهْماً. ابن سيده: القَوْس التي يُرْمى عنها، أُنثى، وتصغيرها قُوَيْس، بغير هاء، شذَّت عن القياس ولها نظائر قد حكاها سيبويه، والجمع أَقْوُسٌ وأَقْواس وأَقْياس على المعاقبة، حكاها يعقوب، وقِياس، وقِسِيٌّ وقُسِيٌّ، كلاهما على القلْب عن قُوُوس، وإِن كان قُوُوس لم يستعمل استغَنوْا بقِسِيٍّ عنه فلم يأْتِ إِلا مقلوباً.

وقِسْي، قال ابن جني: وفيه صَنعة (قوله «وفيه صنعة» هذا لفظ الأصل.). قال أبو عبيد: جمع القَوْس قياس؛ قال القُلاخُ بن حَزْن: ووَتَّرَ الأَساوِرُ القِياسا، صُغْدِيَّةً تَنتزِعُ الأَنْفاسا الأَساوِرُ: جمع أَسوار، وهو المقدَّم من أَساوِرة الفُرْس(١).

والسَّهْمُ واحد النَّبْلِ، وهو مَرْكَبُ النَّصْلِ، والجمع أَسْهُمٌ وسِهامٌ. قال ابن شميل: السَّهْمُ نفس النَّصْل، وقال: لو التَقَطْت نَصْلاً لقلت ما هذا السَّهْمُ معك، ولو التقطت قِدْحاً لم تقل ما هذا السَّهْمُ معك، والنَّصْلُ السَّهْم العريض الطويل يكون قريباً من فِتْرٍ والمِشْقَص على النصف من النَّصْل، ولا خير فيه، يَلْعَبُ به الوِلْدانُ، وهو شر النَّبْلِ وأَحرضه؛ قال: والسَّهْمُ ذو الغِرارَيْنِ والعَيْرِ، قال: والقُطْبَةُ لا تُعَدُّ سَهْماً، والمِرِّيخُ الذي على رأْسه العظيمة يرمي بها أَهل البصرة بين الهَدَفَيْنِ، والنَّضِيُّ متن القِدْح ما بين الفُوق والنَّصْل."(٢)

والقوس والسهم من الأدوات الفاعلة والمهمة، بل والضرورية في حياة ا لعربي في السلم والحرب، وفي الإغارة، والسلب والنهب والصيد...إلخ.

---

(١) لسان العرب ، مادة قوس ج ٣٩ ، ص ٣٧٧٣ .

(٢)المرجع السابق ، مادة سهم ج ٢٤ ، ص ٢١٣٥ .

والقوس والسهم في الحرب أداتا نصر وغلبة عند الجاهليين، فلذلك أكثروا من وصف قسِيِّهم وسهامهم التي أعدُّوها لقتال أعدائهم، وأكثروا من الافتخار بها.

وهي في السلم وسيلة لكسب العيش والقوة، عن طريق الصيد والقنص، وعليه أكثر شعراء العربية، وخاصة الجاهليين من التأمُّل في القوس والسهم، فتحدَّثوا عن أصلهما ونسبهما وصوتهما ولونهما ولباسهما وزينتهما، كما احتفوا ووصفوا غيرها من الأسلحة التي لا تقل أهمية عن القوس، فوصفوا وأمعنوا الوصف في السيف والرمح والدرع وغيرها...والذي سيأتي الاستشهاد عليه مع غيره ممَّا وصف الجاهليون واهتموا به.

ويُقصَد بالوصف: تصوير خواص الأشياء الحسية والمعنوية(١) ، وهو في حقيقة الأمر عمود الشعر وعماده، بل إنّ كل أغراض الشعر وصف؛ فالمدح وصف نبل الرجل وفضله والنسيب وصف النساء والحنين إليها، والشوق إلى لقائهنَّ، والرثاء وصف محاسن الميت، وتصوير آثاره وفضائله، والهجاء وصف سوءات المهجوِّ، وتصوير نقائضه ومعايبه، وهكذا الكل من هذه الموضوعات يدخل تحت الوصف، وهو الأكثر شيوعًا وذيوعًا، وهو كما أشار صاحب العمدة يفوق العدَّ، فقال: "الشعر إلاَّ أقلّه راجعٌ إلى باب الوصف، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه"(٢). فإن كان غيره من الموضوعات والفنون الشعرية قد اختصَّت بجانب من الجوانب الإنسانية والحياتية، فإنه قد تناول موضوعات الشعر الغنائي مجتمعة.

ويرى عبد العظيم علي قناوي أنَّ "فن الوصف هو أول ما نطق به الشعراء، لا ما يرى البعض من أنّ الشعر الحماسي هو أول ضروب الشعر، وحتى إنْ رضينا بهذا الذي يُقال، فإننا نُرجِع الشعر الحماسي إليه؛ لأنه وصف لضروب من الشجاعة والفتوّة، وعرض لصور من البطولة والقوة"(٣).

---

(١)الأسلوب، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط٩، ١٩٩٥م، ص١٠٣.

(٢)العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني،ت محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل، بيروت، ط ٥ ، ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م ،ج ٢ ص٢٩٤.

(٣)الوصف في الشعر العربي، عبد العظيم علي قناوي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط١، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م، ص٤٣.

وممّا يدلّ على طغيان غرض الوصف في الشعر الجاهلي، ظهوره ظهورًا جليًّا في مطالع قصائدهم، فنجدهم مرةً يقفون واصفين للأطلال أو الظعن، أو وصف الحبيبة، أو وصف الخمر أحيانًا، ثم ينتقل في قصيدته من وصف إلى وصف، حتى تكاد تنتهي القصيدة، وإذا بالوصف يستحوذِ على أغلبها.

لقد تعلّق الشاعر العربي بحب الطبيعة بكل ما فيها من مظاهر وظواهر كونية متنوِّعة أقلَّتها أرضه، وأظلّتها سماؤه، فمنحها فيض حبه، وأسبغ عليها نفحات فكره "فالطبيعة توحي للشعراء في كل عصر بكثير من المعاني والآثار الأدبية الرائعة، وقد افتُتِن بها الشعراء وصوَّروها في مختلف مظاهرها، ورسموا لها صورًا تجمع غالبًا بين الصدق والأداء، وبراعة الوصف، وإظهار الدقائق والتفاصيل وحرارة الإحساس"[1].

وصور الطبيعة من حوله خير تصوير، كما تمثّلت في نفسه، وحسَّنها وجمّلها، ووشَّى صورها بشيءٍ من خياله، "ذلك بأنّ الشاعر العربي القديم كان شاعر طبيعة، يتأمّل فيها، ويبثّها آلامه وينسى عندها أحزانه، ويحبها ويُفتَن بها، ويصوِّرها، كما امتثلتها نفسه، تثير الأطلال شجونه، وتملك عليه الناقة والبعير والقوس فؤاده"[2].

لذا "كانت الطبيعة التي عُرِفت في الشعر العربي هي تلك الطبيعة التي تشمل كل ما تتناوله حواسنا وإدراكنا ومشاعرنا في الكون المحيط بنا، ونجد أثره في نفوسنا"[3].

وقد جاء الوصف في ذلك العصر وصفًا للطبيعة الصامتة والمتحرِّكة، فمن الطبيعة الصامتة التي أسهب الشعراء في وصفها: الجبال، والكثبان، والسراب، والوديان، والدارات، والبرق، والرياض، والحرّات، والآبار والعيون، والحساء، والرياح والأمطار والأنواء، والنجوم، والشجر والنبات، والسلاح وأنواعه.

---

(١)ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ،

(٢)شعر الطبيعة في الأدب العربي، السيد نوفل، دار المعارف، مصر، ط١، د.ط، ص٢٤.

(٣)المحاكاة في مرآة الطبيعة والفن، إسماعيل الصيفي، دار المعرفة الجامعية، ط١، ١٤٠٩هـ، ص١٣.

ومن الطبيعة المتحرِّكة، وصفوا الإنسان نفسه، والحيوان الأليف والوحشي، والطيور، والزواحف والحشرات، وغيرها ممَّا عنّ لهم وظهر، فكانت أشعارهم وقصائدهم حافلة بالوصف الجميل المصوِّر لتلك الطبيعة بشقَّيْها تصويرًا، يكاد يكون ظاهرًا للعيان.

"والصحراء بطبيعة الحال تشكِّل مسرحًا كبيرًا في حياة الشاعر العربي، ومعينًا رقراقًا لا تنضب مياهه، ولا تجفُّ جداوله المتدفِّقة بحيواناتها وديارها وأطلالها، واستوقفته أمطارها وسحبها وبروقها ورعودها وليلها ونهارها، وألهمته مراميها وجبالها وآلمته غربتها فسجّل ذلك في شعره وصفًا، ومنحه فيض عنايته ووهبه جليل رعايته، كما استهوته الصحراء برياحها العاتية وشمسها الحارقة صيفًا، وقرِّها اللافح وبردها القارص شتاءً"(١)

فجميع ما ذكر مجال وصف الشعراء وحديثهم، ومكان تعبيرهم الذي ولّد لنا أدبًا قيِّمًا بديعًا جميلاً.

وعبَّر شعرهم عموماً ، وغرض الوصف خصوصا عن مشاعرهم وأحاسيسهم النفسية والداخلية ، فتوجهوا في شعرهم إلى محاكاة ما يحيط بهم ، وتصويره تصويراً دقيقاً ، وبأسلوب تختلج فيه الحواس ، وتتداخل فيما بينها ، فتتغير تعابيره ، وتتراسل من خلاله صوره الفنية .

وسيتطرَّق البحث لشيءٍ ممّا وصفه الشعراء الجاهليون، وأجادوا وصفه ، مقتصراً على نماذج منه؛ لأنّ الحديث حول هذا الموضوع يحتاج بحثًا مستقلاً خاصًا به.

ومن أجمل ما ذكره شعراء الوصف وصف مكارم الأخلاق، فبيَّنوا فيها وأبدعوا فيما قالوه فيها من شعر، ومن ذلك وصفهم الإنسان بصفات الكرم والشجاعة وإجارة المستجير وإغاثة الملهوف، وغيرها من الصفات الحميدة، التي كانت تصف وصفًا واقعيًا أمينًا، وكانوا يأبون المبالغات الممقوتة التي عرضها الشعر العربي في العصور المتأخِّرة.

---

(١)الوصف لدى الشعراء الصعاليك حتى نهاية العصر الأموي، فوزرية مبارك الدوسري، رسالة دكتوراه، ١٤٢٩-١٤٣٠هـ (بتصرُّف).

فهذا زهير بن أبي سلمى يمدح صاحبه بالشجاعة،وقيل أنها لكعب فيقول(١):

**إِذَا الخَيْلُ جَالَتْ فِي القَنَا وَتَكَشَّفَتْ عَـوَابِسُ لاَ يَسْـأَلَنَّ غَيْـرَ طِعَـانِ**

**وَكَرَّتْ جَمِيعًا، ثُمَّ فَرَّقَ بَيْنَهَا سَـقَى رُمْحَـهُ مِنْهَـا بِأَحْمَـرَ قَـانِ**

**فَتًى لاَ يُلاَقِي القِرْنَ إِلاَّ بِصَدْرِهِ إِذَا أَرْعَشَتْ أَحْشَاءُ كُلُّ جَبَانِ(٢)**

يُقرِّر زهير أنّ ممدوحه في الموقف العصيب يتقدَّم الصفوف، ويسقي رمحه بالدم الحار، ويقابل قرنه بصدره. يقرِّر هذا من خلال عرضه صورة ذات دلالة كبيرة على شجاعة ممدوحه، وإقدامه ورباطة جأشه وثباته. إنه يصوِّر رهبة الوضع وصعوبته ؛ بذكر الخيل المنهزمة التي تجول ومعها القنا عوابس؛ لما رأت من الهول والهزيمة، لا يسألنَّ غير الطعان، وأحشاء الجبان ترتعش، فصوَّره صورة بالغة، لم تخرج عن حدود الواقع المألوف.

ومن بديع ما ذكر في وصف الكرم، قصة الفقير الذي ليس عنده من الزاد شيءٌ، ونزل به ضيفٌ في تلك الصحراء القاحلة، الحطيئة مصوِّرًا ذلك الموقف العظيم بقوله:(٣)

**وَطَاوِي ثَلاَثٍ، عَاصِبِ البَطْنِ مُرْمَلٍ بِبَيْـدَاءَ لَمْ يَعْـرِفْ بِهَـا سَـاكِنٌ رَسْمَـا**

**وَأَفْرَدَ فِي شِعْبٍ عَجُوزًا، إِزَاءَهَا ثَلاَثَـــةُ أَشْـــبَاحٍ تَخَـــالُهُمْ بُهْمَـــا**

**حُفَاةٌ عُرَاةٌ، مَا اغْتَذَوْا خُبْزَ مُلَّةٍ وَلاَ عَرَفُوا لِلْبُرِّ مُذْ خُلِقُوا طَعْمَا(٤)**

هنا وصفٌ ظاهريٌ دقيق لأعرابي كاد الجوع أن يقتله، مضت عليه ثلاث ليالٍ لم يذُق فيها الطعام، فعصب بطنه في بيداء مقحلة، لم ينزل بها أحدٌ، وليس فيها رسم لساكن، وهو رجل غليظ الطبع، يستوحش، إذا رأى إنسانًا ويفزع، فهو يعيش في بؤس وشقاء، ومع ذلك

---

(١)شرح شعر زهير ، لأبي العباس ثعلب ، ت د . فخر الدين قباوة ، مطبعة الغوثاني ، دمشق، ط ٣، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٨ م ، ص ٢٧٠ –٢٧١ .

(٢)عوابس : كوالح في الحرب ،القنا: الرماح، تكشَّفت: انهزمت، ، آن: الذي قد انتهت حمرته ، القرن: من يقاومه في الحرب. ( ينظر شرح شعر زهير ، ص ٢٧٠ –٢٧١)

(٣)"ديوان" الحطيئة، برواية وشرح ابن السكيت (١٨٦–٢٤٦هـ)، ت: نعمان محمد أمين طه، مكتبة الخانجي القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٣٣٧.

(٤)الطاوي: الجائع، المرمل: المحتاج، الجفوة: غلظ الطبع، البؤس: الشدة، الشعب: الطريق في الجبل، البُهم: ولد الضأن والماعز، الملة: الرماد الحار.( ينظر الديوان ، ص٣٣٧ )

يرى ذلك نعمى..فهو قد ألف مكانه ورضي بواقعه، يعيش في شعب من شعاب هذه البيداء الموحشة مع عجوز فانية وأولاد ثلاثة، طواهم الجوع والهم، فغدوا كأنهم أشباح حفاة، عراة، جياع، ما ذاقوا خبز البرّ طيلة حياتهم.

ثم شرع في وصف داخلي، ينفذ إلى الأعماق، يقول:(١)

**رَأَى شَبَحًا وَسْطَ الظَّلاَمِ فَرَاعَهُ ... فَلَمَّا بَدَا ضَيْفًا تَسَوَّرَ وَاهْتَمَّا**

**فَقَالَ ابْنُهُ لَمَّا رَآهُ بِحِيرَةٍ ... أَيَا أَبَتِ! اذْبَحْنِي وَيَسِّرْ لَهُ طُعْمَا**

**وَلاَ تَعْتَذِرْ بِالعَدَمِ عَلَّ الذِّي طَرا ... يَظُنُّ لَنَا مَالاً فَيُوسِعُنَا ذَمَّا**

**فَرَوَّى قَلِيلاً، ثُمَّ أَحْجَمَ بُرْهَةً ... وَإِنْ هُوَ لَمْ يَذْبَحْ فَتَاهُ فَقَدْ هَمَّا**

**وَقَالَ: هَيَا رَبَّاهُ ضَيْفٌ وَلاَ قِرَى ... بِحَقِّكَ لاَ تَحْرِمْهُ تَاللَّيلَةَ اللَّحْمَا**(٢)

يصف براعة هذا البدوي الفقير من هذا الذي أقبل عليه، لا يكن عدوًا، فلما أنْ رأى أنه ضيفٌ، اغتمّ واهتمّ واستعدَّ، ولكن بماذا وهو لا يجد شيئًا؟ فعلاه الهمّ والحيرة، وفطن ابنه لما ألمّ به، فقال الولد لوالده: أيا أبتِ، اذبحني ويسّر له طعمًا، ولا تعتذِر منه بالعدم، فلعله يظنّ أننا نملك مالاً، فيُوسِعنا ذمًّا لبخلنا، ولأننا لم نقُم بواجبه.

فأخذ هذا الكلام منه مأخذًا، وبدأ يشاور نفسه، فهو بين أمريْن أحلاهما مرٌّ: إمَّا التضحية بولده، وإمَّا إكرام ضيفه والقيام بحقه، ثم أحجم متردِّدًا، ثم خاطب ربه متلهِّفًا للإجابة بنبرة تكاد تخنقه، فكيف يصنع؟ ثم يصوِّر لنا الشاعر ما آلت إليه حال هذا الفقير وابنه بعدما طاله من الهمّ والغمّ ما طاله.

فيقول:(٣)

**فَبَيْنَا هُمَا عَنَّتْ عَلَى البُعْدِ عَانَةٌ ... قَدِ انْتَظَمَتْ مِنْ خَلْفِ مِسْحَلِهَا نَظْمَا**

**ظِمَاءُ، تُرِيدُ المَاءَ، فَانْسَابَ نَحْوَهَا ... عَلَى أَنَّهُ مِنْهَا إِلَى دَمِهَا أَظْمَا**

---

(١)"ديوان" الحطيئة، ص٣٣٧.

(٢)تسوَّر: أقبل عليه وهجم، اهتمَّ: اغتمَّ، العدم: الفقر، طرًّا: نزل به، روَّى: فكَّر.( ينظر الديوان ، ص٣٣٧ )

(٣)"ديوان" الحطيئة، ص٣٣٨.

فَأَمْهَلَهَا حَتَّى تَرَوَّتْ عِطَاشَهَا فَأَرْسَلَ فِيهَا مِنْ كِنَانَتِهَا سَهْمَا
فَخَرَّتْ نَحُوصٌ، ذَاتَ جَحْشٍ فَتِيَّةٍ قَدِ اكْتَنَزَتْ لَحْمًا، وَقَدْ طَبَّقَتْ شَحْمَا
فَيَا بِشْرَهُ إِذْ جَرَّهَا نَحْوَ أَهْلِهِ وَيَا بِشْرَهُمْ لَمَّا رَأَوْا كَلْمَهَا يَدْمِي(١)

حان الفرح، وزال الغمّ والهمّ، حين رأى ذلك الفقير قطيع من الحمر، ترد الماء منتظمة خلف حمارها القائد، عطشى تريد الماء، ولكنه أظمأ إلى دمها منها إلى الماء، فصاد واحدة منها، قد طبقت شحمًا، فاستبشر ورجع بها يجرّها لأهله ليقضوا حق ضيفهم.

وممّا أمعن الشعراء في وصفه المرأة، فتحدثوا عنها في غالب قصائدهم، وبيّنوا فضائلها ومحاسنها متغزّلين بها، ولكن ما سيُذكَر في هذا البحث هو ما قِيل في المرأة من الأخلاق النبيلة ، والجمال العفيف، الذي لم يُدنَّس، والذي نجد من خلاله صورتها، وقد تضمَّنت أطيب الصفات وأحسن المزايا من الاحتشام والستر .

فها هو الشنفرى يصف لنا المرأة المثال، راسمًا لها كافة مقوِّمات العفة والشرف، فيقول:( ٢)

لَقَدْ أَعْجَبَتْنِي لاَ سُقُوطًا قِنَاعُهَا إِذَا مَا مَشَتْ وَلاَ بِذَاتِ تَلَفُّتِ
تَبِيتُ فِي مَعْبَدِ النَّوْمِ تُهْدِي غَبُوقَهَا لِجَارَتِهَا إِذَا الهَدِيَّةُ قَلَّتِ
تَحُلُّ بِمَنْجَاةٍ مَنَ اللَّوْمِ بَيْتَهَا إِذَا مَا بُيُوتٌ بِالمَذَمَّةِ حَلَّتِ
أُمَيْمَةُ لاَ يَخْزَى نَثَاهَا حَلِيلُهَا إِذَا ذُكِرَ النِّسْوَانُ عَفَّتْ وجُلَّتِ
إِذَا هُوَ أَمْسَى آبَ قُرَّةَ عَيْنِهِ مَآبَ السَّعِيدِ لَمْ يَسَلْ أَيْنَ ظَلَّتِ(٣)

(١)عنَّت: عرضت، العانة: القطيع من حمر الوحش، المسحل: الحمار الوحشي، النحوص: الأتان الوحشية، اكتنزت: امتلأت.( ينظر الديوان ، ص ٣٣٨ )

(٢)"ديوان" الشنفرى، ت: أميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص٣٢.

(٣)لا سقوطًا قناعها: لا يسقط قناعها لشدة حيائها، ولا بذات تلفُّت: لا تكثِر التلفت لأنه فعل أهل الريبة، تهديه غبوقها: أي تُؤثِر جارتها بالغبوق وهو ما يُشرَب بالعشيّ، إذا الهدية قلت: أي في أيام الشحّ والقحط، المنجاة: من النجوة وهي الارتفاع، أميمة: تصغير الأم، النثا: ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سوء، حليلها: زوجها، آب: رجع.( ينظر الديوان ، ص ٣٢ )

تبيّن من خلال هذه الأبيات تلك المرأة الجامعة للحشمة والعفة والكرم والوفاء والإخلاص، لا كما يُدعَى إليه في زماننا هذا من التبرُّج والسفور والاختلاط.

وممَّا وصفه الشعراء من تلك الطبيعة الجاهلية الصحراوية الناقة والخيل، ومن أشهر مَن وصف الناقة ، طرفة بن العبد حيث يقول :(١)

**وَإِنِّي لَأَمْضِي الهَمَّ عِنْدَ احْتِضَارِهِ بِعَوْجَاءَمِرْقَـــالَ تَـــرُوحُ وَتَغْتَـــدِي**
**أَمُونٌ كَأَلْوَاحِ الإِرَانِ نَسَاتُهَا عَلَـى لاَحِـبٍ كَأَنَّـهُ ظَهْـرِ بَرْجَـدِ(٢)**

إنَّ ممَّا يُزيل همَّ الشاعر -كما يقول- ذهابه ومجيئه على ناقة نشيطة، تقطع المفاوز وتسير ليلها ونهارها بسرعة، ممّا يجعله يسلو بها عن همومه التي لازمته، وهي مع ذلك مأمونة الجانب كأنها في وقتها تابوت عظيم، وهو يضربها بعصا على طريق واضح كأنه كساء مخطط في عرضه، والوصف للناقة في هذه القصيدة يطول، وليس هنا مجال بسطه.

ومما وصف الشعراء الجاهليون الخيل، ومن ذلك قول امرئ القيس:(٣)

**وقَدْ أغتَدي وَالطّيرُ فِي وُكُناتِهَا بمُنجَـــرِدٍ قَيْـــدِ الأَوابِـــدِ هَيْكَـــلِ**
**مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ**
**كُمَيتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عنْ حَالِ مَتْنِهِ كَمَـــا زَلَّـــتِ الصّـــفْوَاءُ بِالْمُتَنَـــزِّلِ**

(١)"ديوان"طرفة،أخرجه الأعلم الشنتمري،ت: درية الخطيب،لطفي الصقال،دار الفارس للنشر،الأردن، ط٢،ص ٢٨.

(٢)العوجاء : الضامرة التي لحق بطنها بظهرها ، الإرقال : أن يسرع البعير وينفض رأسه ، تروح وتغتدي : أي تصل آخر النهار بأوله في السير ، أمون : الموثقة الخلق التي يؤمن عثارها . الإران : تابوت كان يحملون فيه الموتى ، شبه الناقة في إجفار جنبيها وشدة خلقها به .نسأتها وفي رواية نصأتها : زجرتها وقدمتها ، والأصل أن تضرب بالمنسأة وهي العصا ، اللاحب : الطريق البين الذي أثر فيه المشي ، البرجد : كساء مخطط .( ينظر الديوان ، ص ٢٨ )

(٣)"ديوان" امرئ القيس، ت: محمد إبراهيم أبو الفضل، دار المعارف، مصر، ط٥، ص ١٩ -٢٠ .

**مِسَحٍّ إذا ما السَّابِحَاتُ على الوَنَى    أَثَـــرْنَ غُبَـــارًا بالكَدِيـــدِ المُرَكَّـــلِ**[1]

يصف الشاعر حالة خروجه باكرًا قبل بزوغ الشمس، وقبل أنْ تخرج الطيور من أعشاشها، بفرس قصير الشعر، لا يدع فرصةً للوحش أنْ يفرّ، فهو سريع يسابق الوحوش، ضخم في شكله هيكل، يشبه بيت النصارى والمجوس.

وإنْ أراده يكرّ على العدو، وجد ذلك عنده، وشبّه صلابته وصلابة حافره بالجلمود، وهذا الجلمود منحطٌّ من فوق الجبل، فكأنّه شبّه سرعة الفرس وصلابته به، أملس المتن كأنّه صخرة ملساء، فهو يشبِّه ظهره بالصخرة الملساء، وتجد هذا الفرس يسحّ العدو كأنّه يسحّ المطر، وسحّ المطر هو انصبابه، فهو يشبّه سرعته بالمطر إذا نزل وكأنّه السابحات التي تطأ وتركل كل ما غلظ من الأرض، فتثير غبارًا مع غلظتها، وهذا ممّا يدلّ على قوة وقعها وشدتها وصلابتها.

وممّا وصف الجاهليون كذلك الجبال، وقللها، وعدُّوا صعودها مفخرةً، قول تأبّط شرًّا[2]:

**وَقُلَّةٍ كَسِنَانِ الرُّمحِ بَارِزةٍ    ضَحْيَانَةٍفِي شُهُورِ الصَّيْفِ مِحْرَاقِ**

**بَادَرتُ قنَّتَهَا صَحْبِي ومَا كَسِلُوا    حَتَّى نَمَيْتُ إلَيْهَا بَعْدَ إشْرَاقِ**[3]

فهي قنة دقيقة كالرماح، تؤثِّر فيمن استقرّ عليها، ظاهرة للشمس، قريبة منها، تحرق من قرب وصعد إليها، فبيّن مفتخرًا كذلك بصعوده لها، بازًا أقرانه الذين ليسوا كسالى ولا عاجزين، وإنما فاقهم بقوته وعجلته، فصار في طليعتهم بعد إشراق الشمس.

---

(١)الوكنات: المواضع التي تأوي إليها الطير، المنجرد: الفرس القصير الشعر؛ وبذلك توصف العتاق ، الأوابد: الوحش، وجعله قيداً لها ؛لأنه يسبقها فيمنعها من الفوت ، الهيكل : الفرس الضخم ، المقبل : المكر، والمدبر : هو المفر، وشبه صلابته وصلابة حافره بالجلمود ؛ وجعله منحطاً من فوق الجبل ؛ لأن ذلك أصلب وأسرع له ؛ فشبه به.
كميت يزلّ اللّبد : أملس المتن ، حال : موضع اللبد من ظهره ، الصفواء: الصخرة الملساء ، مسح : أي يسح العدْوَ سَحّاً مثل سح المطر؛ وهو انصبابه ، السابحات : التي تبسط يديها إذا عدت فكأنها تسبح ، الونى : الفتور ، الكديد : ما غلظ من الأرض ، المركل : الذي ركلته الخيل بحوافرها ؛ فأثارت الغبار لصلابتها وشدة وقعها. ( ينظر الديوان ١٩ -٢٠ )

(٢)"ديوان" تأبَّط شرًّا وأخباره، ت: علي ذي الفقار شاعر، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢، ١٤٠٤- ١٤١٩هـ/ ١٩٨٤- ١٩٩٩م، ص ١٣٨-١٣٩.

(٣)القلة : أعلى الجبل ، كسنان الرمح : يصف دقتها لطولها وصعوبة صعودها ، الضحيانة: البارزة للشمس، محراق: يحرق من فيها ، القنة : الجبل المنفرد المستطيل في السماء .( ينظر الديوان ، ص ١٣٨ — ١٣٩ )

والمطر يشكّل في حياة العربي أمرًا هامًا وحدثًا جميلاً عظيمًا، يأنس به ويستبشر بقدومه، ويخرج حين نزوله، وتفيض قريحته حال وبعد نزوله، ممّا أثار قرائح شعراء تلك الحقبة الزمنية. ولعلّ البحث يقف على مثال من أمثلة وصف المطر وترقُّبه، ومن ذلك قول امرئ القيس يصف ديمةً:(١)

دِيمَةٌ هَطْلاءُ فِيهَا وَطَفٌ طَبّقَ الأرْضَ تَحَرّى وَتَدِرْ
تُخرِجُ الوُدَّ إِذَا مَا أَشْجَذَتْ وَتُوَارِيهِ إِذَا مَا تَشْتَكِرْ(٢)

وَتَرَى الضَّبَّ خَفِيفاً مَاهِرًا ثَانِياً بُرْثُنَهُ مَا يَنْعَفِرْ
وَتَرَى الشَّجْرَاءَ فِي رَيِّقِهِ كَرُؤوسٍ قُطِعَتْ فِيهَا الخُمُرْ
سَاعَةً ثُمَّ انْتَحَاهَا وَابِلٌ سَاقِطُ الأَكنَافِ وَاهٍ مُنهَمِرْ(٣)

هذه مطردة دائمة التسكاب، ومزنة ماضية الانصباب، غايتها ملء أطباق الأرض بدموعها الغزار، فترى أوتاد الأخبية بادية، ظاهرة عندما تقلع عن السكب، وخافية متوارية عندما يحتفل المطر ويشتد الغيث، فهي تبدو إذا هدئت، وتتوارى إذا غطيت، وترى الضبّ وقد أبرزه من جحره رابحًا ماهرًا خفيفًا نشيطًا، يثني برثنه ويبسطه، كما يثني السابح ذراعه ويمدّه، فلا يتعفّر بالتراب، فقد أذهبه طول الانسكاب، وترى الأرض ذات الأشجار، وقد غطّاها المطر أول دفعته، فليس يبدون منها إلاّ رءوس أشجارها، فظهرت وقد علاها الزبد كرءوس انفصلت أعناقها، وغطتها خمرها. استمرّ هذا الغيث ساعة، ثم اعتمدها وابلٌ منهمِر، وسيل منحدِر، يعمّ نواحيها، ويفعِم أكنافها، فالسحاب متشقق بالماء.

---

(١)الوصف في الشعر العربي، عبد العظيم علي قناوي ، ط١ ، ١٣٦٨ = ١٩٤٩ ، ص٢٥٨-٢٥٩.( بتصرف )

(٢)الديمة : المطر الدائم ، الهطلاء: الكثيرة الهطل ، الوطف : الدنو من الأرض ، طبق الأرض : تعم الأرض لسعتها وكثرة مطرها ، تحرى : تتعمد المكان وتثبت فيه ، تدر : يكثر ماؤها وترسل درها ، تخرج الود : الوتد، أشجذت : أقلعت وسكنت ، تشتكر : تحتفل ويكثر مطرها . ( الديوان ، ص ١٤٤ ) .

(٣)ماهرًا : يعني حاذقاً بالعدو خفيفاً لما يرى من كثرة المطر ، البراثن : بمنزلة الأصابع من الإنسان ، ما ينعفر : أي لا يصيبه العفر وهو التراب ، الشجراء : اسم لجمع الشجر الكثير ، ريقه : أوله — أي المطر – ، انتحاها : اعتمدها، الوابل : المطر الشديد، ساقط الأكناف : أي دان قريب من الأرض . ، الأكناف : النواحي ، واه منهمر : أي متخرق متشقق بالماء ، يعني السحاب ، المنهمر : المنسكب السريع السيل .(ديوان امرئ القيس ص ١٤٥ )

يقول عبد العظيم قناوي: "في هذه الأبيات جمال، تحدَّث عنه القدماء، فقالوا: إنّ هذا أشعر ما جاء في وصف الغيث، وسأل أبو عمرو بن العلاء ذا الرمة: أيُّ الشعراء الذين وصفوا الغيث أشعر؟ فقال: امرؤ القيس، وأنشد الأبيات"(١).

إن السلاح عند العربي من ضروريات الحياة في ذلك العصر لما يقوم بينهم من حروب ونزاعات تحتم عليهم اقتناءه ؛ ولأنها مصدر اعتزاز عندهم ومجال فخر، يزدادون بها شرفًا بين القبائل، فبقدر امتلاكهم للأسلحة وتمكُّنهم من التعامل معها، بقدر ما تكون لهم المكانة العالية في مجتمعهم. وأبرز أسلحتهم السيف والرمح والقوس والدرع والسهم والنبل، واهتموا بوصفها في شعرهم، حتى لا تكاد تخلو قصائدهم من ذكر السلاح. وسيقف البحث على شعر شاعر،وصف الأسلحة ، وأبدع في وصفها، وهو أوس بن حجر حيث يقول:(٢)

| | |
|---|---|
| **وَإِنِّي امْرُؤٌ أعْدَدْتُ للحرْبِ بَعْدَمَا** | **رَأَيْتُ لها نابًا منَ الشَّرِّ أَعْصَلاَ** |
| **أَصَمَّ رُدَيْنِيًّا كَأَنّ كُعوبَهُ** | **نوَى القَسبِ عرّاصًا مُزْجًّا مُنَصَّلاَ** |
| **عَلَيْهِ كمِصْباحِ العَزيزِ يَشُبُّهُ** | **لِفِصْحٍ وَيَحشوه الذبالَ المُفَتَّلاَ** |
| **وَأمْلَسَ صُولِيّاً كَنِهْيِ قَرَارَةٍ** | **أحسّ بقاعٍ نفحَ ريحٍ فأجفلاَ** |
| **كأنّ قرُونَ الشَّمْسِ عند ارْتفاعِهَا** | **وَقدْ صَادَفَتْ طَلْقًا منَ النَّجم أعزَلاَ** |
| **تَرَدّدَ فِيه ضَوْؤهَا وَشُعَاعُهَا** | **فأحسنْ وأزينْ بامرىءٍأن تسربلاَ** |
| **وَأَبْيَضَ هِنْدِيًّا كَأَنّ غِرَارَهُ** | **تَلأَلُؤُ بَرْقٍ في حَبِيٍّ تكلّلاَ** |
| **ومَبْضُوعَةً منْ رأسِ فرعٍ شظيّةً** | **بِطَوْدٍ تَرَاهُ بالسَّحابِ مجلَّلاَ** |
| **علَى ظَهْرِ صَفْوَانٍ كأنَّ مُتُونَهُ** | **عُلِلْنَ بِدُهْنٍ يُزْلِقُ المُتَنَزَّلاَ** (٣) |

(١)الوصف في الشعر العربي، ص٢٥٨-٢٥٩.

(٢)"ديوان" أوس بن حجر، ت: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص٨٣-٨٦.

(٣)أعددت : هيأت عدة ، أعصل : أعوج ، أصم : المصمت الذي لا جوف له أي رمحًا أصم ، الرديني : منسوب إلى ردينة امرأة تقوم الرماح ، الكعب : الأنبوب ، القسب : تمر يابس نواه مر صلب ، العراص ، الشديد الاضطراب ، المزجى: الذي جعل له زج ، وهو الحديدة في أسفل الرمح تغرز في الأرض، المنصل: الذي جعل له نصل وهو السنان .

المصباح: السراج ، يشبه : يوقده ، الفصح : يوم فطر النصارى ، الذبال ك الفتائل ، الأملس : الدرع الناعم المشدود ، صولياً نسبة إلى صول ، النهي : غدير الماء ،الأعزل : هو أحد السماكين ، والثاني هو الرامح وهو من

يصف أوس استعداده للحرب، بعد ما كشّر نابها، رمحًا رديْنيًا، نسبة إلى امرأة تقوِّم الرماح، عقدة صلبة متينة، شبّهها بنوى القسب، وبأنه ليّن يهتزكله إذا حرّكه، وبأن عليه سنانًا يلمع كأنها مصباح الملك، الذي يوقده في عيد النصارى، وفي أسفله رجّ يغرز في الأرض، ودرعًا شبّه بريقها وتجعدها ببريق ماء الغدير وتجعده إذا هبّت الريح على سطحه أو بضوء الشمس عندما تنعكس عليه،فما أجمل وأحسن أنْ يستهلّ المرء بها، وما أزينه.

وسيف شبّه بريقه يتلألأ برق في سحاب متراكم، وإذا سلّ غمده توهَّج ولمع، كما تلمع الفضة، ويصف قوسه بأنها مصنوعة من أصل شجرة ثابتة في جبل مجلل بالسحب فوق صخر أصمّ، وكأنه نهل، ومحلّى من دهن يزل منه الحذر، ويزلق من تعلاّه ونزل به.

وممن وصف قوسه، طفيْل الغنوي قائلاً:[1]

رَمَت عَنْ قِسيّ الماسِخِيّ رِجَالُنَا  بِأَجوَدَ ما يُبتاعُ مِن نَبلِ يَثرِبِ
كَأَنَّ عَراقيبَ القَطا أُطُرٌ لَهَا  حَديثُ نَواحِيهَا بِوَقْعٍ وَصُلَّبِ
كُسِينَ ظُهَارَ الرّيشِ مِنْ كُلِّ ناهِضٍ  إلى وَكرِهِ وَكُلِّ جَونٍ مُقَشَّبِ[2]

فهو يصف الرجل الذي اشتهر بصنع القسيّ، وهو الماسخي، وتسمية المدينة التي اشتهرت بصنع النبال، وهي (مدينة يثرب)، وشبّه منحنى القوس بعراقيب القطا، وأنّ النبال كُسِيت بريش الطيور الصغيرة والكبيرة.

و موضوع البحث يُغنِي ؛ فهو في وصف القوس....

---

منازل القمر ، به ينزل ، أبيض : السيف ، الغرار: حد السيف ، الحبي ك ما حبى من السحاب ، أي ارتفع وأشرف ، تكلل السحاب صار بعضه فوق بعض وهو أشد لإضاءة البرق . مبضوعة: أي مقطوعة، الفرع: أعلى الشجرة، الشظية: الشقة والفلقة، وهي صفة للمبضوعة، مجللاً: جلّله: بمعنى غطّاه وألبسه، على ظهر صفوان: حجر يزلق المتنزل لملامسته، علِّلن: سقين مرةً بعد مرة. ( ينظر الديوان ، ص٨٣-٨٦ ) .

(١)"ديوان" طفيْل الغنوي، شرح الأصمعي، ت: حسان فلاح أوغلي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص٤٤-٤٥.

(٢)الماسخي: رجل نسبت إليه القسيّ، يبتاع: يشتري بيثرب، عراقيب القطا أطر لها: هي العقب التي تكون فوق السهم، والأطر عوضًا لها، والوقع: المطرقة، والصلب: المسنّ، يقال: سنان يصلب على المسنّ، الظهار من الريش: الشيء القصير والطويل يقال له البطنان، الناهض، الفرخ الذي قدر أن ينهض إلى وكره... الجون: المسنّ، مقشب: قد قشب بسم غلت له به طعامه.( ينظر الديوان، ص٤٤-٤٥ )

# الفصل الأول

## سياقات وصف القوس ومواقعه في بنية النصّ

المبحث الأول : القوس والإنسان.

المبحث الثاني : القوس والناقة .

المبحث الثالث : القوس والصيد .

المبحث الرابع : القوس والحرب .

## المبحث الأول: القوس والإنسان، سياقاته ومواقعه:

لقد كانت القبيلة في العصر الجاهلي قوام المجتمع؛ فهو يتألَّف من قبائل عدّة منتشرة في أرجاء الجزيرة العربية. وقد دفع مناخها الحار وقسوة طبيعتها كثيرًا من القبائل إلى التنقُّل وعدم الاستقرار؛ طلبًا للماء والكلأ، ولما كان الماء قليلاً، والمرعى شحيحًا، نشبت النزاعات حولهما، وكثُرت الأيام والوقائع بسببها، وحصل القتل والثأر للدماء وللقبيلة، فتكتَّلت القبائل، وتحالفت في مواجهة بعضها البعض.

هكذا كانت حياة الإنسان في المجتمع القبَلي قبل الإسلام، يصارع قسوة الصحراء، ويناضل في سبيل البقاء.

وممّا تحتِّمه حياة العرب في تلك الحقبة الزمنية القائمة على المخاطر والمخاوف والحذر والترقُّب، أنْ يستخدموا الأسلحة الشخصية الخفيفة؛ من سيف، ورمح، وقوس، وسهم، ودرع؛ لاعتمادهم على أنفسهم في هذه الحياة القاسية، والظروف الحالكة الصعبة، التي جعلت الواحد منهم -في الغالب- يعتمد اعتمادًا كليًا على نفسه في الذوْد عنها، وعن ماله وعرضه وما يملك.

لقد أولى الإنسان العربي الجاهلي القوس عناية واهتمامًا، ممّا جعله يكابد ويجاهد من أجل الحصول على تلك القوس، مراعيًا إيَّاها مذ كانت حظوة في رأس جبل، ونبعة في سياق آخر، ومن الشريان في غيره، فأبدع كثيرٌ من الشعراء العرب في العصر الجاهلي في وصفها، والعناية بها، ممّا دعا إلى الإعجاب بها، وبذل الغالي والنفيس من أجل نيلها والحصول عليها، ولو كان في ذلك الموت والهلاك، كلّ ذلك من أجل الحصول على هذه الآلة الحربية السلمية في آنٍ واحد، فهي قد تستخدم للأعداء ودحرهم، ويأتي تفصيله في موضعه، وكذلك للصيد والبقاء، ويأتي بيانه في موضعه -بإذن الله-.

اهتمّ الشعراء الجاهليون بوصف القوس في قصائدهم وأشعارهم، حيث تحدَّثوا عن أصلها ونسبها ولونها وصوتها، وخلقها وخُلُقها، ولباسها وزينتها، من مُقلٍّ ومُستكثِر، فمن خلال استقراء بعض الشعر الجاهلي، وجدتُ أنّهم تطرَّقوا للقوس من خلال تلك القصائد وفي معرض حديثهم عن أسلحتهم التي يقتنونها في سلمهم وحربهم، ولكن تبين من خلال

البحث أنَّ هناك شعراء اعتنوا بها عناية فائقة في شعرهم حتى أطالوا في وصفها ، ومن أهمهم وأشهرهم: أوس بن حجر، والشماخ بن ضرار، والشنفرى، وأبي ذؤيب الهذلي.

ومن خلال هذا المبحث "سياقات القوس والإنسان والعلاقة الحميمة بين الإنسان وقوسه" سيبيّن البحث أوصاف القوس في شعرهم، وحديثهم عنها، مبتدئًا بأهمهم وأسبقهم وصفًا لها، ألا وهو أوس بن حجر، في قصيدتيْن: إحداهما مفتوحة الرويّ، والأخرى مضمومته، ومفتوحة الرويّ هي التي وصفت القوس بصورة واسعة بلغت اثنيْن وخمسين بيتًا، أغلبها حول القوس مكابدةً في طلبها ووصفًا لها ولتلك المكابدة ، يقول في مطلعها:[(١)]:

**صَحا قَلبُهُ عَن سُكرِهِ فَتَأَمَّلا وَكـانَ بِـذِكرى أُمِّ عَمـرٍو مُـوَكَّلا**

إلى أنْ وصل إلى وصف القوس، حيث يقول[(٢)]:

**وَمَبضوعَةً مِن رَأسِ فَرعٍ شَظِيَّةٍ بِطَـودٍ تَـراهُ بِالسَـحابِ مُجَلَّـلا**
**عَلَى ظَهرِ صَفوانٍ كَأَنَّ مُتونَهُ عُلِلنَ بِدُهنٍ يُزلِقُ المُتَنَزِّلا**[(٣)]

فبعد أنْ عرض الشاعر أسلحته في الحرب، ذكر القوس، وبيّن أنها مقطوعة من رأس جبل، تعانق السحاب، بعيدة المنال، إلاّ على مَن استسهل الصعب، وجدَّ واجتهد حتى يحصل عليها، وهذا الجبل الذي هو عليه أملس، كأنّه صبّ عليه دهن، ثم صبّ، فمَن صعده، زلق وسقط؛ لأنه مبلول بالدهن، وقد جاءت الباء في قوله بطود وبالسحاب موحِيةً بالبُعد والعلوّ:

**يُطيفُ بِها راعٍ يُجَشِّمُ نَفسَهُ لِيُكلِـئَ فيهـا طَرفَـهُ مُتَـأَمِّلا**
**فَلاقى اِمرَأً مِن مَيدَعانَ وَأَسمَحَت قَرونَتُهُ بِاليَأسِ مِنها فَعَجَّلا**[(٤)]

(١)"ديوان" أوس بن حجر، ص٨٢.

(٢)المصدر السابق، ص٨٥-٨٦.

(٣)مبضوعة: أي مقطوعة، الفرع: أعلى الشجرة، الشظية: الشقة والفلقة، وهي صفة للمبضوعة، مجللاً: جلّله: بمعنى غطّاه وألبسه، على ظهر صفوان: حجر يزلق المتنزل لملامسته، علِلن: سقين مرةً بعد مرة.(ينظر الديوان، ص٨٥-٨٦ )

(٤)يطيف بها راعٍ، أي يطوف بهذه القوس المبضوعة راعٍ حافظ، يحفظ منها منظرًا والكالئ الحافظ، وكلأ يكلأ: بمعنى: أطال النظر، وميدعان: حي من اليمن من أزد السراة، قرونته: نفسه.( ينظر الديوان ، ص ٨٥ - ٨٦)

وهذه النبعة لأهميتها ومكانتها، تجد مَن يراقبها عن كثبٍ، فهي تراقب من قبل راعٍ يطوف بها ويحرص ألاّ يراها أحدٌ غيره؛ لأنها صيدٌ ثمين يريد أن ينفرد به. وممّا يدلّنا على متابعته واستمراره في ذلك الفعل المضارع الذي تجده يتكرّر في هذا البيت "يطوف، يجشم، يكلأ".

ولما رأى في نفسه عدم القدرة للوصول إليها، ويئس من ذلك، قال لذلك الميدعاني: "وهو من قبيلة الأزد والذين منهم ماسخة التي ينسب إليهم القسيّ العربية"(١).

ويقول: (٢)

**فَقالَ لَهُ هَلْ تَذكُرَنَّ مُخَبِّرًا يَدُلُّ عَلى غُنمٍ وَيُقصِرُ مُعمِلا**

**عَلى خَيرِ ما أَبصَرتَها مِن بِضاعَةٍ لِمُلتَمِسٍ بَيعًا بِها أَوْ تَبَكُّلا**

**فُوَيقَ جُبَيلٍ شامِخِ الرَأسِ لَم تَكُن لِتَبلُغَهُ حَتّى تَكِلَّ وَتَعمَلا(٣)**

والميدعاني رجل خبير بالقسي وشجرها، وعارف بالطرق المؤدية إليها، "وكان دأب القواسين إذْ ذاك أنْ يطلبوا العيدان العتيقة من مظانها، ويستدلوا عليها الرعاء، وقناصو الوعول، ويجعلوا فيها الجعائل"(٤).

فقال له: وبصيغة الاستفهام وكأنه يشوقه إلى ما سيدليه عليه، وقد فصل الجملة فيما يدل على غنم وتقصير معملاً ؛ لكمال الاتصال بينهما، ممّا يدل على استمراره في ترغيبه وحثِّه، وقصر صفة الخير عليها، حيث قال: على خير ما أبصرتها من بضاعة، فجعلها خير بضاعة تُقتنَى أو تُبَاع، وها هو من جديد يسهّل له المهمة، ويقول: فويْق جبل مصغرًا لذلك الجبل، لكنه مع صغَره شامخ يعانق السحاب، لا يمكن الوصول إليه إلاَّ بجدّ وكدّ واجتهاد.

ثم أخذ الشاعر يصف حال الميدعاني الذي شغف بهذه القوس، فقال: (٥)

---

(١)جمهرة أنساب العرب، لابن حزم، ت: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، مصر، ط٥، ص٣٧٦.

(٢)"ديوان" أوس بن حجر، ص٨٦-٨٧

(٣)فقال له هل...: أي هل تذكر رجل يدل على غنيمة، ويقصد العمل والعناء، على خير ما أبصرتها: أي تدل على خير ما أبصرته من بضائع الناس، والتبكُّل: التغنُّم.( ينظر الديوان ، ص ٨٦ – ٨٧ )

(٤)القوس في الشعر الجاهلي والإسلامي، سلامة السويدي، مجلة كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد [٢١]، ١٤١٩هـ=١٩٩٨م.

(٥)"ديوان" أوس بن حجر، ص٨٧.

فَأَبصَرَ أَلْهَابًا مِنَ الطَوِدِ دونَهَا تَرى بَيَنَ رَأسَي كُلِّ نيقَينِ مَهبِلا
فَأَشرَطَ فيها نَفسَهُ وَهوَ مُعصِمٌ وَأَلقَى بِأَسبابٍ لَهُ وَتَوَكَّلا
وَقَد أَكَلَتْ أَظفارَهُ الصَخرُ كُلَّما تَعَايَا عَلَيهِ طولُ مَرقًى تَوَصَّلا
فَمَا زَالَ حَتّى نَالَهَا وَهوَ مُعصِمٌ عَلى مَوطِنٍ لَو زَلَّ عَنهُ تَفَصَّلا
فَأَقبَلَ لا يَرجُو الَّتِي صَعَدَتْ بِهِ وَلا نَفسَهُ إِلّا رَجَاءً مُؤَمَّلا(١)

جاءت هذه الأبيات في سياق وصف القوس، ومكانها، ومَن رآها وحصل عليها، وحال من دُلّ عليها، وهو ذلك الميدعاني الذي أبصر وشاهد بأم عينيه ذلك الجبل الشاهق الأملس الصعب المرتقي، وما يحتويه من نبعة مهمة في حياته، فمع ذلك أشرط نفسه، وانظر إلى الفعل أشرط يدلّك على ثباته وعزمه، ثم زاد هذا الثبات قوله: وهو معصم، بهذه الجملة الحالية، فهو رجل مشفق عصامي، عزم على تحقيق مراده، فألقى حباله واستعد، فصعد ذلك الجبل، وأخذ الصخر يأكل أظفاره؛ لانتقاله من قمة إلى قمة، ومن مكان إلى مكان.

و قُدِّم المفعول على الفاعل، قدَّم (أظفاره) المفعول، على الفاعل (الصخر)؛ ليبيّن أهمية الأظفار لدى هذا الميدعاني، ولكنها على سبيل الحصول على مطلوبه لست مباليًا بها ولا مهتمًا لشأنها، فأنا في شغل عنها، وهذا الذي يجب أنْ يكون عليه الإنسان في حياته صابرًا متحملاً ساعيًا لتحقيق هدفه، مستعملاً كل صعب في طريقه، كما قال الشاعر: (٢)

لَأَسْتَسْهِلَنَّ الصَّعْبَ أَوْ أُدْرِكَ المُنَى فَمَا انْقَادَتِ الآَمَالُ إلاَّ لِصَابرِ

يعود أوس لذلك المكان مبيّنًا ثباته بالفعل الماضي (زال) حتى تحقّق مراده، وهو معصم جاءت الجملة الحالية مكرّرة، وذلك تأكيد وتقرير بأنه مواصل في اعتصامه صعودًا لهذا الجبل الصعب المرتقَى، الذي لو زلّ عنه، تقطَّع أشلاء متناثرة، فنالها بعد عناء وكدٍّ، فأقبل عليها في

(١) الألهاب: الفرجة والهواء يكون بين الجبليْن، الطود: الجبل، النيق: المشرف من الجبل، المهبل: المهوى والمهلك، أشرط نفسه: أي خاطر بها، المعصم: المتعلّق بالجبل، والسبب الحبل، وقد أكلت أظفاره: يتوصّد مكانًا ثم ينزل بعده، معصم: مشفق، الموطن: الموضع الذي صار إليه انتهى، تفصل: تقطع، فأقبل لا يرجوه: يقول عسى أن أفلت وأنجو. ( ينظر الديوان ، ص ٨٧)

(٢)لم أجد له قائل.

مكان خطير، جعله يقف مندهِشًا لهذا العلو ممَّا يشعر من خلال وصف الشاعر بوعورة المكان، لكن حزم الميدعاني أوصله لها حتى نالها وحظي بها مستبشرًا..

وقد عبر الشاعر بكلمة نالها، ولم يقل حصل عليها، أو تحصل عليها أو أمسكها وإنما قال نالها، وكأنه يوحي ببعد المنال، و تحقُّق نوال هذا المجتهد الصابر في تحقيق مراده ومقصوده.

وبعد ذلك العناء والجهد ، بيّن الشاعر نجاة وظفر الميدعاني بقوسه ، في قوله : (١)

**فَلَمّا نَجا مِن ذَلِكَ الكَربِ لَم يَزَل يُمَظِّعُها ماءَ اللِحاءِ لِتَذبُلا**
**فَأَنحى عَلَيها ذاتَ حَدٍّ دَعا لَها رَفيقاً بِأَخذٍ بِالمَداوِسِ صَيقَلا**
**عَلى فَخِذَيهِ مِن بُرايَةِ عودِها شَبيهُ سَفى البُهمى إِذا ما تَفَتَّلا**(٢)

اختار الشاعر الفعل الماضي (نجا) من بين الأفعال؛ ليوحي لنا بخطورة ما أقدم عليه هذا الميدعاني، فكان رجوعه سالمًا يُعدّ نجاةً وسلامةً؛ لأنه أتى من كرب عظيم – وهنا استعارة توضح في موضعها بإذن الله –، وإلى التعبير بكلمة كرب؛ ممّا يدلّ على شدة المعاناة والمعاناة التي قابلها في رحلته الشاقة.

وبعد أنْ تحصل عليها، أخذ يمظعها ماء لجارتها، فلم ينشر اللحاء، بل تركه لكي تشرب ماؤه، ولو قشّره، لأفسدها، ثم دعا لها –بعد ما قطعها بالسكين– خبيرًا بالقسيّ تثقيفًا وترتيبًا وعنايةً، فهو رفيق بها، عالم بصقلها وبريّها، فأخذ يبريها حتى خرج منها ما يشبِه سفى البهم، إذا ما تساقط، وهذا تشبيه بديع؛ بيانه في بابه –بإذن الله– وهذا يدلّ على عناية الميدعاني وبراعة الشاعر في وصفه، فكلاهما: أي الشاعر والميدعاني، يبيّنان مدى اهتمامهم بهذه القوس الغالية على النفس.

وقد أجاد أوس في هذا الوصف إجادة، أعجب بها الكثير من السابقين والمحدَثين في كتبهم ومقالاتهم، ومن ذلك ما ذكره صاحبا الأشباه والنظائر في كتابهما : "وأمّا ذكره القوس ووصفه لها، وحمل الذي قطعها نفسه على التسلُّق في الجبال الوعرة، والهضاب العالية، حتى ظفر بها بعد طول الجهد، ومعاناة الكدِّ، ثم نقله إيّاها من حال إلى حال، حتى بلغت نهاية

(١)"ديوان" أوس بن حجر، ص٨٧.

(٢)فلما نجا من ذلك الكرب: أي الشدّة، يمظعها: يشربها، الرفيق: الحاذق، المداوس: المصاقل، واحدها مدوس، وهو الذي يصقل به السيف، السفى: شوك البهمي، واحده سفاة.( ينظر الديوان ، ص ٨٧)

ما أراد، فهي صفة ما نعرف لها نظيراً فنأتي به، فلقد أجاد في كل ذلك، وأتى بما لم يتعاطه بعده أحد من الشعراء في هذا المعنى من ذكر القوس خاصة، ولو أنّ صفته هذه، وما حمل نفسه من المكروه وعاناه من المشقة في طلب جوهرة نفيسة أو درّة خطيرة، لكان قد استغرق في ذلك مجهوده، وبلغ غاية حيلته"(١).

ويقول ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء: "وهو أوصف الناس للقوس"(٢).

وأغلب ما ذكر من وصف القوس جاء في سياق الفخر والاعتداد بالنفس، وعرض أدوات الحرب ووصفها، وبخاصة القوس، وهذا ممّا يفرضه المجتمع ؛ لخوضهم الحروب والمعارك؛ لذا اهتموا بذكر السلاح ووصفه، والافتخار باقتنائه ، والسياق الذي ولّد هذا كله، وصنعه قوله(٣):

**وَإِنِّي امْرُؤٌ أعْدَدْتُ للحرْبِ بَعْدَمَا رَأَيْتُ لها نابًا منَ الشَّرِّ أَعْصَلاَ**

وله قصيدة أخرى، ضمّنها أبياتًا تسعة، في وصف القوس، لا تقلّ أهمية عن سابقتها، والتي يقول مطلعها(٤):

**لِلَيْلَى بِأعْلَى ذِي مَعَارِكِ مَنْزِلٌ خَلاَءٌ تَنَادَى أَهْلُهُ فَتَحَمَّلُوا(٥)**

وفيها يقول (٦):

(١)الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، للخالديين أبي بكر محمد، وأبي عثمان سعيد ، ت: السيد محمد يوسف، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ٢/ ٥٠.

(٢)الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ت: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م، ١/ ٢٠٩.

(٣)الشعر الجاهلي، دراسة في منازع الشعراء، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ص٥١٠-٥١١.

(٤)"ديوان" أوس بن حجر، ص٩٤.

(٥)ذي معارك: موضع في ديار بني تميم.( ينظر الديوان ص ، ٩٤)

(٦)النبع: شجر مرن تؤخذ منه القسيّ، نذيرها: صوتها، أفكل: الرعدة، الغيل: الشجر الملتف، الحظوة: القضيب الصغير ينبت في أصل الشجرة، والنبع والحثيل: من أشجار الجبال، والبان والظيان والرنف والشوحط: من أشجار الجبال، الألف: الملفت، الأثيث: الكثيف المتشابك، وكذلك المتفيّل، العريش: البيت، التمطع: شرب القضيب من اللحاء، الليط: القشر، هلك: تشدد، القيض: قشر البيضة الغليظ، الغرقى: القشر الرقيق. ( ينظرالديوان، ص ٩٦-٩٧)

وَصَفْرَاءَ مِنْ نَبْعٍ كَأَنَّ نّذِيرَهَا إِذَا لَمْ تُخَفِّضْهُ عَنِ الوَحْشِ أفْكَلُ
تَعْلَمُهَا فِي غَيْلِهَا وَهْيَ حَظْوَةٌ بِوَادٍ بِهِ نَبْعُ طُوَالٍ وَحَثْيَلُ
وَبَانَ وَظْيَانَ وَرَنْفٍ وَشَوْحَطٍ أَلَفَّ أَثِيثَ نَاعِمٍ مُتَغَيِّلُ
فَمَظَّعَهَا حَوْلَيْنِ مَاءَ لِحَائِهَا تَعَالَى عَلَى ظَهْرِ العَرِيشِ وَتَنَزَّلُ
فمَلَكَ بِاللِّيطِ الذِّي تَحْتَ قِشْرِهَا كَغَرْقَى بِيضٍ كَنَّهُ القَيضُ مِنْ عَلُ

لغة الشاعر في هذا النصّ تختلف عن النص السابق، ففي هذا النص الموحِي بالأسى والحزن من خلال السياق لهذه الأبيات ، وهو ما سيتضح من خلال البحث .

وصف هذه القوس بأنها صفراء، وهذا كثيرٌ في وصف الشعراء للقوس، وبيّن أنها من نبع بخلاف وصفه في القصيدة السابقة الذي يُنبِئ عن فخر واعتزاز وأنفة .

حيث يقول[(١)]:

ومَبْضُوعَةً منْ رأسِ فرعٍ شظيّةً بِطَوْدٍ تَراهُ بالسَّحابِ مجلَّلاَ

يتَّضح الشموخ في هذا البيت بكل أجزائه،وذلك للسياق الذي ورد فيه ، حيث كان الشاعر يستعد للحرب بأنواع الأسلحة ، وهذا موضع يستدعي الفخر والاعتزاز باستعراض القوة لدى الشاعر واستعداده لملاقاة العدو، بخلاف ذلك الموحي بحزن وأسى داخل النفس، يصارعه الشاعر، فقوسه هنا صفراء صوتها يثير الوحش، ويصيبه برعدة، فهي وإن كانت القوس هي القوس إلا أن السياق الذي وردت فيه والإيقاع ، لا يوحي ما أوحته القصيدة السابقة ، التي يقول فيها: [(٢)]:

فَجَرَّدَهَا صَفْرَاءَ لاَ الطُّولُ عَابَهَا وَلاَ قِصَرٌ أَزْرَى بِهَا فَتَعَطَّلاَ

فقوسه في قصيدته الثانية عرفها في صغرها بين أشجار مختلفة بوادٍ مليء بشجر النبع الطوال الحثيل والبان والظيان والرنف والشوحط، التي حواها ذلك الوادي.

---

(١)"ديوان" أوس بن حجر، ص٨٥.

(٢)فهي متوسطة الطول، لا طويلة زائدة، فتُعاب، ولا قصيرة، فتتعطّل وتُترَك.( ينظر الديوان ، ص ٨٥ )

ومع كثرة هذه الأشجار والتصاق بعضها ببعض، وقعت عينه عليها، وأخذ يلاحظها؛ لعلمه بتميُّزها ومستقبلها الواعد، بأن تكون قوسًا صالحة مميّزة، فأمعن في وصفها بهذه الصورة الجميلة.

بيد أنه مظعها عامين ماء لحائها، ولم يطنب في وصف مكابدته إيّاها كما في القصيدة السابقة —وهذا ممَّا يوحي بأنه في موقف، لا يستدعِي التطويل والإسهاب؛ لما يعتلج في نفسه من الهم والحزن– وإنما أشار إلى أنها بين أشجار متنوّعة وكثيفة وملتفة وبعد تمظيعها وغيره، يقول(١):

**وَأَزْعَجُهُ أَنْ قِيلَ شَتَّانَ مَا تَرَى ... إِلَيْكَ وُعُودٌ مِنْ سَرَاءٍ مُعَطَّلُ**

**ثَلاَثَةُ أَبْرَاءٍ جِيَادٍ وَجَرْجَةٌ ... وَأَدْكَنُ مَنْ أَرَى الْدَّبُورَ مُعَسَّلُ**

**فَجِئْتُ بِبَيْعِي مُولِيًا لاَ أَزِيدُهُ ... عَلَيْهِ بِهَا حَتَّى يَؤُوبَ المَنْخَلُ**

**وَذَاكَ سِلاَحِي قَدْ رَضِيتُ كَمَالَهُ ... فَيَصْدَفُ عَيْنِي ذُو الجَنَاحِ المُعْبَلُ(٢)**

تأتي هنا الآن المساومة على هذه القوس الثمينة عند صاحبها الذي ما آل جهدًا في العناية بها، حتى صارت قوسًا صالحة مميزة، فنفسه تمنّيه أن تأتي له هذه القوس بثمن يستحقها، ويستحق ما بذل من أجلها، فآلمه وأزعجه ما قِيل، وبناه هنا للمجهول لأنّ القائل أناس رأوا القوس، ورأوا ما سيدفع لأجلها، وكأنهم مع الشاري يريدون تزهيدها في نظره؛ لكي يبيعها، وأن ما سيدفع مقابلها ليس ندًّا لها، وإنما مبالغ فيه، فعرض عليه ثلاثة أبراد، وجرجة، وزقّ من عسل، ولن أزيد على ما ذكرت حتى يرجع المنخل، "وهذا مثل للتأييس؛ لأن المنخل الشاعر اتهمه النعمان بالمتجردة، ثم ذهب ولم يعد، والمقام عند الشماخ

---

(١)"ديوان" أوس بن حجر، ص٩٧–٩٨.

(٢)السراء: النبع، معطل: غير صالح؛ أي دفع له فيها، ثلاثة أبراد جياد، وجرجة وزق من العسل. الجرجة: خريطة من الأدم كالخرج، الأدكن: يريد زقًا أدكن. الأرى: العسل، الدبور: جمع دبر وهو النحل، حتى يؤوب المنخل: مثل يضرب لليأس من الشيء، والمنخل هو المنخل اليشكري الذي اتهمه النعمان بالمتجردة فحسبه، ثم انقطعت أخباره، وقيل: رحل ولم يعد، الجناح: بالضم الميل، وبالفتح العضد، والمعبل: الذي معه معابل؛ المعبل: الضخم.( ينظر الديوان ، ص ٩٧ – ٩٨ )

مختلف جدًا؛ لأن القواس وافى بها أهل المواسم، فانبرى لها بيع يُغلي بها السوم رائز فقال له القواس:

**فَقَالَ لَهُ هَلْ تَشْتَرِيهَا فَإِنَّهَا تُبَاعُ بِمَا بِيعَ التِّلادُ الحَرَائِزُ**

والتلاد هي المتاع القديم، الذي تضنّ به النفوس، والحرائز المحروز المحفوظ"(١).

فباعها القواس لحاجته الملّحة للمال؛ ليقوت به نفسه، ويؤدِّي به الحقوق التي عليه وهذا الذي دعاه لبيع أنبل ما يملك، ولكنه مع ذلك ستتغيّر حاله وتتبدّل من العدم إلى الغنى والسياق للأبيات في أول القصيدة يُوحِي بحالته المعدومة التي رسمها على الطلل، وذكرى ديار المحبوبة وخلوّها بعد امتلائها، فيقول: (٢)

**لِلَيْلَى بِأَعْلَى ذِي مَعَارِكِ مَنْزِلٌ خَلاَءٌ تَنَادَى أَهْلُهُ فَتَحَمَّلُوا**

**تَبَدَّلَ حَالاً بَعْدَ حَالٍ عَهِدْتُهُ تَنَاوَحَ جِنّانٌ بِهِنَّ وَخُبَّلُ**

**عَلَى العُمْرِ وَاصْطَادَتْ فُؤَادًا كَأَنَّهُ أَبُو غَلْقٍ فِي لَيْلَتَيْنِ مُؤَجَّلُ** (٣)

يقول محمد أبو موسى: "القوس هنا أنتجها السياق بكل أحوالها وأوصافها، هي قوس رجلٍ، تبدّلت أحواله، وقيّد العدم نائله، وتخيّر معشرًا كرامًا ليعينوه، وليس شيء من هذا في القوس التي أنتجها السياق السابق الذي رأى فيه للحرب نابًا من الشر أعصلا) (٤).

ولعله يتبين ذلك من خلال ما ختم به أوس وصفه للقوس في الأولى والثانية، فقال في الأولى: (٥)

**وَذَاكَ سِلاَحِي فِي الحُرُوبِ إِذَا الْتَظَتْ وَأَرْدَفُ بَأْسٍ مِنْ حُرُوبٍ وَأَعْجَلا**

وقوله في الثانية(٦):

---

(١)الشعر الجاهلي، دراسة في منازع الشعراء، محمد محمد أبو موسى مكتبة وهبة ص٥١٠. وذكرت قصة المنخل عند صاحب الأغاني ج ٩ ، ص ١٥٨ – ١٥٩ .

(٢)"ديوان" أوس، ص٩٤.

(٣)ذي المعارك: موضع في ديار بني تميم، خبل: جمع خابل؛ وهو اسم للجني الذي يخبل الناس، أبو غلق: أي صاحب رهن غلق، أجله ليلتان أنْ يُفكّ.( ينظر الديوان ، ص٩٤)

(٤)الشعر الجاهلي، دراسة في منازع الشعراء، ص٥١٢.

(٥)ديوان أوس ، ص٩٠. فذاك عتادي: الإشارة راجعة إلى الرمح والسيف والقوس، والعتاد: العدّة، والتظت: التهبت.

(٦)الديوان نفسه، ص٩٨.

وَذَاكَ سِلاَحِي قَدْ رَضِيتُ كَمَالَهُ فَيَصْدَفُ عَنِّي ذُو الجَنَاحِ المُعْبَلُ

فتجده في البيت الأول يقول: عتادي بخلاف البيت الثاني، حيث قال سلاحي، ومعلوم أنّ العتاد أقوى وأمنع من العدّة والاعتداد بالنفس وغيره. أمّا سلاحي، فهو مجرّد سلاح؛ لأن المقام مقام ذكر القبيلة وحاله معها، وعتاده للحرب، من سيف ورمح وقوس ملازم له، إذا التظت الحروب.

يقول المعيني في الحديث عن قوس أوس: "لقد جاءت قصائده في القوس محاولات لإعطاء الرأي وإيجاد الحل، فما حدث في القبيلة كان كربًا شديدًا عليه، وهو ابنها البار ولهذا حاول الإصلاح، واستعدّ عند فشل المحاولة، فالشر لا يُقابَل بالتسامح والتهاون وإنما بالمصاولة والتصدِّي، وهو موقف مصادم شجاع عند أوس، لهذا الموقف كان وجود البؤس في قصائده رمزًا كبيرًا، يدلِّل على القبيلة المنيعة، وقيادتها الحكيمة، وعلى الذات المتأبية، ومبدئها الثابت في الحياة"(١) .

ومن القصائد التي استحوذ وصف القوس عليها، زائية الشماخ، والتي تُعدُّ من عيون الشعر العربي، والتي يقول في مطلعها: (٢)

عَفَـا بَطْـنُ قَـوٍّ مِـنْ سُـلَيْمَى فَعَـالِزُ فَـذَاتُ الغَضَـا فَالمُشْـرِفَاتُ النَّوَاشِـرُ(٣)

إلى أنْ يصل إلى الحديث عن القوس والقواس، بعد أنْ أبرز حالة الإنسان العربي وما يقاسيه وما يعانيه من واقع مكافح، يلاقي فيه المصاعب والشدائد، وكل ذلك جاء من الشاعر على لسان حمار الوحش وكيفية نضاله ومكابدته المشاق، وحرصه الشديد على أتانه، ومراعاته لها في سبيل النجاة من الصيّاد الماهر، الذي لا تُخطِئ رميته؛ حيث يصف مشهد الرامي والرمية بعد عرضه لحال تلك الحمر وقائدها، فيقول: (٤)

---

(١)القوس عند ثلاثة من شعراء الجاهلية والإسلام ( أوس و الشنفرى و الشماخ )، عبد الحميد المعيني، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد [٦٠]، العدد [٣]، يوليو، ٢٠٠٠م.

(٢)"ديوان" الشماخ بن ضرار الذبياني، ت: صلاح الدين الهادي، دار المعارف بمصر، القاهرة، ص١٧٣.

(٣)بطن الأرض وباطنها: ما غمض منها واطمئن، قوّ: منزل للقاصد إلى المدينة من البصرة، عالز: بكسر اللام موضع في ديار بني تغلب، ذات الغضا: الأرض التي فيها شجر الغضا، والغضا: أرض في ديار بني كلاب، وادٍ في نجد، المشرفات: المواضع المرتفعة، والنواشر: المرتفعات أيضًا.( ينظر الديوان ، ص ١٧٣ )

(٤)حلأها: منعها من الماء، والضمير للحمر، عامر: أخو الخضر: قانص مشهور، النواحز: التي بها نحاز: وهو داء يأخذ الدواب والإبل في رئاتها فتسعل سعالاً شديدًا، التلاد: كل ما قديم من حيوان أو غيره، يورث عن الآباء، وقليل التلاد: أي

وَحَلأَهَا عَن ذِي الأَرَاكَةِ عَامِرُ          أَخُو الخِضْرِ يَرْمِي حَيْثُ تُكْوَى النَّوَاحِزُ
قَلِيلُ التِّلاَدِ غَيْرَ قَوْسٍ وَأَسْهُمٍ          كَأَنَّ الذِّي يَرْمِي مِنَ الوَحْشِ تَارِزُ
مُطِلاًّ بِزُرْقٍ مَا يُدَاوي رَمِيُّهَا          وَصَفْرَاءَ مِنْ نَبْعٍ عَلَيْهَا الجَلاَئِزُ

لقد كان وجود عامر عند ذي الأراكة مانعًا من قدوم هذه الحمر، وهو رامٍ جيد، لا يرمي إلاّ حيث تكوى الإبل المصابة بمرض النجاز، وهو سعال شديد يصيب الإبل في رئتها، فتكوى بها جنوبها وأصول أعناقها، وهذا هو هدف الرامي الحذِق، فهو لا يخطئ رميته، حيث إنها تقع في مقتل، فإنْ لم تصِبه أوقفته مذعورًا، خائفًا قد خارت قواه فلا يقدر على المسير، ومعه نصال زرق يطلّ بها من مكان مشرف مرتفع، لا يمكن أن يداوى من رميت به، وقوس صفراء من شجر نبع، قد لويت عليها عقبات؛ لتشدها وتزيد من قوتها، وأخّر هنا المسند إليه (الجلائز) وقدّم الجار والمجرور لإفادة الاختصاص، فهذه الجلائز مختصة بالقوس الصفراء، وللقافية كذلك.

وتبدأ رحلة القوس مع هذه النبعة، وتصوير الشاعر لهذه الأحداث الشيّقة، حيث يقول: [(١)]

تَخَيَّرَهَا القَوَّاسُ مِنْ فَرْعِ ضَالَةٍ          لَهَا شَذَبٌ مِنْ دُونِهَا وَحَوَاجَزُ
نَمَتْ فِي مَكَانٍ كَنّهَا وَاسْتَوَتْ بِهِ          فَمَا دُونَهَا مِنْ غِيْلِهَا مُتَلاَحِزُ
فَمَا زَالَ يَنْجُو كُلَّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ          وَيَنْغُلُ حَتَّى نَالَهَا وَهْوَ بَارِزُ[(٢)]

وهو في هذه القصيدة قد استقى من وصف أوس في القصيدة الثانية، التي سبق ذكرها، فيتضح من الألفاظ ما يدل على تأثُّر الشماخ بأوس؛ حيث إنّ أوس تعلمها وخبُر مكانها مذ كانت صغيرة في ذلك الوادي المليء بالأشجار المختلفة الكثيفة، فيقول[(٣)]:

---

لا تلاد له؛ يعني أنه لا يملك غير قوس وأسهم، تارز: أي جامد بارد يصيبه كيف يريد، مطل: أي مشرف؛ من الإطلال وهو الإشراف على الشيء، مدل: من أدل الرجل على أقرانه؛ أي أخذهم من فوق، وأدلّ البازي على صيده كذلك (كذلك اللسان: دلل؛ أي يأخذ الوحش بشدة)، الزرق: النصال: رميها: المرمي بها، والصفراء هنا: القوس، النبع: شجر أصفر وهو أجود ما تتخذ منه القسيّ، الجلائز: عقبات تلوي على كل موضع من القوس؛ لتشدها من غير عيب بها، واحدها: جلاز، وجلازة، ولا تكون الجلائز إلاّ من غير عيب. ( ينظر الديوان، ص١٨٢)

(١)"ديوان" الشماخ، ص١٨٤.

(٢)الضالة: واحدها الضال، وهو شجر السدر، فرع الضالة: أعلاها، الشذب: قشر الشجر، وقِيل: ما تدلّى من أغصانه وتفرّق، حواجز: موانع من الوصول إليها، نمت: طالت، كنها: سترها في كنّ، الغيل: بكسر الغين: الشجر الكثيف الملتف، متلاحز: متضايق داخل بعضه في بعض، ينجو: يقطع، ينغل: يدخل. (ينظر الديوان ، ص ١٨٤)

(٣)"ديوان" أوس بن حجر، ص٩٧.

**تَعْلَمُهَا فِي غَيْلِهَا وَهْيَ حَظْوَةٌ      بِوَادٍ بِهِ نَبْعُ طُوَالٍ وَحَثْيَلُ**

**وَبَانَ وَظَيَّانَ وَرَنْفٍ وَشَوْحَطٍ      أَلَفَّ أَثِيثَ نَاعِمٍ مُتَغَيِّلِ**

والشماخ تخيّرها من شجر الضال —شجر تتخذ منه القسيّ، وهو السدر أصفر طيب الرائحة– ويحول بينه وبينها ذلك الشجر بشوكه وحواجز الأشجار المتلاصقة التي نمت هذه القوس بينها، ولا زال يقصدها مزيلاً ما يأتي في طريقه من شجر أخضر ويابس، متكبدًا عناء الطريق حتى تحصل على مراده.

وتكرر التعبير بالفعل المضارع (ينجو، ينغل) ممّا يدل على الاستمرار ، والمواصلة الحثيثة لتحقيق الهدف المراد.

والفعل الماضي (زال، نال)، أضفى ثباتًا ويقينًا مدعومًا بالجد والمواصلة، ومن ثم يعود الشماخ ليصف ما حصل حال ظفره بها، فيقول: (١)

**فَأَنْحَى عَلَيْهَا ذَاتَ حَدٍّ غُرَابُهَا      عَدَو لأَوْسَاطِ العِضَاةِ مُشَارِزُ**

**فَلَمَّا اطْمَأَنَّتْ فِي يَدَيْهِ رَأَى غِنَى      أَحَاطَ بِهِ وَازْوَرَّ عَمَّنْ يُحَاوِزُ**

**فَمَظَّعَهَا عَامَيْنِ مَاءَ لِحَائِهَا      وَيَنْظُرُ مِنْهَا أَيُّهَا هُوَ غَامِزُ**

**أَقَامَ الثِّقَافَ والطَّرِيدَةَ دَرأَهَا      كَمَا قُوِّمَتْ ضِغْنُ الشُّمُوسِ المَهَامِزُ(٢)**

فالشاعر بعد حصوله على غنيمته، بعد هذا الجهد، هوى عليها بالفأس التي تقطع عظيم شجر العضاة، وهو معنى أخذه من أوس ، فلمّا نالها وأصبحت بين يديه، رأى الغنى بعينه، مما جعله يطوف حول نفسه، وهي بين يديْه من شدة فرحه بحصوله عليها وتحقيقه مراده.

ويظهر التكرار لحرف الفاء في الأبيات السابقة، (فما زال، فأنحى، فلمّا، فمظعها)، وهذا التكرار يدل على السرعة في إنجاز المهمة، فالفاء تدل على الترتيب والتعقيب.

---

(١)" ديوان" الشماخ، ص١٨٥.

(٢)أنحى عليها: عرض عليها؛ أي أقبل يقطعها، ذات حدّ: فأس ذات حدّ، غرابها: حدّها، العضاة: شجر عظيم له شوك، مشارز: حديدة مشارز: تقطع كل شيء مرت عليه، وهو مجاز، ازورّ: أعرض ومال، مظعها: أي أشربها ماء لحائها، اللحاء: قشر العود، غامز: من غمز القناة، إذا سوّى المعوّج منها، الثقاف: خشب في رأسها ثقب تدخل فيها الرماح، فتقوَّم، الطريدة: قصبة توضع فيها السكين، تُبرى بها القداح، المهامز: جمع مهموزة: وهي حديدة تنخس بها الدابة.( ينظر الديوان ، ص ١٨٥ )

وبعد حصوله عليها، أخذ يختفي عن الأنظار، متسلّلاً عمَّن حوله، ثم أخذ عاميْن يراعيها، ويعتني بها، ويقوّم معوجّها بأدوات خاصة بتثقيفها، وبعد مرور العاميْن، وبعد التزيين والمحافظة والعناية، يقول الشاعر: (١)

فَوَافَى بِهَا أَهْلَ المَوَاسِمِ فَانْبَرَى    لَهَا بَيْعٌ يُغْلِي بِهَا السَّوْمَ رَائِزُ
فَقَالَ لَهُ: هَلْ تَشْتَرِيهَا فَإِنَّهَا    تُبَاعُ بِمَا بِيعَ التِّلادُ الحَرَائِزُ
فَقَالَ إِزَارٌ شَرْعَبِيٌّ وَأَرْبَعُ    مِنَ السَّيْرَاءِ أَوْ أَوَاقٍ نَوَاجِزُ
ثَمَانٍ مِنَ الكِيرِيِّ حُمْرٌ كَأَنَّهَا    مِنَ الجَمْرِ مَا ذَكَّى عَلَى النَّارِ خَابِزُ
وَبُرْدَانِ مِنَ خَالٍ وَتِسْعُونَ دِرْهَمًا    وَمعَ ذَاكَ مَقْرُوضٌ مِنَ الجلد مَاعِزُ
فظَلَّ يُنَاجِي نَفْسَهُ وَأَمِيرَهَا    أَيَأْتِي الذِّي يُعطِي بِهَا أمْ يُجَاوِزُ؟
فَقَالُوا لَهُ: بَايِعْ أَخَاكَ وَلاَ يَكُنْ    لَكَ اليَوْمَ عَنْ رِبْحٍ مِنَ البَيْعِ لاَهِزُ
فَلَمَّا شَرَاهَا فَاضَتْ العَيْنُ عَبْرَةً    وَفِي الصَّدْرِ حَزَازٌ مِنَ الوَجْدِ حَامِزُ(٢)

قصد القوَّاس السوق، ومن خلال دخوله، تتبّعه مَن بهرته هذه القوس وجودتها وذلك من خلال نظرة ثاقبة – في يد صاحبها- وزاد إعجابه حين جرّبها، حينها علم القوّاس برغبة الرائي المجرّب المتفحِّص لهذه القوس بأنه راغب فيها، مقبِل على شرائها، ولو كلّفه ذلك مالاً كثيرًا، فبادره القوّاس بقوله مباغتًا: هل تشتريها؟ وكأنّه يشوقه لها، ففي استفهامه هنا تشويق للمشتري، ثم أخذ يثبت له بأنها تباع بما يباع به المتاع الغالي الثمن، وأتى مؤكدًا كلامه بـ (إنّ) إمعاناً منه في نفاستها عنده، وهذا أضفى على السياق جمالاً وروعةً

---

(١)"ديوان" الشماخ، ص١٨٧.

(٢)وافى بها: أتى بها وقصد، المواسم: جمع موسم، والمراد بها هنا الأسواق التي يجتمع فيها الناس للبيع والشراء، انبرى لها: اعترض لها يشتريها، البيع: البائع والمشتري، وهذا من الأضداد والمقصود: المشترى والمقصود به هنا هو: عامر أخو الخضر السابق الذكر، السوم: البيع، الرائز: المجرّب. التلاد: سبق بيانها، الشرعبي: جنس من البرود، والسيراء: جنس من البرود المسيّرة؛ لأن فيها خطوطًا كالسيور، وأربع: أي أرب شقائق، الأواقي: جمع أوقية وهو وزن معروف، النواجز: جمع ناجزة، كما نقول: نقدًا، الكوري: الذهب الذي خلص في كور الصائغ بعد ما خلص من تراب المعدن، الخابز: صانع الخبز، الخال: ضرب من البرود، أرضها حمر، وفيها خطوط خضر، المقروظ: المدبوغ بالقرض، الماعز: ا لشديد، أميرها: يعني قلبه، يجاوز: يمضي فلا يبيعها، يتردّد أيبيعها بهذا الثمن أم لا، لاهز: دافع مانع: يعني: قال له الحاضرون أو قال له عقله: بع ولا تتأخر، شراها: باعها، فهو من الأضداد وهذا في القرآن الكريم، قال تعالى: (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله...) [البقرة: ٢٠٧]؛ أي يبيع نفسه. الحزاز: ما يجده الإنسان في صدره من غيظ وغمّ والمراد هنا: ما تولّد في قلبه من الحزن ولومه نفسه على بيع هذه القوس الحبيبة إليه، الوجد: أشد الحب، الحامز: الشديد المحض المحرق. ( ينظر الديوان ، ص ١٨٧)

واتّساقًا، وكل ذلك إشعارٌ لهذا البيع بأنها غالية عند هذا القوّاس، فلا يقترب من شرائها إلاّ مَن يقدِّر ثمنها ويقدّرها قدرها، فلمّا علم نيّته وأنه يريد بيعها، باشره بعروضه المغرِبة، وهي إزار شرعبي وهو جنس من البرود، وأربع من خشب القصاع الأسود، أو أواق نواجز. و أو هنا بمعنى الواو، كأنها من شدة حمرتها جمر الخابز الذي يذكي ناره باستمرار، وهنا تشبيه يأتي بيانه في بابه –بإذن الله–، وبردان من خال وتسعون درهمًا وجلد مدبوغ. فأخذ يراجع نفسه وقلبه، أهذا المال ثمن لهذه القوس أم لا؟ وهذا ممّا يدلّ على مكانتها العالية عنده وشدة تعلُّقه بها، وأنه لم يجبره على المجيء بها إلاّ الظروف القاسية.

فأخذ الحضور لهذه المساومة النادرة يحثُّون القوّاس على البيع، وألاّ يضيّع هذه الفرصة، وأنّ هذا ثمن لا يمكن أنْ يعطى لغيرها من جنسها، ومع شدة إلحاحهم وكثرة صخبهم وعلوّ أصواتهم، باع القوّاس قوسه، واشتدّ وجده عليها، حتى فاضت العين بعبرات وحزّ في النفس ما حزّ حتى توالت الزفرات، فهو فراق لحبيب عاش معه سنوات، وذهب من بين يديْه في لحظات. وتجد ذلك ظاهرًا في تكراره للفاء، وكأنه يتأفّف من هذا الموقف الذي أجبره الزمن عليه، وفي ألفاظه نجد كلمة "حزّاز، وحامز" فيها ما فيها من الوجد والأسى ما لا يمكن معه التعبير بغيرها، وهذا ممّا يدلّ على براعة الشاعر في هذا الوصف الدقيق، وكذلك تقديم المسند على المسند إليه في (وفي الصدر حزّاز)، ما يدلّ على تخصيص وقصر الحزّ على الصدر، وإثارة وتشويق لمعرفة ما سيأتي بعد هذا التقديم.

يقول: (١)

وَذَاقَ فَأَعْطَتْهُ مِنَ اللِّينِ جَانِبًا كَفَى، وَلَهَا أَنْ يُغرِقَ السَّهْمَ حَاجِزُ
إِذَا أَنْبَضَ الرَّامُونَ عَنْهَا تَرَنَّمَتْ تَرَنُّمَ ثَكْلَى أَوْجَعَتْهَا الجَنَائِزُ(٢)

ويقول: (٣)

قَذُوفٌ إِذَا مَا خَالَطَ الظَّبْيَ سَهْمُهَا وَإِنْ رِيعَ مِنْهَا أَسْلَمَتْهَا النَّوَاقِزُ
كَأَنَّ عَلَيْهَا زَعْفَرَانًا تَمِيرُهُ خَوَازِنُ عَطَّارٍ يَمَانٍ كَوَانِزُ
إِذَا سَقَطَ الأَنْدَاءُ صِينَتْ وَأُكْرِمَتْ حَبِيرًا وَلَمْ تُدْرَجْ عَلَيْهَا المَعَاوِزُ(٤)

و يذكر الخالديّان في كتابهما، عن أوس: (فأمّا قوله: إذا ما تعاطوها سمعت لصوتها "البيت"، فهو الأصل في المعنى، وعليه عوّل مَن أخذه، وأول من أخذه الشماخ، بقوله:

إِذَا أَنْبَضَ الرَّامُونَ عَنْهَا تَرَنَّمَتْ تَرَنُّمَ ثَكْلَى أَوْجَعَتْهَا الجَنَائِزُ

وأخذه الشنفرى، فقال:

إِذَا زَلَّ عَنْهَا السَّهْمُ حَنَّتْ كَأَنَّهَا مُولَهَةٌ ثَكْلَى تَرِنُّ وَتُعْوِلُ

وذكر بعض الشعراء أنّ حنين القوس عند خروج السهم منها اغتمامًا به، وقال:

بَاكِيَةٌ إِنْ زَلَّ سَهْمٌ عَنْهَا خَوْفًا عَلَيْهِ أَنْ يَضِيعَ مِنْهَا

وقال آخر:

---

(١)"ديوان" الشماخ، ص١٨٧.

(٢)ذاق: الضمير للمشتري، يقال: ذقت القوس: إذا جذبت وترها لتنظر شدتها، وإغراق السهم: استيفاء جذب القوس فتلين، فربما أصاب الهم يد الرامي، الحاجز: معناه أنه جرّب القوس، فجذب وترها فأعطته جانبًا لها من اللين، ولها جانب آخر من الصلابة حاجز من أنْ يغرق السهم، الانباض: أن تجذب الوتر، ثم ترسله فتسمع له صوتًا، ترنّمت: رجعت في صوتها، ورنّت، الثكلى: التي مات ولدها، الجنائز: جمع جنازة، وهي للميت. ( ينظر الديوان ، ص ١٨٧ )

(٣)ديوان الشماخ، ص١٩٢-١٩٣.

(٤)قذوف: وهني الشديدة القذف بالسهم، وفي رواية: هفوف، لها صوت؛ أي تهتف إذا وقع سهمها في الظباء، ريع: أفزع، فأسلمته قوائمه: فسقط، النواقز: القوائم، أسلمته: خذلته، الزعفران: من الطيب أصفر وهو من زينة النساء، تميره: من أمار الزعفران صبّ فيه الماء، يريدون وصفها بلون الصفرة، الخوازن: النساء اللاتي يخزنه، الكوانز: اللائي يكنزنه في وعاء، وأهل اليمن مشهورون بصناعة العطر وبيعه، الأنداء: جمع ندى، وهو بلل الصباح، أشعرت: ألبست: من الشعار وهو الثوب الذي يلي الجسد؛ أي يصونها، الحبير: الثوب الجديد الحسن.( ينظر الديوان ، ص١٩٢-١٩٣)

**إِذَا تَعَاطَاهَا الشَّدِيدُ السَّاعِدِ حَنَّتْ إِلَى السَّهْمِ حَنِينَ الوَالِدِ**

وقال آخر:

**وَصَفْرَاءَ طَيِّعَةِ الجَانِبَيْنِ عَلَى أَنَّ فِيهَا جَمِيعَ الشُّغَبْ**
**تَحِنُّ حَنِينًا إِلَى سَهْمِهَا حَنِينَ المُحِبِّ إِلَى مَنْ أَحَبّ**[(١)]

والشكل كذلك عند الداخل بن حرام في بيت من وصف رحلة صيده، فيقول[(٢)] :

**كَأَنَّ عِدَادَهَا إِرْنَانُ ثَكْلَى خِلاَلَ ضُلُوعِهَا وَجْدٌ وَهِيجُ**[(٣)]

ثم يعود واصفًا تلك القوس التي ما زالت عالقة في ذهنه، مضيفًا عليها من الصفات ما يختص بالنساء؛ فهي في لونها الأصفر كأنها مطلية بالزعفران اليماني، خير ما يختزنه النساء ويكتنزونه، ويبين حرصه عليها ومحافظته الدائمة حال وجودها عنده، فهو يحفظها من الندى، الذي قد يؤذيها حال نزوله عليها، فهو يلبسها ثوبًا جديدًا ، مُبيِّنًا مكانتها عنده وخوفه عليها من أي عوامل مؤثّرة.

ولقد أخذ القوس جلّ أبيات الوصف في القصيدة، ممَّا يعطي دلالة على تعلُّقه بها وشغفه الكبير بها، وكأنك بين محبوبين لا يقدران على المفارقة، فكلاهما يعطي صاحبه من العناية، ما تطمئن به نفس الحبيب من الوصل والعطاء، ويزداد ذلك يومًا بعد يوم، حتى أدركه من الحاجة والفاقة والفقر ما ألجأه إلى أن تكون هي الضحية، فظلّ يقدِّم رجلاً ويؤخِّر أخرى نحو السوق، ثم بعد لأي، عزم على عرضها للبيع، وحثّ السير، وهذا قد سبق بيانه وتفصيله.

يقول صلاح الدين الهادي: (شعر الشماخ في القوس من أروع وأبدع ما جادت به قريحته، وتفتّقت عنه شاعريته، في فن الوصف، بل في شعره عامة) [(٤)] .

---

(١)الأشباه والنظائر، للخالديْن، ٥١/٢.

(٢)شرح أشعار الهذليين، صنعة أبي سعيد السكري، ت: عبد الستار فراج، مراجعة: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ٦١٧/٢، يقال له الداخل ، واسمه زهير بن حرام ، أحد بني سهم بن معاوية.

(٣)عدادها: صوتها، فعاوده كلما أنبض عنها، صوتت، خلال ضلوعها: أي في قلبها، وجد بولدها، وهيج: يتوهّج ويلتهب في صدرها.( ينظر شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص ٦١٧ )

(٤)الشماخ بن ضرار الذبياني، حياته وشعره، صلاح الدين الهادي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨م، ص١٩٥."بتصرف"

ومن أشهر مَن وصف القوس وجعلها ملازمة في ذلك العصر الشنفرى في لاميته المشهورة ، التي أكثر القدماء والمحدثون من شرحها، وأوردوها في كتبهم، وهي من أجود أشعار العرب، قال عنها الخالدان: "إنها كثيرة المحاسن"(١) ، والتي يقول في مطلعها(٢):

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيِّكُمْ فَإِنِّي إِلَى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لَأَمْيَلُ

وأبيات القوس منها ما يقوله:

وَإِنِّي كَفَانِي فَقْدُ مَنْ لَسْتُ جَازِيًا بِحُسْنَى وَلاَ فِي قُرْبِهِ مُتَعَلَّلُ
ثَلاَثَةُ أَصْحَابٍ: فُؤَادٌ مُشَيَّعٌ وَأَبْيَضُ إِصْلِيتٌ وَصَفْرَاءُ عَيْطَلُ
هُتُوفٌ مِنَ المُلْسِ المُتُونِ يَزِينُهَا رَصَائِعُ قَدْ نِيطَتْ إِلَيْهَا وَمِحْمَلُ
إِذَا زَلَّ عَنْهَا السَّهْمُ حَنَّتْ كَأَنَّهَا مُرَزَّأَةٌ عجْلَى تُرِنُّ وَتُعْوِلُ(٣)

وهذه الأبيات التي جاءت في سياق تخلّي قوم الشنفرى عنه وتركه لهم واعتزازه بنفسه، وسلوته بغيرهم، فهو اتخذ الوحوش قومًا بدلاً من قومه الذين جفوه، إلى أنْ وصل إلى ذكر الأصحاب الذين اختارهم واستغنى بهم عن كل صاحب وبيّن ذلك مؤكِّدًا بأنّ والفعل الماضي كفى والباء في بحسنى، مما يدل على إثبات صحبتهم، وإنكار قومه لهؤلاء الأصحاب، فجاء مؤكِّدًا لحال المنكرين، وهذا يدل على إخلاصه لهؤلاء الأصحاب ونبذه لقومه وبني جنسه الذين لا يقدّرون المعروف، ثم بيّن أنهم ثلاثة أصحاب، وقدّم هنا المسند ثلاثة أصحاب؛ ليشوق مَن يستمع إليه مَن سيكون هؤلاء الأصحاب، الذين استغنى بهم عن القبيلة، فإذا به قلبه القوي الشجاع الجريء، وسيفه البتّار القاطع، شديد المضاء، وقوس طويلة جيدة..

ثم أمعن في وصفها بقوله هتوف من الملس، فهي قوس ذات صوت يغني عن صوت الإنسان ومزيَّنة كذلك، وكأنك بكائن حي يحاكيه ويسير معه ويردّ عليه الصوت من خلال الرمي بها، ثم يعود فيبين صفة صوتها حال خروج السهم منها، وكأنه حنين امرأة أثقلتها المصائب، فهنا تشبيه ، يأتي بيانه في بابه –بإذن الله–.

---

(١)الأشباه والنظائر، للخالديْن، ج ٢ ص ١٧ .

(٢)"ديوان" الشنفرى، ص٥٨، بنو الأم: الأشقاء أو غيرهم ما دام تجمعهم الأم، المطي: ما يُمتطَى من الحيوان والمقصود الإبل هنا. وإقامة الصدور: التهيُّؤ للرحيل.( الديوان )

(٣)"ديوان" الشنفرى، ص٦٠.

وانظر البيت الأخير، وكأنّك بالشاعر مع عزمه وقوته وشجاعته واعتماده على نفسه وما معه من هؤلاء الأصحاب إلاّ أنه ما زال يحنُّ إلى قومه، كما حنَّت قوسه على فراق ولدها مصدرة هذا الصوت الذي عبّر به عن عظيم الوجد والفقد الذي ألجأه إلى ما هو فيه.

وتعدَّدت أوصاف القوس في قصائد متفرقة، فمرةً يصفون صوتها، ومرةً يُضفون عليها صفات المرأة. ، وها هو الشنفرى الأزدي في قصيدة أخرى يركّز على جانب حركة القوس وصوتها، وكيف تأبى بعجسها، وترمي بذروتها، وكيف يكون لسهمها حين تحتك بمقبضها حفيف كحفيف النحل، تخطئ طريقًا إلى غارها في الجبل فيقول: (١)

**وَحَمْرَاءَ مِنْ نَبْعِ أَبِي ظُهَيْرَةَ تَرِنُّ كَإِرْنَانِ الشَّجِيّ وَتَهْتِفُ**
**إِذَا آلَ فِيهَا النَّزْعُ تَأْبَى بِعَجْسِهَا وَتَرْمِي بُذِرْوَيْهَا بِهِنَّ فَتَقْذِفُ**
**كَأَنَّ حَفِيفَ النُّبْلِ مِنْ فَوْقِ عَجْسِهَا عَوَازِبُ نَحْلٍ أَخْطَأَ الغَارَ مُطْنِفُ**(٢)

فالشاعر يصف القوس هنا بأنها حمراء، وعلل شارح الديوان حمرتها ؛ لأجل أنها من النبع، أو لأنها قديمة، أو أنّ الشمس والأنداء غيّرت لونها. ولكنّك ترى أنّ السياق في مجال الصيد، والشاعر أراد أن يوحي بتمكّنه من الصيد، وتمكُّن قوسه من إصابة الفريسة، ممّا جعل قوسه وسهامه دائمة الحمرة؛ لكثرة شربها من دم الصيد.

ويأتي ما يؤكّد ذلك بعد هذه الأبيات الذي يقول فيه: (٣)

**أُرَكِّبُهَا فِي كُلّ أَحْمَرَ غَاثِرٍ وَأَنْسِجُ لِلْوُلْدَانِ مَا هُوَ مُقْرِفُ**(٤)

فهذا البيت ومن خلال سياق الأبيات، يظهر أنّ اللون الأحمر عنده يوحي بالقوة والمنعة وإصابة الهدف، ممّا جعله ملطّخًا باللون الأحمر لون الدم.

---

(١)"ديوان" الشنفرى، ص٥٤.

(٢)الحمراء: القوس هنا، النبع: شجر تتخذ منه القسيّ والسهام، الإرنان: الصياح بالبكاء، الشجيّ: الحزين، العجس: مقبض القوس، الذروان: طرفان، عوازب: جمع عازب، وهي التي ابتعدت في المرعى، الغار: الكهف، والمغارة، المطنف: من يعلو الطنف وهو رأس الجبل.( ينظر الديوان ، ص ٥٥)

(٣)ديوان الشنفرى، ص٥٥.

(٤)الأحمر: القوس، الغاثر: المغبر إلى خضرة، والمقرف: غير الحسن.( ينظر الديوان ، ص٥٥)

وفي موطن آخر من شعر الهذليين، يقف  الداخل بن حرام على وصفٍ لقوسه وأسهمه، في سياق فخر وقوة  فيقول(١):

**دَلَفـــتُ لَهـــا أَوانَئِذٍ بِسَهم ... حَلِيفٍ لَم تَخَوَّنهُ الشُــروجُ**

**سَديدِ العَيرِ لَم يَدحَض عَلَيهِ ال غِرارُ فَقِدحُهُ زَعِـــلٌ دَروجُ**

**عَلَيهِ مِن أَباهِرَ لَيّنــاتٍ   يُرِنُّ ... القِدحَ ظُهـــرانٌ دَمـــوجُ**

**كَمَتنِ الذِئبِ لا نِكسٌ قَصيرٌ ... فَأُغرِقُهُ وَلا جَلـــسٌ عَموجُ**

**يُقَرِّبُهـــا لِمُطعَمِها هَتوفٌ ... طِلاعُ الكَفِّ مَعقِلُها وَثيـــجُ**

**كَأَنَّ عِـــدادَها إِرنانُ ثَكلى ... خِـــلالَ ضُلوعِها وَجدٌ وَهيجُ**

**وَبِيضٌ كَالسَّلاجِم مُرْهَفَـاتٌ ... كَـأَنَّ ظُبَاتِهَا عُقْـــرٌ بَعِيجٌ**

**وَصَفْراءُ البُرَايَةِ فَرْعُ نَبْـعٍ ... تَضَمَّنَهَا الشَّرَائِعُ وَالنُّهُـــوجُ**(٢)

فالشاعر يسير ببطءٍ، حاملاً أسهمه الحديدية الجيدة الصنع ، غير متصدِّعة، لا تخون صاحبها، فسهمه شديد الانطلاق، مصيب للهدف، مزيَّن بالريش، أبيض شبيه بمتن الذئب في استوائه، ليس بالطويل ولا بالقصير، رقيق محدَّد، كأن في رأسه جمرة من شدة تلظِّيه

(١) شرح أشعار الهذليين، ٢/ ٦١٥ – ٦١٩ .

(٢) الدليف: سير فيه إبطاء ، أوان : حين ، حليف : حديد ، لم تخونه : لم تنقصه ، الشروج : الشقوق والصدوع.شديد : يعني السهم ، والمعنى للنصل ، قاصد ، العير : الناتئ وسط النصل ، يدحض : يزلق ، الغرار: المثال الذي يضرب عليه ، زعل : مثل ، أي متى حركته ، دروج : درج ، إذا ألقي بالأرض درج ، من استوائه واستدارته .الأبهر : ظهر الريشة ، لا هو أعلاها ولا هو أسفلها ، الظهران : ظهر الريشة ، دموج : مشتبه في الاندماج والصلابة ، يزن : من الزينة ، لينات : قذذ لينة .كمتن الذئب : في استوائه ، النكس ، الذي جعل أعلاه أسفله ، فوقه مكان نصله، أغرقه : إذا نزعت فيه يجاوز، يدخل فيه ، الجلس : الطويل الغليظ ، عموج : يتعمج ، يلتوي ولا يقصد .المطعم : الصائد المرزوق ، طلاع الكف : ملء الكف ، الهتوف : القوس ، وقال : معقل كل شيء : مصيره الذي يصير حرزاً له ، وثيج : وثيق .عدادها : صوتها تعاوده ، كلما نبض عنها صوتت ، إرنان ورنين: سواء ، خلال ضلوعها : أي في قلبها وجد بولدها ، وهيج : يتوهج ويتلهب في صدرها .وبيض كالسلاجم: يريد النصال وكأن معناها أنها تشبه السلاجم ، السلاجم : الطوال ، المرهف : المرقق المحدد ، الظبة : حدة السهم ، العقر الجمر ، بعيج : مبحوث ، أي بعج بعود يثار به .الفرع : ما كان من قضيب واحد ، البراية : ما بري من القوس ، الشرائع : مكان ينبت فيه شجر القسيّ ، النهوج : الطرق التي يطلع إلى القوس فيها . ( ينظر شرح أشعار الهذليين٢/ ٦١٥ – ٦١٩ )

واندفاعه، وفي وصفه بالبياض يكون مخالفًا لقوس أبي ذؤيب ، الذي لم يكن لقصد قتل الفريسة فوصفه بالبياض، وأما عند الداخل فقد وصفه بالبياض مع التلظِّي، وكأنَّ في رأسه جمرة تتلهَّب، وهذا ممَّا ناسب أنْ يكون قصد الشاعر إرادة القتل، مقرّبًا قوسًا صفراء من نبع هتَّافة، تملأ الكفَّ موثوقة الوسط ، ليست برقيقته، كأنَّ تصويتها حين تقذف سهمها صوت امرأة فقدت ولدها ، فسهمها يتوهَّج ويتلهَّب كقلب الأم المكلومة، يحترق ويلتهب حسرة وألمًا.

ولقد جاء وصف السهم بالحليف دلالة على القوة والفخر فهو رمز للتباهي والإعجاب بالقوة الذاتية ، فأغلب المعاني التي سيقت في وصف القوس لها صلة بالفخر والإعجاب وبالذاتية ، ؛ ونكَّر السهم الحليف للتفخيم، ثم جاء بعده احتراس في قوله – لم تخونه الشروج – ثم وصفه بسديد العير، وهو مسند إليه معرف بالإضافة وفي ذلك تعظيم للمضاف لوصفه بهذا الوصف، ثم شبَّهه بمتن الذئب؛ وذلك لاستوائه –وسيأتي بيان التشبيه بإذن الله في موضعه– وينتقل الشاعر لوصف القوس بصفات متتالية فهي هتوف، طلاع الكف، معقلها وثيج. وقد جاءت هتوف مسندًا إليه ، تقدَّم عليها الجار والمجرور، وقبله المسند يقرب، وفي ذلك تشويق لذكر المسند إليه، ولقصر المسند إليه على المسند، و بعدها صفتيْن للقوس؛ وهما طلاع الكفِّ ومعقلها وثيج، وقد فصل الشاعر بينهما؛ وذلك لكمال الاتصال بينهما، فهذه الصفات مؤكِّدات لمتانة وجودة هذه القوس، فحسُن الفصل لشدة الاتصال بين هذه المعاني، ولو وصل الشاعر بينهما لأضعف من قيمتها، ولما برزت قوتها، ثم يعود ليصف سهامه مرة أخرى منكِّرًا لها و في ذلك تفخيمٌ وتعظيمٌ لها، ثم شبَّهها بالسلاجم؛ أي الطوال. وسيتبيَّن –بإذن الله– حين تفصيله في بابه، ثم جاء بالمسند إليه في قوله: صفراء البراية واصفًا القوس، وفي هذا تعظيم للمضاف.

وقد أكثر شعراء العصر الجاهلي من التأمُّل في القوس والسهام، وحمّلوها معاني كثيرة، فكان حديثهم عنها كحديثهم عن المرأة في بكارتها، وأنها إذا مسّها أحد، رفعت صوتها، يقول أبو ذؤيب الهذلي: (١)

(١)شرح أشعار الهذليين، ج١،ص١٨٢.

**وَبِكْرٍ كُلَّما مُسَّتْ أَصَاتَتْ تَرَنُّمَ نَغَمِ ذِي الشَّرْعِ العَتِيقِ**
**لَهَا مِنْ غَيْرِهَا معَهَا قَرِينٌ يُرِدْ مَرَاحِ عَاصِيَةٍ صَفُوقِ**[1]

يقول محمد الطويرقي: "فنجد صوتها يحمل مفارقة التمنُّع والرغبة، فهي تصوِّت بصوت المتأبيّة، ولكنه صوت يحمل في ثناياه الفرح والانتماء إلى عالم العود والمرح والإقبال على الحياة، وتزداد المفارقة حدّة في حياة هذه الأنثى، فهي لينة يطمع فيها الطامعون، وعاصية تتأبَّى على الراغبين فيها"[2].

وفي وصف آخر لتلك القوس عند ربيعة بن الكودن، وقد أضاف إليها ألفاظًا من معجم المرأة، يقول: [3]

**وَصَفْرَاءَ تَلْتَذُّ اليَدَانُ بِشَارِهَا بَغْيِ رِجَالٍ حَاصِنِ لَمْ تُذَوَّقِ**
**نَشَرْتُ لَهَا ثُوْبِي فَبَاتَ يُكِنُّهَا تَحَلُّبَ مُعَاجٍ مِنَ المَاءِ مُثْلَقِ**[4]

فهذه القوس الصفراء، اللذيذة الملمس، المطلوبة من قبل الرجال، الغير مبتذلة والتي لم يذقها غيري، أنا أحافظ عليها بنشر ثوبي لها؛ ليحفظها من المطر والندى. وانظر إلى قوله "نشرت لها ثوبي"؛ حيث بيّن أن هذا الثوب أصبح ملكًا لها، حيث قدّم الجار والمجرور على المفعول، وهذا ممّا يزيد من عنايته بها وحرصه عليها، ولفظ (أكنُّ) التي توحي بالعناية الفائقة التي جعلتها كالجوهرة المكنونة، وهذا من حسن التعبير وانتقاء الألفاظ، فلو عبّر بقوله: يحفظها بدل يكنّها، لم يكن لها ذاك الإيقاع والجرس الذي يوحي بصدق العناية وحسن الرعاية.

---

(١)البكر: القوس أول ما رمي عنها، أصاتت: صوّتت، شبّه ترنمها بنغم ذي الشرع وهو العود، الشرع: الأوتار، شبه صوت الوتر بصوت العود، القرين: يريد الوتر، عاصية: يريد القوس. يعني أنها تمتنع وتعصى، صفوق: أي لينة يقلبها كيف شاء، وقِيل صفوق: راجعة، والقرين: السهم. ( ينظر شرح أشعار الهذليين ) ج١ ، ص ١٨٢ .

(٢)شعرية القوس ، محمد مشعل الطويرقي ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدبها ، ج١٩ ، ع ٣١ رمضان ١٤٢٥ هـ .

(٣)شرح أشعار الهذليين، ٦٥٧/٢، وهو أخو بني حنيف بن معاوية بن تميم بن سعد بن هذيل .

(٤)الصفراء: القوس، بشارها: فتنتها، بغي رجال: طلبةُ رجال، حاصن: لم يبتذلها الناس، ولم يذوقوها غيرها، أنا ملكتها وحدي، لم تذوّق: لم يذقها أحد، أكنّها: حفظها من الندى والمطر بثوبه، معاج: يلتوي في نزوله، يريد المطر ملثق: مُنَدَى يُبَلُّ.( ينظر شرح أشعار الهذليين،ج٢ ،ص ٦٥٧)

ويأتي زهير بوصف للقوس فيه تشبيه لصوتها حين ينطلق سهمها بصوت المرأة النوّاحة التي تنعي كرامًا فُقِدوا، فيقول: (١)

**مَلْسَاءُ مُحْدَلَّةٌ كَأَنَّ عَتَادَهَا نَوَّاحَةٌ نَعَتِ الكِرَامَ تَشَبَّبُ**(٢)

ومن نواحة زهير إلى نوائح أبي ذؤيب، حيث يصف فعله في الأعداء ، وأثر أصوات القسيّ حال غزوه، وما تصدره من صياح وعويل يطير بالألباب.

فيقول: (٣) (

**كَأَنَّ ارْتِجَاعَ الجُعْثُمِيَّاتِ وَسْطَهُمْ نَوَائِحُ يَشْفَعْنَ البُكَاءَ بِالأَزَامِلِ**(٤)

فصوت هذه القسيّ حين تنطلق من سهامها وترجع عليها أوتار يشبه صوت الباكيات اللاتي يجمعن البكاء بالرنة والصياح والعويل، وهنا تشبيه ، يأتي بيانه في بابه –بإذن الله–.

وينتقل الحديث من ذكر المرأة وإضافة معجمها إلى القوس، لتبرز مرة أخرى مع السهم من خلال إكثار الشعراء من تشبيه لحظ المحبوبة ونظراتها بالسهام –وهذا كثيرٌ في شعر الجاهليين وسيقف البحث على ما يؤدّي الغرض– فالسهام عندهم لا تصيب ولا تصمي كما تصيب سهام العيون النجل، ومن ذلك قول النابغة الذبياني، وهو يتحدَّث عن محبوبته وما فعلته نظراتها فيه فيقول: (٥)

**فِي إِثْرِ غَانِيَةٍ رَمَتْكَ بِسَهْمِهَا فَأَصَابَ قَلْبَكَ غَيْرَ أَنْ لَمْ تَقْصُدِ**
**وَلَقَدْ أَصَابَ فُؤَادَهُ مِنْ حُبِّهَا عَنْ ظَهْرِ مِرْنَانٍ بِسَهْمٍ مُصْرِدِ**(٦)

---

(١)شرح شعر زهير، ص ٢٧٨ .

(٢)ملساء: التي لا تشقُّق فيها ولا نتوء، المحدلة: التي أعلاها أوسع من أسفلها، فيها ميل، العتاد: العداد، وهو صوت وتر القوس إذا رمي عليها، نعت الكرام: أخبرت بموتهم وبكتهم، المشبب: النائحة تشبب الحزن وتورثه.( ينظر شرح شعر زهير ، ص ٢٧٨ )

(٣)شرح أشعار الهذليين، ج١، ص ١٦٢ .

(٤)بنو جعثمة: من اليمن، وأراد بالجعثميات القسيّ، وارتجازها: صوتها، يشفعن البكاء: يجمعنه بالرنة والعويل.( ينظر شرح أشعار الهذليين ، ج١، ص ١٦٢)

(٥)"ديوان" النابغة الذبياني، ت: أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ص٩٠-٩١.

(٦)غانية: التي غنيت بجمالها، غير أن لم تقصد: أي لم تهلك حين رمتك فتستريح، المرنان: من الرنين، وهو صوت القوس عند الرمي، والمصرد: المنفذ.( ينظر الديوان ، ص٩٠-٩١ )

سياق هذه الأبيات يأتي في حديث النابغة عن المتجرّدة زوجة النعمان بن المنذر، معرِّضًا متغزِّلاً بها، فبيّن كيف يكون له الرحيل، وقد أصابته هذه الغانية -وهي المستغنية بجمالها- بنظرة أصابت قلبه، كما يصيب السهم الرمية -لكنها هنا لم تقتله، وهنا تشبيه بليغ، حين شبّه عيون معشوقته وأثرها بالسهم الصائت المنطلق من القوس الرنّانة.

وتظهر في البيت الثاني مؤكّدات متوالية؛ باللام وقد والباء، وكأنه يريد أن يثبت مدى حبه لها وصدقه في ذلك وترسيخ ذلك في الأذهان ، وانظر إلى احترامه ومشاعره الصادقة تجاه محبوبته بقوله – من حبها – فلم يكن عن بغض أو غيره، وإنما لأجل الحب.

ومما ذكر حول عيون المحبوبة وتشبيهها بالسهام وفعلها النافذ في القلب قول امرئ القيس: (١)

**وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَاكِ إلاَّ لِتَقْدَحِي  بِسَهْمَيْكِ فِي أَعْشَارِ قَلْبِ مُقَتَّلِ**(٢)

لقد بيّن بكاء محبوبته وسيلان دمعها، وأنها رمته بسهمين مصيبين، ويقصد بهما عينيها، واستعار السهام لعظيم أثرها في الفريسة، فهو مطعون القلب ومكسّره؛ بسبب لحظها القتّال، الذي قتل، ثم قتل وأسرف في القتل. وعبّر بقوله مقتّل، وهو الذي تكرّر عليه القتل مرةً بعد أخرى، ولم يقل مقتول، قد قُتِل وانتهى. وقد وُفِّق الشاعر في هذا التصوير لوصف حاله مع محبوبته وكثرة قتلها بعيونها له.

---

(١)"ديوان" امرئ القيس، ت: أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، القاهرة، ط٥، ص١٣.

(٢)ذرفت: سال دمعها، السهمين: العينين، الأعشار: القطع والكسور.( ينظر الديوان ، ص ١٣ ).

## المبحث الثاني: القوس والناقة ، سياقاته ومواقعه :

لقد أكثر شعراء العرب في الجاهلية من وصف الناقة، وجعلوا هذا الوصف حلقة لابدَّ منها في القصيدة العربية، يقول الدكتور شوقي ضيف:"...إذْ نراها تبتدئ عادةً بوصف الأطلال وبكاء الدمن، ثم تنتقل إلى وصف رحلات الشاعر في الصحراء، وحينئذٍ يصف ناقته التي تملأ حسَّه ونفسه وصفًا دقيقًا فيه حذق ومهارة ..." (١).

والناقة في حياة العربي شيءٌ ثمينٌ، وهي من أهم الحيوانات التي عايشوها في زمانهم كيف لا؟ وهي الحيوان المناسب للحياة في الصحراء؛ لتحمُّلها وعورتها، ومقاومتها لظروفها القاسية من حرٍّ وقرٍّ، لذا كثر تردُّد ورودها في شعرهم، حتى لا تكاد تخلو قصيدة من قصائدهم من وصفها والحديث عنها، فهي بمنزلة الروح عند العربي، فضلاً عن أنها دية لأسرى الحرب والقتلى؛ لقيمتها الكبرى في نفوسهم، ثم ربطها بالأطلال والرحلة والصيد وهي تعبير عن فكرة الثبات والصمود؛ بسبب قوة الناقة وصبرها وتحدِّيها لقسوة الزمن والطبيعة، وهي وسيلة للترويح عن النفس والسلوة عن الهموم وضغوط الحياة وتفريج الكرب والحزن والهم.

وقبل ذلك من لحمها يأكل، ومن لبنها يشرب، ومن وبرها وجلدها يسكن، و على ظهرها يركب، فهي مطعمة له وكاسية ومؤوية ومركبة ومزيلة للهم، فيكيف لا يحبها ولا يعشقها ولا يبذل الغالي والنفيس من أجلها.

وقد بيَّن الله –عزَّ وجلَّ– في كتابه العزيز عظمها، ودعا للتأمُّل في خلقها، فقال سبحانه: (أفلا ينظرون إلى الإبلِ كيفَ خُلِقت) (٢).

فبعد ما سبق من اهتمام العربي بالناقة، تجد وفرة ذكرها في شعرهم، واصفين لها في شكلها وعظمها وسيرها وأعضائها وصفًا دقيقًا، يُعجِب مَن تمعَّنه، ويخلب لبَّ مَن تصوَّره، وكأنك أمام عرض مرئي؛ لتشاهد هذا المخلوق العظيم من خلال تصويرهم له ووصفهم إيَّاه، وكان العرب إذا وصفوا الناقة، شبَّهوها في سرعتها بحمار الوحش أو بقره أو بالنعامة أو بالقطاة،

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط ١١، ص ١٨.

(٢) سورة الغاشية، الآية١٧.

ويشبِّهون أضلاعها بالقسيِّ، وصوت بغامها، حين يتردَّد في صدرها بصوت القوس حين ينطلق منها السهم، و أكثر الشعراء من تشبيه صوت القسي بصوت الناقة، وهذا إنْ دلَّ، فإنما يدل على اختيار العربي لكلِّ ما هو ثمين ومهم في الحياة؛ ليكون وصفًا أو موصوفًا لمحبوبه وهي الناقة... وهذا المبحث سيتحدَّث عن وصف القوس من خلال ذكر الناقة وتطرُّق العرب لها، من خلال وصفهم لإبلهم بها أو وصف القسي بها، فتارةً مشبّهًا به وتارة مشبَّه .

و المبحث يقف على ذكر الشعراء للقوس، من خلال الحديث عن الناقة والسياق التي وردت فيه.

لما كان للقوس أهمية عند العرب الجاهليين، وتشكِّل عنصرًا هامًا من عناصر الحياة كما تشكِّله الناقة، كان الارتباط بينهما قويًا حتى شبَّه العرب إبلهم ذات القيمة السابقة الذكر بالقوس، تلك الأداة التي كابد وجاهد العربي وبذل الغالي والنفيس للحصول عليها، فهي شيء نفيس، لا يُتوصَّل إليه إلاَّ بكدٍّ واجتهاد؛ لما يكتنف مكانها من المصاعب والمشاق. وأكثر ما ورد عن القوس في سبيل ذكر الناقة تشبيه أضلاعها بالقسي، وصوتها حين انطلاق السهم بصوت الناقة والعكس. وسيتضح ذلك من خلال الشواهد التي ذكرها الشعراء في معرِض قصائدهم، ومن ذلك قول ابن مقبل في وصف قوس الشريان في يد الرامي، وقد شبَّه صوتها بصوت الناقة(١):

**خَفيُّ الشَّخصِ يغمِزُ عَجسَ فرْعٍ     مـــنَ الشُّـــريَانِ مِـــرزَامٍ ســـجُوعِ**

**إذَا غمَزتْ تَرنَّمَ أبهرَاهَا     حَنينَ النَّابِ بِالأُفْقِ النَّزُوعِ(٢)**

جاءت هذه الأبيات واصفةً للقوس وقوَّاسها، فقد بيّن الشاعر حرص هذا الصائد على قنص الفريسة، مختبأ عنها مراقبًا لها عن كثب، غيرَ مصدرٍ صوتاً يدل عليه، في يده قوس

---

(١)"ديوان" ابن مقبل ، تحقيق عزة حسن، دار الشرق العربي،بيروت لبنان، ط. د، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م، ص١٣٠ – ١٣١.

(٢)يغمز: أي يجس . والعجس: عجس القوس ، وهو مقبضها الذي يقبضه الرامي منها . وفرع من الشريان : يريد قوسا متخذة من فرع الشريان ، وهو من أشجار الجبال تعمل منه القسيّ . والمرزام : القوس التي تصوت عند الرمي بها ، من إرزام الناقة وهو حنينها . والسجوع : التي تسجع أي تصوت عند الرمي بها أيضًا ، من سجع الحمام .الأبهر من القوس : كبدها ، وهو مابين طرفي العلاقة ، ثم الكلية التي تلي العلاقة ، ثم الأبهر يلي ذلك ، ثم الطائف ثم السية ، وهي ما عطف من طرفيها . والناب : الناقة المسنة ، سميت بذلك حين نبت نابهاوعظم . وبالأفق : يريد الأفق البعيد عن وطنها. والنزوع الناقة التي تنزع إلى وطنها ، أي تحن وتشتاق . ( ينظر الديوان ، ص١٣٠ – ١٣١ )

من الشريان، لها صوت يشبه صوت الإبل، حين ترزم وتحن على وليدها، ويشبِّه صوت السجع الحمام، وإذا رمي بها، ترنَّمت كبدها، وأصدرت صوتًا كصوت ناب الناقة المسنَّة التي تحنُّ مشتاقة إلى ديارها، فتصدر هذا الصوت الذي شبّه به صوت القوس حال غمزها والرمي بها.

فمحور البيتين ،جاء بإضفاء صفة الحياة على القوس ، تشاكل الحياة — فهي كائن حي — وإدخالها في جنس ثاني — الحيوانية — .

وسياقهما جاء في حديث الشاعر عن وقوفه على أطلال محبوبته، وقد لعبت فيها رياح الجنوب، ثم بات وحده في تلك الديار ليلة مخيفة، ليس فيها ضجيع غير سيفه وناقته القوية، التي استرسل في وصفها والحديث عنها، إلى أنْ تحدَّث عن القوس ووصفها في يد الرامي، ووصف صوتها الذي ناسب ذكره مع ذكر الناقة، وهذا إنْ دلَّ، فإنما يدل على القيمة المتمكِّنة للقوس في نفس العربي، حيث ذكرها مع أجود ما يملكه العربي ويفتخر به، وهي في يد الرامي يغمزها. وعبَّر الشاعر بالمضارع هنا دلالة على استمرارية جسِّها وتقليبها إعجابًا بها، وأخفى الفاعل؛ تشويقًا واختصارًا ووصفها بوصفيْن متتاليَيْن مرزام وسجوع؛ دلالة أخرى على تمكُّنها من النفس، حيث جمع لها صوتيْن عزيزيْن: صوت الناقة المقدرة عند العربي، وصوت الطائر الذي يشدو في الأماكن العالية، كما تسكن هذه القوس الذي هذا وصفها، فهي تعيش في أمكنة مرتفعة عالية المكان، ممَّا جعلها عالية المقام في نفس العرب الجاهليين، وعبَّر في البيت الثاني ببناء الفعل للمجهول غُمِزت؛ لمعرفة المقصود سابق الذكر، وهو القوس وعبَّر بالماضي ترنَّم؛ دلالة على ثبات هذا الترنُّم، وهذا يدل على أصالتها، كما هي ناقة الشاعر، ووصفها بالحنين؛ دلالة على ما يعتلج في نفس الشاعر من حنين يكنُّه لمحبوبته التي عفت ديارها.

ومن وصف صوت القوس، ما ذكره عمرو ذو الكلب، حيث يقول[١]:

---

(١)شرح أشعار الهذليين، ٢/٥٦٥.

**وفي الشِّمالِ سَمحَةٌ من النَّشمِ صفْرَاءُ منْ أقْوَاسِ شيْبانَ القُدُمْ**
**تعجُّ في الكَفِّ إذَا الرَّامِي اعتَزَم ترنُّمَ الشَّارِفِ في أُخْرَى النَّعَمْ(١)**

في هذه الأبيات يصف القوس التي خرج بها لملاحقة ذئب يعدو على غنمه بأنها قوس سهلة مرنة صفراء من عمل قوَّاس متميِّز، وهي مع ذلك قديمة، لها صوت في كفِّ الرامي بها،حين يعمد في تصويبها نحو الفريسة، ولها صوت يشبه حنين الناقة المسنَّة التي تكون دائمًا في مؤخِّرةِ الإبل؛ لكبر سنها، وعدم قدرتها على مجاراة الإبل الشابة الفتية، فهي دائمة الحنين؛ لعجزها عن مسايرة هذه الإبل الشواب.

وقد أتى الشاعر بوصف القوس في سياق ذوده عن ماله بسلاحه، والذي هو في مواجهة حيوان مفترس، فناسب أنْ يكون السلاح المستخدَم في تلك المواجهة قوسه السمحة.وقدم الجار والمجرور في الشمال؛ لاختصاص القوس بهذا الموضع ونكَّر صفة القوس سمحة وصفراء؛ دلالة على تميُّزها وقيمتها، و أن هذه الصفات مختصة بها ودالة عليها.

ثم أتى بالفعل مضارعًا في تعجُّ، ممَّا يدلُّ على حالة تصويتها حال الرمي، وأتى بإذا الشرطية فحينما يعتزم الرمي بها فيرمي تصدر صوتاً بارزاً ، وقدَّم المسند إليه على المسند للقافية.

ومن وصفها، وتعلُّقها بالناقة تشبيه كعب بن زهير لصوت القوس بصوت الناقة البكر التي ترزم وتحنُّ على ولدها، حيث يقول(٢):

---

(١)سمحة : قوس سهلة ليست بكزة . هزم : صوت . النشم : شجر . شيبان : إنسان كان يعمل القسي . تعج : تصوت . اعتزم : اعتمد . والقدم : العتق وهو من نعت القسي . ترنم : كما تحن الناقة الشارف . والشارف : الناقة المسنة . والنعم : الإبل .( شرح أشعار الهذليين ،ج ٢،ص٥٦٥)

(٢)"ديوان" كعب بن زهير ، صنعة الإمام أبي سعيد السكري ، شرح ودراسة مفيد قميحة ،دار الشواف ، ط ١ ، ١٤١٠ = ١٩٨٩م ، ص ١٤٤ .

**وصفْراءِ شَكَّتها الأسرَّةُ عُودُها على الطَّلِّ والأَنْدَاءِ أحْمَرَ كَاتِمُ**
**إذَا أُطِرَ المربُوعُ منهَا ترنَّمَتْ كمَا أرزَمَت بكرٌ عَلى البَوِّ رَائِمُ(١)**

يقول كعب: إنَّ اليوم الذي يندى فيه كلُّ شيءٍ ويتغيَّر، لم يؤثِّر في عود هذه القوس، فهو لم ينتقص منها، وإنما بقيت على حالها؛ لأنها عتيقة العود، وإذا اشتد وترها أرزمت إرزام الناقة حنانًا، إذا عُطِفت على بوها. ولعل كعبًا لما شبَّه صوت القوس التي أخطأت هدفها، فهي لم تصدق معه، ولم تحقِّق مطلبه، شبَّهها بتلك الناقة، التي جعل لها هذا البوّ فترزم عليه، مع أنه ليس بحقيقة، بل هو جلد محشو بتبن، فصوت القوس الضائع الذي لم يُصِب الرمية كصوت تلك الناقة الضائع على شيء ليس موجودًا في الحقيقة، وهو ولدها الحقيقي.

و ناسب ذكر صوت القوس حديث الشاعر عن ناقته وقربه منها وتعلُّقه بها أنْ يخلع ما يكون للناقة من صفات، تتَّصف بها على القوس التي هي وسيلة الشاعر لكسب عيشه، وصدِّ عدوه، كما أنَّ ناقته راحلته ومؤنسته ومغذية له ومؤوية كذلك.

كما أنَّ الشاعر كنّى عنها بالوصف، وقال صفراء، ولم يأت باسمها الحقيقي – وقوسًا – إمعانًا في الحب والعشق لهذه الأداة، وواصل الوصف لها بأنها مخطّطة العود جيدته ليس فيها صدوع ولا شقوق، وإذا عطف وترها، حنَّت كحنين الناقة البكر، وليس هذا بأكمل في الوصف ، فقد شبهها بالناقة البكر ؛ لعدم نضجها وقلة تجربتها خلافاً للناقة المسنة فهي ذات حنكة وتجربة .

وفي تشبيهه القوس بالناقة البكر تنبيه على أن القوس لم تصب الرمية والهدف فمثلها كمثل الناقة التي ترزم وتصوت على البوّ –وهو جلد محشو بتبن تخدع به الناقة حتى تسكن – تحسبه ابنها ، فالصورة هنا سلبية عن القوس .

وهذه الأبيات جاءت في سياق وصف الشاعر للصحراء وحرارتها وللظباء المتأثِّرة بهذا الحر، وسير الشاعر في هذه الصحراء، على ظهر طرق عبَّدتها أرجل الراحلين من أناس وبهائم فوق ناقة كريمة عتيقة، ثم أخذ يصف الناقة التي هو عليها، ثم تحوَّل إلى ذكر حمر

(١)الصفراء: القوس ، وشكَّتها : دخلتها ، والأسرة : خطوط ، وإذا كانت القوس ذات أسرة كان أحسن لعودها وأعتق لها ، وكاتم : ليس فيها صدع من طرفها إلى طرفها الآخر.أطر : عطف ، والمربوع : وتر من أربع طاقات ، ترنمت : صوتت ، أرزمت : من الإرزام وهو حنين الناقة ، والبوّ: جلد يحشى تبنًا ثم يعلق عند عضد الناقة ، فإذا رأته سكنت ، ورائم : عاطف ، شبه صوت الوتر بصوت الناقة العاطف على البوّ.( ينظر الديوان ، ص ١٤٤ )

الوحش، وتتبُّع ذلك الصائد المختبئ لها، ينتظر ورودها الماء؛ لكي يتسنَّى له قنصها، معتد بعدة الصيد، مقلِّبًا بين يديْه أسهمًا جيدة وقوسًا متميِّزة.

وكعب بوصفه هذا يخالف وصف ذي الكلب، الذي جعل صوت قوسه كصوت الناقة المسنَّة.ولكن لعل لكل منهما مبرِّرًا لوصفه، فذا الكلب حين وصف صوت قوسه بالناقة المسنَّة؛ لكبر في سنه وحب متمكِّن لناقة عاشت معه سنينه الطوال، فهي بمنزلة الولد الروح، ممَّا جعلها تحضر في ذهنه حال الوصف؛ لتمكُّنها من قلبه وقربها من نفسه لأنَّ العرب من ذلك الوقت إلى زماننا هذا يهتمون بكبار الإبل؛ سواءً للمفاخرة أو للذبح أو غير ذلك.

وأمَّا كعب، فوصف صوتها بصوت البكر؛ لشبابه وانبهاره بالفتية من الإبل، وهي الأبكار، لنشاطها الذي يعادل نشاطه وفتوته.

وأمَّا الشماخ، فيصوِّر صورة متفرِّدة، حيث شبَّه صوت بغام الناقة حين يتردَّد في صدرها بصوت القوس حين ينطلق السهم ويرتد الوتر، فيقول(١):

**عَلَنداةُ أسْفارٍ إذا نالَها الوَنى ومَاجتْ بها أنساعها وضفورها**

**يـردُّ أنابيبُ الجِرانِ بُغامَها كما ارتدَّ في قَوْس السَّراءِ زفيرُها(٢)**

يأتي الشاعر بوصف ناقته القوية التي اعتادت على الأسفار، وهي عليها قوية ، لها صوت شديد له رنة، وهو عند خروجه من الرئة، يُحدِث صوتًا كصوت القوس حين يرتد فيها زفيرها، فهو يشبِّه صوت بغامها المتردِّد في صدرها، بصوت القوس الذي يتردَّد فيها.

وتظهر ألفاظٌ في البيت، تدل على حزن الشاعر وهمه؛ وهي: يرد، وارتد وبغامها، وزفيرها، وهذه تُوحِي كلها والسياق بهموم تعتلج في نفس الشاعر؛ ممَّا جعله يتسلَّى بناقته التي فيها وعليها زوال همومه وتسليته، ويدل على هذا سياق الأبيات، و يأتي ذكر القوس هنا؛ ليضفي عليه ما يكون للإنسان من الزفير حال الهم، كما أنَّ للناقة بغام حال التعب والإعياء.

---

(١)"ديوان" الشماخ ، ص ١٦٥ .

(٢)علنداة : غليظة قوية ، الونى : ضعف البدن ، ماجت : اضطربت ، أنابيب : يراد بها مخارج النفس من الرئة ، فهو من المجاز .الجران : مقدم عنق البعير ، البغام : الصوت ، السراء شجر تصنع منه القسي .( ينظر الديوان ، ص ١٦٥)

وبهذا الوصف أُعجِب الزمخشري؛ معللًا إعجابه بقوله: "جعل بغامها مزمارًا، حتى جعل له أنابيب، وهو من لطيف المجاز".[(١)] ويأتي توضيح هذا المجاز في موضعه -بإذن الله- .

وسيتطرق الباحث لأوصاف القوس من خلال وصف الناقة وإتيانه – أي الوصف – في سياق ذكرها وتشبيهها به في صوتها وأضلاعها، وقد أحسن الشمَّاخ؛ وهو من أكثر الشعراء تشبيهًا للناقة وأضلاعها بالقوس،حيث يقول ابن قدامة في نقد الشعر: "وقد أحسن الشمَّاخ في قوله، حين شبَّه أضلاع الناقة حين براها السير بالقسي الموترة:

**فقرَّبتْ مبْــراةً كأنَّ ضلُوعَها منَ الماسِخيَّاتِ القِسِـــيَّ المُوتَّرَا**

مبراة من البرة التي تجعل في الأنف من الناقة، والماسخيات: قسيٌّ تُنسَب إلى قوم وقد أحسن الشمَّاخ في هذا التشبيه، من قبل اجتماع الأضلاع والقسي الموتِّرة في الشكل والتوتُّر والأعصاب، والأوتار، ولم يرِد إلاَّ الشكل فقط، وقد أتى على ما فيه".[(٢)]

وسيأتي بيان هذا التشبيه في موضعه -بإذن الله-، فالشاعر هنا يصف هذه الأضلاع بالماسخيات، فأتى بالوصف قبل الاسم الصريح؛ وهو القسيّ، وهذا فيه دلالة على عظم المشبَّه والمشبَّه به، فهذه الأضلاع المرتصة ارتصاصًا عجيبًا بديعًا، تشبه في ارتصاصها واجتماعها وانضمام بعضها ببعض قسيّ ماسخة، تلك القسيّ المشهورة في ذلك الزمن بجودة الصنع وإتقانه، ممَّا جعل الشاعر يجعلها شبيهة لأضلاع ناقة المحبوبة لديه.

و سياق الأبيات الذي جاء فيه هذا التشبيه، بعدما وقف الشاعر على ديار محبوبته، وتساؤله عنها، حيث لم يبقَ من آثارها إلاَّ رسومًا دارسة، أتى عليها الدهر حتى محاها، وكأنها كتابات بالعبرانية؛ وهي لغة اليهود كتابة غير واضحة، على ظهر ناقته التي أوصلته هذا المكان الذي أثار مشاعره؛ لتذكُّر محبوبته ليلى التي جعلته يكفكف دمعه حزنًا عليها وشوقًا لها، فأخذ وكأنه يخاطبها، قائلاً أنه لا بدَّ لكل أثرٍ أنْ يتغيَّر، كما تغيَّرت أنا من الشباب إلى المشيب، وكأن

(١)أساس البلاغة ،لأبي القاسم الزمخشري ،ت محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١٤١٩،١ = ١٩٩٨، ص٢٤٠.

(٢)نقد الشعر، لقدامة بن جعفر، ت محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، د ط، ص١٢٦.

الشباب راكب رحل من مدينة إلى أخرى قاضٍ حاجة له، ثم أخذ يتذكَّر أمورًا مرَّت به، ورجالاً مضوا ليس لهم عوض ولا مثيل. ولما رأى الشاعر أنَّ حياته قاربت على الانتهاء وكبرت سنه ومضى أقرانه، أخذ يتسلَّى بناقته وهي كما قِيل سلوةٌ للعربي من همومه وأحزانه.

والحزن ظاهرٌ في البيت، حيث إنه يقول: فقربت، والفاء تدل على الترتيب والتعقيب، فبعد أنْ أحسَّ بدنوِّ أجله، قرب ناقته ومسليته، التي براها المسير، حتى برزت ضلوعها، وأصبحت كأنها قسيٌّ مصفوفة مرصوصة بأوتارها، ونسبة القسيِّ لماسخة دليل على أصالة هذه القسيّ وشرف نسبها، كما هي ناقته التي هاهي أضلاعها، فهي ذات أصول طيبة وناقة مؤصّلة، وفي تعبيره بالفعل قرب إيحاء بأنها قريبة منه ملازمة له، يبثُّها همومه وأحزانه، ويكلِّمها وكأنها رفيق إنسي، يتجاذب وإيَّاه أطراف الحديث.

وفي موضع آخر، يُطلُّ علينا الشمَّاخ بوصف ضلوع ناقته بالقوة والانحناء والطول ويراها في ذلك تشبه أجود القسيّ وأكملها، قسيّ ماسخة، مكرِّرًا هذا المعنى في قوله(١):

**عَنسٌ مذكَّرةٌ كأنَّ ضلوعَها     أَطَرٌ حنَاها الماسخيُّ بيثْربَ(٢)**

وهنا يبيِّن الشاعر علاقة المشابهة القوية بين هذه الناقة التي وصفها بصفة من صفات الصخرة والفحولة، وأنَّ ضلوعها القوية تشبه في قوتها ومتانتها وتماسكها قسي ماسخة بيثرب ، وتجد هذا لتشبيه مشابه للذي قبله، إلاَّ أن لغة الشاعر هنا تتَّسم بالقوة والجزالة، حيث جاء في معرض فخر واعتزاز وحديث عن النفس، من خلال قطع المفاوز على هذه الناقة التي جاء البيت في معرض الحديث عنها وبيان صفاتها الدالة على قوتها وحب الشاعر لها، ممَّا حدا به للحديث عنها والإطالة في وصفها .

ويظهر وصف القوس في هذا البيت بصيغ التنكير؛ دلالة على التعظيم والتفخيم ونسبتها للماسخي دلالة على أصالتها وشرف نسبها، وهذا يدل على أنَّ الشاعر أتى بكريمة

---

(١)ديوان الشماخ، ص ٤٢٩ .

(٢)العنس: الصخرة ، والعنس :الناقة القوية ، مذكرة : الناقة التي لها صفات الذكر من الإبل ، والأطر التي حناها الماسخي هي : القسي المنحنية.( ينظر الديوان ، ص ٤٢٩ )

النسبة، والتي هي القوس الماسخية؛ لتكون دالة على أنَّ ناقته المذكورة كذلك لها شريف نسب وطيب أصل .

ومن أوصاف القوس التي جاءت في الشعر الجاهلي من خلال كونها مشبَّهًا به قول طرفة في معرض وصفه لناقته التي أجاد وأفاد في وصفها، حيث تجد عنده في معلقته الشهيرة قوله مشبّهًا أضلاع ناقته في صلابتها وانحنائها بالقسيّ: (١)

**وطَيُّ مَحَالٍ كَالحَنِيّ خُلُوفُهُ وأَجْرِنَةٌ لُزَّتْ بِدَأْيٍ مُنَضَّدِ**
**كَأَنَّ كِنَاسَيْ ضَالَةٍ يَكْنِفَانِهَا وَأَطْرَ قِسِيٍّ تَحْتَ صُلْبٍ مُؤَيَّدِ** (٢)

يقول إنَّ لها فقار متراصفة متداخلة مطوية ، كأن الأضلاع المتَّصلة بها كالقسي ولها باطن عنق ضم وقرن إلى الفقار في عنقها ، وقد وضع بعضها فوق بعض.

وقد أمعن في وصف ناقته ، حتى تطرّق إلى الفقار والأضلاع ، وهذا ممَّا يدل على تناسُق أعضائها ، وما تتميَّز به من جمال.

وشبه إبطيْها في السعة ببيتيْن من بيوت الوحش في أصل شجرة، وشبَّه أضلاعها بقسيٍّ معطوفة ، فهو يقول كأن بيتيْن من بيوت الوحش في أصل ضالة صارا في ناحية هذه الناقة. وقسيًا معطوفة تحت صلب مقوَّى وسعة الإبط أبعد لها من العثار وأسرع في سيرها لذلك مدحها بها.

ويتَّضح من خلال السياق الذي ورد فيه ذكر القوس هنا صفة الناقة التي أطال في ذكرها طرفة، حتى لم يكد يترك عضوًا منها إلاَّ ووصفه، ويعتبر من أشهر مَن وصف الناقة من الجاهليين،

---

(١)"ديوان" طرفة ص ٣٢ .

(٢)الطي:البئر المطوية أي المبنية ،المحال:جمع محالة وهي فقرة الظهر. الحني :بضم الحاء وكسرها جمع حنية وهي القوس.خلوفه:أي أضلاعه . وأجرنة :جمع جران وهو باطن العنق. لزت: من اللز أي الضم يعني ضمت . الدأي:جمع دأية وهي خرزة العنق والظهر والخرزة هي الفقرة . المنضد:أي الموضوع بعضه فوق بعض.كناسي : هو تثنيةكناس وهو البيت الذي يتخذه الوحش في أصل الشجرة وجمعه كنس بضم الكاف والنون وقدكنس الوحش يكنس كنسا و كنوسا أي دخل كناسه . ضالة: من الضال وهو نوع من الشجر هو السدر البري والمفرد ضالة . (يكنفانها) : ينتحيانها أي صارا في ناحيتها والكنف الناحية . الأطر:العطف والائتطار الانعطاف .مؤيد:أي مقوي والتأييد التقوية.( ينظر الديوان ، ص ٣٢ )

فقد أخذ يشبِّهها بكل ما له قيمة عند العربي وغير العربي، فتجده يصفها بقنطرة الرومي وببابيْن عظيميْن وبجناحيْ نسر عظيم، و مدار الحديث القوس التي تشكِّل رمز الحياة والتسلِّي في حياة العربي، ممَّا جعله يشبِّه بها ناقته التي هي حياته كما سبق وبيَّن.

وفي موضع آخر، وصف القوس بالحنية ، حين شبَّه بعيره بالقوس في انحنائها، حيث يقول(١):

**تردُّ عَليَّ الرِّيح ثوْبِي قَاعدًا لدَى صَدفيّ كالحنيَّةِ بارِكُ(٢)**

فالشاعر يبيِّن حالته المأساوية التي عاشها مفارقًا لربعه وجماعته، حين نفروه وطردوه، فأخذ يتسلَّى عنهم بذكر محبوبته وبعيره الذي بات مستنِدًا إليه، والريح تردُّ عليه ثوبه من شدتها، وهو من الهم لا يبالي بذلك.

ومن تشبيه الإبل بالقسيّ، قول النابغة (٣):

**حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لنفسكَ رِيْبَةً وهلْ يَأْثَمَنْ ذوإمَّةٍ وهو طائِعُ**

**بِمُصْطَحِبَاتٍ مِن لَصَافٍ وثَبْرَةٍ يَزُرْنَ إلالاً سَيْرُهُنَّ التَّدَافُعُ**

**سَمَامًا تُبَارِي الرِّيحَ خُوصًا عيونُها لَهُنّ رَذَايا بالطَّرِيقِ ودائِعُ**

**عليهنَّ شُعْثٌ عَامِدُونَ لِحَجّهِمْ فَهُنّ كأطْرَافِ الحَنِيّ خَوَاضِعُ(٤)**

---

(١)"ديوان" طرفة ، ص ٩٦ .

(٢)الصدفي: بعير منسوب إلى صدف ، حي من حضرموت ، ويقال : هو من كندة ، والحنية : القوس ؛ شبه البعير بها لضمره ، ترد عليَّ الريح ثوبي أي : تلقيه لشدتها على وجهي ورأسي وأنا قاعد إلى بعيري وقد استندت إليه.

( ينظر الديوان ، ص ٩٦ )

(٣)"ديوان" النابغة الذبياني ،ت محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، ط ٢ ،ص ٣٥ — ٣٦ .

(٤)الريبة : الشك ، والأمة والإمة : الدين والطريقة المستقيمة ، بمصطحبات: يعني الإبل؛ وإنما أقسم بها لأنها تصحب في السير إلى الحج ، فعظمها لذلك وأقسم بها ، ولصاف وثبرة : موضعان في بلاد تميم، وإلال : جبل عن يمين الحاج إذا وقفت بعرفة ، وسيرهن التدافع : أي هن معيبات فيتحاملن تحاملاً من الجهد والإعياء . ويحتمل أن يريد أنهن يتراجعن في السير ويتدافعن لسرعتهن وشدة سيرهن ، السَّمام : طيور تشبه السُّماني ، شديدة الطيران، شبه الإبل بها في سرعتها ، تباري الريح : أي تعارضها لسرعتها ، خوصاً عيونها : أي غائرة العيون من الجهد والبلاء، الرذايا : الساقطة المعيية التي لا تنبعث ؛ فأخذت رحالها عنه وتركت ، ودائع : قد استودعت الطريق ، أي تركت فيه

إن النابغة في هذه الأبيات -التي جاءت في معرض اعتذاره من النعمان بن المنذر- في قصيدة طويلة، قد بيَّن فيها كذب الوشاة، وأنهم افتروا عليه فرية لم يقلها، ولن يجرؤ على قولها، فبعد اعتذاره وعتبه وذمِّه لمن وشى به، يأتي مثبِتًا صدقه بحلفه حلفًا لا يدع مجالاً للشكِّ، من شخص مستقيم ذا دين وصدق لك، وحلف بالإبل؛ لمكانتها عند العربي وعلوِّ منزلتها، ولأنها تُصحَب في السير إلى الحج، فعظَّمها ، وأقسم بها، وأخذ يصف سرعة هذه الإبل، وأنهن من شدة سيرهن يتدافعن في المسير، ويشبِّهن في سرعتهن طيور السمام مبارية الريح لشدة سرعتها، وغوران عيونها، مع أنَّ هناك إبلاً هزيلة، لا تقدر على المسير قد أخذ ما على ظهرها وأودعت الطريق، وعلى هذه الإبل الضامرة الخاضعة التي تشبه القسيِّ المنحنية؛ لشدة ما أعياها من التعب وجهد السفر رجال شعث متغيِّرون من أثر السفر، وكأن الشاعر يستعطف، والمجال مجال استعطاف، فيقول بأني حلفت ومستعدٌّ للحلف والإتيان إليك مسرعًا على إبل سريعة منهكة؛ من شدة سرعتها، تشبه القسيّ ، وهذا فيه دلالة على قوة هذه الإبل، مع ما واجهته من التعب والإعياء، وكأنه يريد أنْ يبرهن للنعمان شوقه في حزن، وسرعته في خوف وترقُّب من بطش النعمان به وغضبه عليه، ممَّا جعله يحلف، ثم يستفهم، ويكون حلفه بإبل خاضعة حاجة ، عليها أناس أعياهم جهد الطريق.

ومن التشبيهات الجيدة للناقة بالقوس، وصف الشماخ للناقة التي براها الظمأ ودلج الليل، مع شدتها وصلابتها بالقسي التي نحتها وسوَّاها القواس من شجر النبع، فيقول(١):

**كأنَّها وقدْ براها الأخْماسْ ودَلَجُ الليلِ وهادٍ قيّاسْ**

**ومَرِجَ الضَّفرُ و ماجَ الأَحْلاسْ شرائجُ النَّبْعِ بَراها القوَّاسْ (٢)**

---

لإعيائها ، عليهن شعث : أي متغيرون من السفر ،الحني : القسيّ ، خواضع : أي خواشع ذليلة من الجهد .(ينظر الديوان ، ص ٣٥ - ٣٦ )

(١)"ديوان" الشماخ ، ص ٣٩٩ — ٤٠٠.

(٢)براها : أهزلها ، الأخماس : جمع خمس وهو أن ترد الماء يوماً ثم تدعه ثلاثة أيام وترد في اليوم الخامس ، دلج الليل: سير أوله ، الهادي : الدليل ، القيَّاس : الذي يقيس طريقاً بطريق فيأخذ بالأشبه أي الحاذق بالدلالة والهداية ، مرج: قلق، الضفر: نسيج من الشعر عريض يشد به وسط الناقة ، الأحلاس : جمع حلس وهو الكساء الذي يكون تحت =الرحل والقتب يلي الظهر ، وشرائج : جمع شريجة وهو أن يشق القضيب نصفين فتعمل منه القسي وقسي النبع أكرم القسي ،كما ورد في اللسان .( ينظر الديوان ، ص ٣٩٩ - ٤٠٠ )

كأنها: الضمير للمطايا، وإنما أضمر لها من غير أنْ يقدِّم ذكرها؛ استغناءً بالحال التي كان فيها، فقد كانت المساجلة مستمرة. (١)

فالشاعر في هذه الأرجوزة قد صوَّر حالة هذه الناقة تصويرًا دقيقاً وقد أتعبها وأهزلها الأخماس وسير الليل، وقلقت ضفورها، وماجت أحلاسها حتى أصبحت كشرائج النبع التي نحتها القواس وسواها؛ حيث شبَّه الشاعر الناقة بشرائج النبع، وأن ما يبدو هزالاً وضعفاً هو في الحقيقة شدة وقوة ، كما هو الحال في صورة القوس فكلما براها القواس وتفنن في نحتها كان ذلك أقوى لها وأشد ، فالصورة صورة هزال والباطن فيه قوة وشدة .

وهو من خلال سياق الأبيات ، يريد أنْ يدلِّل على كرم أصل هذه الناقة ، وقوة تحملها للمشاق مع هزالها ،وذلك بتشبيهها بتلك القسيِّ النبعية ذات الأصل الثابت القوي -كلما بريت - والمكان العالي المنيف.

ولم يكن العربي ليشبِّه أعزَّ ما يملك؛ وهي الناقة التي تشكِّل الكثير والكثير في حياته كما سبق قوله، إلاَّ بشيءٍ له قيمة ومكانة كذلك عندهم،فالشعراء الجاهليون في أبيات من قصائدهم يشبِّهون نوقهم بشجر القسيِّ التي هي -كما قِيل- أداة تشكِّل الحياة والموت في حياتهم، كما تشكِّلها الناقة التي منها ركوبهم وسكنهم وأكلهم وسلوتهم .

و زهير يتخيَّر قوس الشريان؛ ليشبِّه بها ناقته الضامرة، فيقول(٢):

**تَظَلُّ تَمَطَّى في الزّمامِ كأنَّها إذا بَرَكتْ قَوْسٌ مِنَ الشِّرِيَانِ(٣)**

ففي مطلع هذه القصيدة تحدَّث الشاعر مستفهِمًا عن ظعائن محبوبته ، علَّ صاحبه ينظر إليهم من فوق جبل أبان،لعله ينظر إلى ظعائن تمشي من بعيد، بيض كأنها جمال في عظمتها وقوتها وسرعتها، ثم أخذ يصف حاله وابن أخته ومسيرهما معًا في الظلماء وإجهادهما من طول الطريق، ثم أخذ يصف رواحلهم التي يركبونها وما نالها هي الأخرى من الجهد والتعب، إلاَّ أنها مع ما تعانيه وشدة ضمورها وانحنائها لطول الطريق قوية أصيلة كقوس صُنِعت من

---

(١)هامش الديوان ، ص ٣٩٩ .

(٢)شرح شعر زهير ، لأبي العباس ثعلب، ت د. فخر الدين قباوة، مطبعة الغوثاني، دمشق، ط ٣، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٨م، ص ٢٦٩.

(٣)الشريان : شجر من عضاة الجبال يعمل منه القسي ، واحدته شريانة .(ينظر شرح شعر زهير ، ص ٢٦٩)

شجر جيد، يدعى الشريان، وهي من أنواع شجر القسيّ وأجودها، فناسب أنْ يذكر ذلك، ويشبِّهها به لكرمه وطيب أصله، كما هي راحلته وكما هو مجال القصيد والحديث عن مدح ابن سنان، فناسب أنْ يكون كل ما ذُكِر في صالح الممدوح؛ من إيضاح لكرائم الأمور و معاليها التي يناسبها غرض المديح .

ويتخيَّر عمرو بن شأس الأسدي قسيِّ السراء؛ لتكون وصفًا لإبلهم الضامرة، فيقول(١):

**وأَضحتْ على أَعجازِ عُوجٍ كَأنَّها قسيِّ سراءٍ قُرمتْ لمْ تعطلِ**(٢)

يتحدَّث عمرو في هذه القصيدة ، مفتخرًا بنفسه وقبيلته ، فأخذ يصف حاله وحال إبلهم الضامرة الشديدة – حال ترحالهم عليها – ، و التي تشبه في شدتها وقوتها ونحولها من أثر المسير قسيِّ السراء، ونسبتها إلى قوس السراء التي لم تُستخدَم ؛ دليلاً على طيب أصلها ومنبتها، وأنَّ هذه الإبل الضوامر التي أضحوا عليها بارزة ظاهرة للعيان؛ لضخامتها ، وطيب أصلها، فالضمور يشير إلى الشدة والتحمل والصبر .

وبهذا تتضح قيمة القوس عند العربي، الذي جعلها مقرونة وشبيهة لناقته التي منها ركوبه ومأكله ومسكنه، وهذا إنْ دلَّ، فإنما يدل على قوة الشبه عند العربي بين القوس والناقة، حتى أصبحت في بعض صفاتها ورمزيتها دالةً على ما تدل عليه الناقة، فكان وجه الشبه بينهما واضحًا وجليًا في كثيرٍ من التشبيهات التي وردت فيما سبق ، وذلك في القوة والصلابة والمنزلة .

---

(١)شعر عمرو بن شأس الأسدي ، د . يحيى الجبوري، دار القلم، الكويت ، ط٢ ، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م ، ص ٤٥ .

(٢)أضحت: برزت ، أعجاز : أعجاز الأمور أواخرها، عوج: جمع عوجاء وهي من الإبل الضامرة ، سراء : ضرب من شجر القسي الواحدة منه سراءة. قرمت: قشرت ، تعطل: أي بلا وتر ، ولم يعمل بها .( ينظر الديوان ، ص٤٥).

**المبحث الثالث : القوس والصيد سياقاته ومواقعه :**

عُرِف العرب منذ جاهليتهم بالصيد، وكان وسيلة مهمة من وسائل الحصول على الغذاء ؛ وهو لحم الصيد، فشغف العرب بحب الصيد والقنص، وانهمكوا في تدريب وتقويم حيواناتهم وأدواتهم المستخدمة للصيد؛ من خيل وجمال وصقور وكلاب وفهود وقسيٍّ وأسهم ورماح، وعلَّموا أولادهم هذه المهنة الرياضية الممتعة التي تغرِس في عقولهم وضمائرهم معاني الشجاعة والفروسية وحب المغامرة والاعتماد على النفس، وتعزِّز فيهم روح الصبر والصمود على القتال والنزال، فرياضة الصيد هي دواء وغذاء للأجسام والعقول.

والواقع أنَّ ضرورات الحياة، وحاجات الأفراد، وملء أوقات الفراغ، كانت تدفعهم إلى ممارسة الصيد بكل وسيلة، وتثير فيهم الرغبة في الحصول على الحيوان بأيِّ شكلٍ كان، ممَّا جعل الشعراء الجاهليين وغيرهم يُضفُون على هذه الحرفة أو الهواية، طابع الشكل الأدبي، فيتعرَّضون لوصف أدواتها وحيواناتها، وما يكتنفها من مخاوف وحيل، وما يُستخدَم من وسائل متمثِّلة في الخيول والكلاب والسهام والقسيِّ والرماح، وما يُبتكَر من طرق ووسائل تطيح بالطريدة وتأتي بها.

وسيتطرَّق الباحث لوصف أداة تعتبر من أهم أدوات الصيد قديمًا، حيث عني بها العرب وغير العرب، واستعملوها في صيدهم؛ لسهولة حملها وبُعد مرماها، وقوة إصابتها، وذلك من خلال كوْن هذه القوس موصوفة أو موصوفًا بها ، و لوصف الصياد بعدِّته وتلهفه على فوات الطريدة في هذا المبحث نصيبٌ كبيرٌ –بإذن الله– ممَّا يجعل الباحث يجمع ما ورد حول القوس من خلال رحلة الصيد واهتمام الصياد .

وقد ذكر صاحب نهاية الأرب: "أنَّ أقدم وسائل الصيد وجودًا هي القوس ولإغراقها في القِدَم، روى الرواة أنَّ جبريل –عليه السلام– جاء بها لآدم –عليه السلام– وعلَّمه كيف يرمي بها، ثم توارثها أولاده من بعده"(١) .

وللقوس أثرٌ كبيرٌ في مجال الصيد؛ حيث إنَّ رؤيتها والإشارة بها قد يكون سببًا في إخافة الصيد.

---

(١)نهاية الأرب في فنون العرب ، لشهاب الدين النويري ،ت علي أبو ملحم ، دار الكتب العلمية ، ط١، ج ٦ ، ص ١٩٥.

وفي ذلك يذكر صاحب مجمع الأمثال "زعموا أنَّ بشر بن أبي خازم الأسدي خرج في سنة أسنت فيها قومه وجهدوا، فمرَّ بصوار من البقر وإجل من الأروى فذُعِرت منه، فركبت جبلاً وعرًا ليس له منفذ، فلمَّا نظر إليها، قام على شِعبٍ من الجبل وأخرج قوسه، وجعل يشير إليها كأنه يرميها، فجعلت ترمي نفسها، فتُكسَر، وجعل يقول:

**أنتَ الذّي تصْنعُ مَا لمْ يُصنَعِ　　أنتَ حَططْتَ مِن ذُرَا مُقَنَّعِ**

**كُلُّ شَبوبٍ لهِقٍ مُولَعِ**

وجعل يقول تتابعي بقر، تتابعي بقر حتى تكسَّرت، فخرج إلى قومه، فدعاهم إليها فأصابوا من اللحم ما انتعشوا به"[١].

وممَّا يدعم هذا القول قول الشماخ في ذكر الصائد، حيث يقول[٢]:

**قليلُ التّلادِ غيرَ قوْسٍ وأَسهُمٍ　　كأنَّ الذّي يَرمِي منَ الوَحْشِ تَارِزُ**

أي كأنه يابس قبل أنْ يصيبه السهم.

وهذا إنْ دلَّ فإنما يدلُّ على أهمية هذه الأداة في حياة العربي، فهي تشكِّل مصدرًا من مصادر الحياة، ومقوِّمًا من مقوّماتها.

وهذا المبحث، سيتطرَّق إلى سياقات ذكر القوس من خلال رحلة الصيد، والحديث عن القنَّاص وما يعدُّه لرحلته.

وأول ما يُبدَأ به في هذا المبحث وصف الشماخ بن ضرار لمشهد من مشاهد الصيد الذي من خلاله وصف القوس والسهام، حيث يقول[٣]:

**فأَوْرَدَها ماءً بغَضْوَرَ آجِنًــــا　　لهُ عَرْمَضٌ كالغِسْل فيهِ طُمــومُ**

**بحضرتهِ رامٍ أَعدَّ سَلاجِمًــا　　وبالكفِّ طَوْعُ المركضيْنِ كَتُــومُ**

---

(١)مجمع الأمثال ، للميداني ، ت محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥ م ، ج١ ، ص ١٢٧ .

(٢)ديوان الشماخ ، ص ١٨٣ .

(٣)"ديوان" الشماخ ، ص ٣٠١ – ٣٠٢ .

**فلمّا دَنتْ للماءِ هِيمًا تعّجلتْ    رَباعيّةٌ للهادِيـــاتِ قَــــــدُومُ**

**فدَّلتْ يديْها واستغاثتْ بِبَرْدِهِ    على ظَمأٍ منهــا وفيــهِ جُمــومُ**

**فأهوى بمفتوقِ الغِرارْين مُرْهَفٌ  عليه لُؤَامُ الريشِ فهو قَتُـــــومُ**

**فأَنْفَذَ حِضْنَيْها وجالَ أمامَها    طميلٌ يُفَرِّي الجوْفَ وَهْوَ سليمُ**(١)

جاءت هذه الأبيات في سياق قصيدة وصفية لناقته التي شبَّهها بحمار وحشي نشيط، يقول صلاح الدين الهادي "وفيها يُصَوِّرُ الشاعر إقبال الحمار يحدو أتنه، ويشتد في سوقها مسرِعًا يريد أنْ يصل بها إلى ماء بغضور يعلوه الطحلب، متغيَّر طامي الأرجاء، وظل يعجِّلها ويستحثُّها، ويشتدُّ في سوْقها، حتى أوشك أن يدركه، لقد بلغ العطش بهذه الجماعة مبلغًا عظيمًا، فهاهي ذي أتان متقدِّمة، تصل إلى الماء، فتندفع إليه؛ لتطفئ جمر ظمئها.

وما إن كانت متجهة صوب الماء فإذ بها مع المنية على موعد، فهناك صياد مختفٍ، قد أعدَّ نصالًا مرهفة، في مؤخِّرتها ريشٌ، كساها لونًا مغبرًا، كما أعدَّ قوسًا قوية، شديدة القذف، فما إنْ وضعت هذه الهادية فمها على الماء، حتى أعجلها بواحدٍ من نصاله، اخترق جنبيْها، وشق جوفها، وخرج ملطَّخًا بدمائها، ودار أمامها قبل أنْ يسقط على الأرض سليمًالم يتثلَّم، وتركها تسقط على وجهها، والدماء تسيل من منخريْها متدفِّقة"(٢).

---

(١) غضور: مكان، الآجن: المتغير، العرمض: الطحلب، الغسل: الخطمى، طموم: ارتفاع.بحضرته: عند ذلك الماء، سلاجم: جمع سلجم وهي النصال الطويلة العريضة وطوع المركضين: صفة لمحذوف أي قوس منقادة الجانبين: كتوم: لا تصوت: إذا رمى بها فتنفر الأتن. هيماً: عطاشا: تعجلت: تقدمت والمعنى لما قربت هذه الأتن من الماء سبقتها رباعية إليه. فدلت يديها: أرسلت يديها في الماء، استغاثت ببرده: أرادت أن تطفئ ظمأها من مائه البارد، جموم: كثرة أي أنه ماء بارد كثير.أهوى بمفتوق الغرارين مرهف: أمال سهما حديد الشفرتين إليهما ليرميهما به لؤام الريش: قذذة الملتئمة: وهي التي يلى بطن القذة منها ظهر الأخرى وهي أجود ما يكون، قتوم: لونه يشبه القتام وهو الغبار بسبب ما عليه من الريش.حضنيها: تثنية حضن وهو ما ورد من الإبط إلى الكشح، جال أمامها: يعنى السهم: والطميل: الملطخ بالدماء ويفرى الجوف: يمزقه. ( ينظر الديوان ، ص ٣٠١ – ٣٠٢ )

(٢) الشماخ بن ضرار حياته وشعره ، صلاح الدين الهادي ، دار المعارف بمصر ، مكتبة الدراسات الأدبية ط١ ، ١٩٦٧ م ، ص١٧٧ .

ومن خلال الصراع القائم من أجل الحياة والماء والأمن والاستقرار الذي ينشده كل أحد، وتلك غاية الشاعر، والتي لا تختلف عن غاية الحيوان الوحشي فالكلُّ يبحث عن الحياة، والكلُّ يتجنَّب الموت الذي يعترِض طريقه؛ فإمَّا ناجٍ أو هالك وكأن الشاعر يحكي حاله وبحثه عن الحياة والأمن والاستقرار .

وهو في هذه الأبيات يحاكي واقعه وما يعيشه ، وهو بوصفه هذا يجسد جدلية الحياة والموت ، فالقوس هنا رمز للموت الذي يصيب كل الناس لا يخطئ أحداً .

وورود وصف القوس والسهام في هذه الأبيات ، جاء بعد رحلة شاقة عطشى لهذا الحمار وأتنه، ممَّا جعل الشاعر يحكي عطش الصياد لصيد هذه الحمر وإرواء سهمه من دمائها، فكأن عطش الحمار وأتنه، وشوقها للماء وتربُّص قائدها لخلو المكان، ذلك الصائد الذي هو بمثابة القائد لهذه الأتن الذي تعطَّشت قوسه ، وهي الهادية ،والسهام للأتن عامة.

وصور الشاعر السهام ، ولم يصرّح بها، فهي سلاجم طوال عريضة، وحذف الموصوف هنا؛ لدلالة الصفة عليه من خلال السياق ومدحًا وافتخارًا بهذه السهام الطويلة العريضة المحدَّدة الجيدة الصنع، ونكَّرها تفخيمًا وتعظيمًا وتكثيرًا لها وبيده قوسٌ طيِّعة كتوم صوتها؛ كي لا يحس به الصيد، وكتوم على وزن فعول، صيغة مبالغة فهي شديدة الكتمان ،

و عبَّر بالصفة، وحذف الموصوف وهذا أبلغ ؛ لأنَّ في ذلك إشارة ومدح لها بأنها مطيعة في يد صاحبها، حيثما يوجِّهها تتَّجه، ولاختصاص هذا الوصف بها، دلَّ على ذلك السياق، من خلال ذكر السهام والصيد.

وقد شخَّص هذه القوس، وأضفى عليها صفة العاقل وهي الكتمان، وقدَّم الجار والمجرور بالكف، وهو المسند على المسند إليه، طوع المركضين؛ للتشويق والإثارة وتقوية الموقف وتقريره، وعبَّر بالباء؛ لشدة ملازمتها وملاصقتها لكفِّه، فهي بمثابة الملازم الدائم في مثل هذه الأحوال والمواقف.

وعطف بالفاء، وعبِّر بالماضي، وهذا له دلالته في الشعر؛ فعطفه بالفاء ( فأورد ، فلمَّا ، فدلَّت ، فأهوى ، فأنفذ ) يوحِي بالترتيب الزمني مع التعقيب والتسبيب، وهو بعطفه

بالفاء هنا يختصر؛ فالوقت يداهمه، ويوحِي بشدة تلهُّفه وشوقه واستعجاله الفريسة قبل ضياع الفرصة عليه، فالمجال ليس مجال إسهاب وتطويل.

وفي تعبيره بالماضي دلالة على الثبوت والدوام والمراقبة الدائمة الثابتة المستقرة والمستكنة في مكان معين، وهو المكان الذي يختبئ فيه الصائد مجهّزًا لعدته، مراقبًا لطريدته عن كثب، ثم يعود الشاعر لذكر صفة من صفات سهمه المفتوق، فهو سهم حديد مرهف نافذ، عليه ريش غبر به، فجعله مغبَّرًا، وهذا أنكى بالصيد وأفتك، وعبَّر بالفعل أهوى مبالغة في سرعته، وكأنه هوى من علو، وهو أشد ما يكون سرعة.

و في وصفه بالرهافة والغبرة إخفاء له من الفرسية ؛ كي لا يسهل عليها رؤيته والتنبُّؤ به، فهو بلا صوت دقيق مغبر، فأنَّى لها أنْ تراه أو تسمعه، ووصف السهم بأربع صفات في هذا ؛ لأنَّ فيه قوة نافذة جعلته يتحمل كل هذه الصفات، مع ما سبق في الأبيات، مذكِّرًا بصفات أخرى له .

ويتَّضح من ألفاظ الشماخ ومعجمه – وكما هي عادته في شعره– الكزازة و الغرابة والإيحاء بالقوة ، طالِع قوله ( غضور ، عرمض ، طموم ، جموم ، قتوم ، طميل ) .

إنَّ هذه الصفات لقوسه وأسهمه تعدُّ تكرارًا مفيدًا، يوحي أيضًا بأهميتها ومكانتها من نفسه، وفخره بذلك ؛ لما ستوليه من نفاذ في الرمية وإسعاد للرامي .

ويطلُّ أوس واصفًا مشهد صائد يراقب الحمر عن كثب، يبيت قريبًا من مواطنها باريًا لأسهمه استعدادًا لانطلاقها على تلك البقر، فيقول[١]:

**أخُو قُتُرَاتٍ قَدْ تَيَقَّنَ أنّهُ ... إذا لم يُصِبْ لَحْمًا مِنَ الوَحشِ خَاسِفُ**

**مُعَاوِدُ قَتْلِ الهاديات شِوَاؤُهُ ... مِنَ اللّحم قُصْرَى بادِنٍ وَطفاطِفُ**

**قَصِيٌّ مَبِيتِ الليلِ للصَّيدِ مُطْعَمٌ ... لأَسْهُمِهِ غارٍ وبارٍ وراصِفُ**

**فَيَسَّرَ سَهْمًا رَاشَهُ بِمَناكِبٍ ... ظُهَارٍ لُؤامٍ فَهْوَ أعْجَفُ شارِفُ**

**على ضَالَةٍ فَرْعٍ كأنَّ نذيرَها ... إذا لَمْ تُخَفِّضْهُ عن الوحشِ عَازِفُ**

---

(١)"ديوان" أوس بن حجر ، ص ٧٠ – ٧١ – ٧٢ .

فأمهلَهُ حتّى إذا أنْ كأنَّهُ مُعَاطي يَدٍ مِن جَمَّةِ الماءِ غَارِفُ
فَأَرْسَلَهُ مُسْتَيْقِنَ الظّنّ أنّهُ مُخالطُ ما تحتَ الشَّراسِيفِ جَائِفُ
فَمَرَّ النَّضِيُّ للذِّرَاعِ ونَحْرِهِ وللحَينِ أحيانًا عنِ النَّفسِ صَارِفُ
فَعَضَّ بإبهامِ اليمينِ نَدَامَةً وَلَهَّفَ سِرًّا أُمَّهُ وهوَ لاهِفُ (١)

لقد أبان أوس في القصيدة عن حاله ووصفه لديار محبوبته واندراسها، ثم سُلُوِّه على ناقته التي أسهب في وصفها وتشبيهها بحمار الوحش في قوته، ثم انتقل إلى ذكر الحمار وأتنه، وحال الصائد المترقِّب لها، وكأن الشماخ استقى جلَّ أفكار قصيدته السابقة من قصيدة أوس هذه، حيث إنَّ أكثر ما ورد عند الشماخ وُجِد في هذه القصيدة ، وقد سبق البحث إلى أنَّ الشماخ استفاد من معجم أوس في كثير من قصائده، وهو ما تبين في مبحث القوس والإنسان .

فهذا الصائد صاحب فخاخ للصيد، قد تيقَّن أنه إذا لم يُصِبْ اليوم شيئًا من الصيد فهو لا محالة هالك، وهو يشتهي أكل القنيص بعد شوائه ، بل يشتهي أكل أطرافه، وما يلي كشحه، وهو ديدن له، كما بيَّنه الشاعر في قوله :

مُعَاوِدُ قَتْلِ الهاديات شِوَاؤُهُ مِنَ اللّحم قُصْرَى بادِنٍ وَطفاطِفُ(١)

(١)القترات : جمع قترة وهو بيت الصائد ، خاسف : مهزول وجائع .الهاديات : السابقات من الأتن أو من الوحش عامة ، القصرى :ما يلي الكشح وهي أسفل الأضلاع ، رخصة لينة ، الطفاطف : جمع طفطفة وهو اللحم الرخص من مراق البطن أو هي أطراف الأضلاع .قصي مبيت الليل : يقول لايبيت مع أهله إنما يبيت مع الوحش ، غار : أي غراه يغروه إذا طلاه بالغراء ، والرصفة : ما يشد على صدر السهم .المناكب : أربع ريشات يكن على طرف المنكب .، واللؤام : القذذ الملتئمة من الريش فيكون بطن قذة إلى ظهر أخرى ، والظهار ما جعل من ظهر الريشة ، أعجف : رقيق هزيل ، والشاسف: اليابس ، وفي اللسان شرف : سهم شارف بعيد العهد بالصيانة ، وقيل هو الذي انتكث ريشه وعقبه ، و قيل هو الدقيق الطويل .الضال : السدر تعمل منه السهام والقسي ، والضالة هنا القوس ، نذيرها : صوتها ، عازف : مصوت ذو عزيف .حتى إذا أن كأنه : أي بلغ الحمار هذا الوقت ، والمعاطي : المناول .جائف : يصير السهم إلى الجوف حتى تصير الرمية جيفة جائفة ، والشراسيف أطراف الأضلاع الرخصة من أطراف الصدر المشرفة .النضي : اسم للقدح نفسه إذا لم يرش ولم يجعل له نصل ، والحتف : المنية ، فمر بذراعه ونحره ولم يصبه وعض بإبهامه : كذا يفعل من فاته شيء يريده ، ولهف : أي قال : يالهف أماه . ( ينظر الديوان ، ص ٧٠ – ٧١ – ٧٢ )

فهو يبيت دائمًا بعيدًا عن منازل الحي منتظرًا الصيد ، و أثناء ذلك يعدُّ أسهمه حتى إذا ما لاح ذلك العير، أمهله حتى يقترب من موارد المياه ليشرب، في هذه اللحظة يتأهَّب الصائد ليرمي بسهمه، وهو على يقين بأنه سيصيبه، لكن السهم خانه، ولم يُصِب هدفه ، فجعل يتبرَّم ويتلهف عاضًا إبهامه الأيمن ؛ لأنَّ القوس في يده اليسرى ؛ وذلك حسرةً على ضياع صيده و لكي لا يُسمعَ صوته من بقية الوحوش فتنفر.

وكما ذُكِر، فالتوافق وارد بين القصيدتيْن في بعض الأفكار والألفاظ؛ ومن ذلك تكرار حرف الفاء والتعبير بالماضي، إلاَّ أنَّ صائد الشماخ أصاب ، وصائد أوس أضاع، فتلهف؛ وذلك لحالة الضعف والعناء الذي يعيشه .

إن السياق الذي وردت فيه الأبيات موحٍ بإضاعة الفريسة وعدم الحصول عليها، كما هو حال الشاعر الذي دار وجال في ديار محبوبته ، فلم يحالفه الحظ بأنْ يلقاها فأصبح حائرًا متلهِّفًا مهزول الحال هو وراحلته، كحال الصائد الذي ضاعت منه فريسته التي هو في ترقبٍ لها وتشوُّقٍ لصيدها ؛ والسبب كلٌّ الحالة النفسية السيئة التي بيَّنها السياق .

ويأتي البحث على الأوصاف التي وردت للقوس والسهم عند أوس، وما اتَّسمت به، فمن خلال استقراء الأبيات اتَّضح التمهُّل والتؤدة حال الوصف عند أوس، والاكتفاء أحيانًا بالموصوف، ثم يتلوه بالصفات، فهو يقول: لأسهمه، سهمًا، فنجد أسلوب المباشرة ظاهر عنده، ولعل المقام يستدعي- كما ذُكِر ذلك – التمهُّل والسير ببطء على راحلته الهزيلة، يصارع خلجات نفسه الحزينة، وقوله على ضالة عبَّر بالصفة هنا للقوس، فيه دلالة على ضعفها ، وذلك بضعف سهامه الدقيقة اليابسة القديمة، وكأنها ناقته التي أعياها التعب والهزال، حتى أخذت تضل الطريق، وتسير يمنةً ويسرةً، ممَّا جعلها تخطئ طريقها.

---

(١) ديوان أوس ص ٧٠ .

وألفاظ أوس تتَّسم بالسهولة وعدم الغرابة والإيحاء بالتمهُّل والترسُّل ، والسياق وأسلوب الشاعر أظهر ذلك جليًّا في أوصافه للقوس والسهم في هذه الأبيات، ومن خلال القصيدة .

ومن وصف آخر للقوس والسهام، استقى كعب بن زهير معانيه من قصيدة أوس السابقة ، مصوِّرًا حال الصائد، واستتاره من بقر الوحش، فيقول(١):

**أَخُو قُتُرَاتٍ لا يَزَالُ كأنَّهُ إذا لم يُصِبْ صَيْدًا مِن الوَحْشِ غارِمُ**

**يُقَلِّبُ حَشْرَاتٍ وَيُخْتَارُ نَابِلٌ مِن الرِّيشِ مــا التَفَّتْ عليــه القَوَادِمُ**

**صَدَرْنَ رِوَاءً عن أسِنَّةِ صُلَّبٍ يَقِئْنَ ويَقْطُرْنَ السِّمَامَ سَـــلاَجِمُ**

**وَصَفْرَاءَ شَكَّتْهَا الأَسِرَّةُ عُودُها على الطَلِّ والأَنْدَاءِ أَحْمَرُ كَـــاتِمُ**

**إذا أُطِرَ المَرْبُوعُ منها تَرَنَّمَتْ كما أَرْزَمَتْ بَكْرٌ على البَوِّ رَائِـــمُ**

**فَأَوْرَدَهَا في عُكْوَةِ اللَّيلِ جَوْشَنًا لأكْفالِها حتّى أتَى المــــاءَ لازِمُ**

**فَلَمَّا أَرَادَ الصَّوتَ يومًا وَأَشْرَعَتْ زَوَى سَهْمَهُ عَاوٍ مِن الجِنِّ صَـــارِمُ**

**فَمَرَّ على مُلْسِ النَّواشِزِ قَلَّمَا تُثَبِّطُهُنَّ بالخَبَارِ الجَرَاثِـــمُ**

**وَمَرَّ بأَكْنَافِ اليَدَيْنَ نَضِيُّهُ ولِلْحَتْفِ أَحيانًا عن النَّفْسِ عَاجِـــمُ**

**يَعُضُّ بإبْهامِ اليَدَيْنِ تَنَدُّمًا ولَهَّفَ سِرًّا أُمَّهُ وهو نَـــادِمُ**

**وقال ألا في خَيْبَةٍ أنتِ مِن يدٍ وَجَذَّ بذي إثْرٍ بَنَانَكِ جَــاذِمُ**

**وأصْبَحَ يَبْغِي نَصْلَه ونَضِيَّهُ فَرِيقَيْنِ شَتَّى وهو أَسْفَانُ وَاجِمُ**(٢)

---

(١) ديوان كعب بن زهير ، أبو سعيد السكري ، شرح ودراسة مفيد قميحة ، دار الشواف ، ط١ ، ١٤١٠ هـ – ١٩٨٩ م ،ص ١٤٤، ١٤٥.

(٢)القترات: واحدتها قترة وهي مكمن الصائد الذي يكمن فيه ويستتر للصيد ، والغارم : الذي أصابه غرمٌ فهو حزين . يقلب : يتفحص ، حشرات سهام ملصقات القذذ ، القذذ : هي ريش لسهام واحدتها قذة ، النابل : الحاذق الذي يعمل النبل ، القوادم : جمع قادمة وهي ريشات في مقدم الجناح . صدرن : من الصدور وهو الارتداد من الماء بعد الارتواء منه ، ورواءً : أي مرتويات من الشراب ، ويعني برواء : شحذه النصال ، والصلب : حجارة المسن، =يقئن

وهذه الأبيات جاء في سياق وصف الشاعر للصحراء وحرارتها وللظباء المتأثِّرة بهذا الحر ،وسير الشاعر في هذه الصحراء على ظهر طرق عبَّدتها أرجل الراحلين من أناس وبهائم فوق ناقة كريمة عتيقة، ثم أخذ يصف الناقة التي هو عليها، ثم تحوَّل إلى ذكر حمر الوحش، وتتبع ذلك الصائد المختبئ لها، ينتظر ورودها الماء؛ لكي يتسنى له قنصها، معتدٌّ بعُدَّةِ الصيد، مقلِّباً بين يديه أسهماً جيدة وقوساً صفراء عتيقة العود، ليس لها صوت ينبِّه الصيد فهي كاتمة للصوت، وكأن الشاعر بوصفه هذا بإزاء قوس أوس، سائراً على منهاجه في الوصف، مستعيراً تعبيراته، وبعد ذلك ترِد الفريسة الماء، فيرميها الصائد بسهم كسهم صائد أوس، فيخطئ هدفه، فيرمي قوسه وسهامه و يعض إبهامه، ويلهف أمه سرّاً كما لهف صاحب أوس فصورة الندم عندهم واحدة .

ووصف السهام والقوس عند كعب، وإن كان فيه تأثرٌ بأوس، إلاَّ أنَّ هناك فوارق تبدو من خلال سياق أبيات القصيدة، فيظهر بدايةً أنَّ الشاعريْن من خلال ذكر أبياتهم السابقة وابتدائهم بصائدين، استوحوا منهم عدم إصابة الهدف، ولم يكن عندهم جزم بإصابة الفريسة –كما وُجِد عند الشماخ– الذي لم يوحِ بأيِّ شيءٍ يدلُّ على إخفاقه وعدم إصابته،

---

من القي، والسمام: السم القاتل ، السلاجم الطوال . الصفراء : القوس ، وشكتها : دخلتها ، الأسرة : خطوط، وإذا كانت القوس ذات أسرة كان أحسن لعودها وأعتق لها ، كاتم : ليس فيه صدع من طرفها الآخر، وقيل الكاتم التي لا تصوت، فإذا صوتت كن أذم لها في مجال الصيد . أطر : عطف ، المربوع : وتر من أربع طاقات، ترنمت :صوتت، أرزمت: من الإرزام وهو حنين الناقة ،والبوّ: جلديحشى تبنّاثم يعلق عند عضد الناقة ،فإذا رأته سكنت، ورائم : عاطف،شبه صوت الوتر بصوت الناقة العاطف على البوّ. أوردها : جعلها ترد الماء ، وعكوة الليل: معظمه ، وجوشناً يقال: جوشن الليل : وسطه وصدره ، والأكفال : جمع كفل وهو مؤخر الدابة ، ولازم : أي ملازم لها . الصوت : من صات يصيت بمعنى نادى ، وأشرعت : أي مدت أيديها ودخلت في الشريعة أي مورد الماء فصفت قوائمها لتشرب، زوى سهمه : عدله عنها ، الحارم : الذي حرمه السهم . مرّ : يعني السهم ، الملس : التي ليس بها داء ، النواشر عروق باطن الذراع ، تثبطهن : تعوقهن .، الخبار : الأرض اللينة ، الجراثم : تراب يجتمع ويتكون في أصول الشجر. ومرّ : السهم ، الأكناف : جمع كنف وهو الجانب والناحية ، النضيّ : من السهم ما بين الريش والنصل ، والحتف: الموت والهلاك ، العاجم : هنا بمعنى العاصم والمانع . لهف : قال والهفتاه أي استغاث. جذّ : قطع ، وذو الأثر: حد السيف ، الجاذم : القاطع . النصل : حد السهم والسيف والرمح والسكين، النضيّ : القدح بغير نصل أو ما بين الريش والنصل ، وقوله فريقين شتى : يريد أن النصل خرج فصار على حدة وصار الفوق على حدة ، أسفان : غضبان ، واجم :حزين مطرق. ( ينظر الديوان ، ص ١٤٤، ١٤٥ )

ممَّا ولَّد عنده العزيمة الصادقة في إصابة الهدف وتحقيقه والعزم على ذلك؛ حتى تسنَّى له ما أراد، فأفلح سهم صياده، وأخفق سهم صياد كلٍّ من أوس وكعب ، فوجد عند أوس أنه إذا لم يُصِب من الوحش، فهو خاسف؛ أي جائع مهزول ، فلم يكن متفائلاً، وكعب يقول: إذا لم يُصِب صيدًا من الوحش مديون يطلب، وقد علاه الأسف والحزن، لكن صيّاد كعب وإنْ كان غير متفائل، إلاَّ أنه يحاول أنْ يمنِّي نفسه ويبعث فيها شيئًا من الأمل – ولكنه أمل مَن يطلب السراب، كما ذُكِر في أول أبيات القصيدة – بتقليبه المستمر.

وفي تعبير الشاعر بالمضارع يقلب، ما يدل على استمرار هذا الصياد في تفقد سهامه –حشرات – ، التي عبَّر عنها بالتنكير، ليدلَّ على كثرتها وعظمتها، وقد اختارها من حاذق مختصٍ في إصلاحها، وأمعن في وصفها بأنها مرتوية من شحذه لها، مبيِّنًا صلابتها، وأنها تقيء وتقطر سمًّا زعافًا، وفي وصل الشاعر هنا بين الجملتيْن الفعليتيْن: يقئن ويقطرن ما يدل على اشتراكهما في الحكم واتفاقهما في المعنى، فالتقيُّؤ والقطر يخرجان ببطء، وهو مناسب للسم، فالسم لا يخرج إلاَّ تقيُّؤًا أو تقطُّرًا ، والقيء والقطران متعلقان بكائن حيواني ( الأفعى الحية ) ، استعارة هذين الصفتين وإسنادهما للسهام حولتهما إلى كائن أسطوري ، وهذا إبداع من الشاعر في التصوير، ووصفها بالطول بقوله: سلاجم وكل هذه الصفات المتتالية لهذه السهام، تدل على عظيم أهميتها ونفاذ قدرتها في إهلاك الصيد وغيره .

ويأتي الشاعر على وصف الأداة القاذفة لتلك السهام، معبِّرًا عنها بالصفة في قوله وصفراء، وقد حذف الموصوف القوس، لاختصاص هذا الوصف بها وخاصة في هذا السياق الذي يتحدَّث عن السهام والصيد، ثم أخذ يصفها بأنها ذات خطوط قوية عتيقة، و على ما يأتيها من الطلل والندى إلاَّ أنَّ عودها من شدة صفاره يميل لشيء من الحمرة ، وقوسه حال انطلاق سهمها كاتمة للصوت، وذلك أجود لها حال الصيد ، كما سبق وذُكِر في قوس الشماخ، وقوس أوس.

ومن البلاغة في هذ البيت فصل الشاعر بين صفراء شكَّتها الأسرة وعودها، فلم يصل بينهما بالواو؛ لكمال الاتصال بين الجملتيْن، فكلاهما عود، ففصل للتأكيد المعنوي بينهما، فاتِّحاد الجملتيْن التام منع الشاعر من الوصل.

وقد عبَّر الشاعر بعد البيت السابق بأداة الشرط إذا، وهذا محفِّز آخر لتعبيره بأداة تدلُّ على تحقُّق وقوع هذا الصوت الصادر من القوس، حال عطفها وظهور صوت أوتارها مبالَغةً في حسن صنعها وإجادته، وشبَّه ذلك الصوت بصوت الناقة التي مات وليدها، ثم سلخ وحشي تبنًا، فهي تحنُّ عليه، وتسكن حال رؤيته، فحالها كحال هذه القوس تصوِّت حال ابتعاد وترها عنها، ثم تسكنُ بملاصقتها له، كما لاصقت الناقة بَوّهَا، فتهدأ.

وفي قوله: فمرَّ على ملس النواشز، يُقصَد به السهم، حذف المسند إليه الفاعل؛ لقرب العهد به، ويأتي بنفس الفعل في البيت الذي يليه موصولاً بالواو والعطف هنا دلالة على الاشتراك في اللفظ والمعنى ، و على صلة الحديث عن محذوف معين من خلال السياق؛ وهو السهم، وأتى بالجار والمجرور قبل الفاعل في الحقيقة الذي هو النضي؛ أي عناية واهتمامًا بها .

وممَّا اشترك فيه الشاعر كعب مع أوس في الألفاظ قوله: قترات ، النضيّ ، أمه ، الندم والفعل مرّ ، عض ، لهّف .

وفي موضع آخر من شعر كعب بن زهير يتَّضح اشتغاله بمعاني أوس والشماخ في قصيدة طويلة يصف فيها خلوَّ دار حبيبته وبكاءه على الأطلال التي أخفت معالمها الريح، ثم بعد هذا المشهد الذي أثَّر فيه، يزجر ناقته؛ لتسلّيه عمَّا رأى، وتخفِّف من حدَّة حزنه على محبوبته، ثم شرع في وصف ناقته، وتشبيهها بحمار الوحش في قوتها وصلابتها، كما هي عادة شعراء ذلك العصر، ثم تحدَّث عن صائد قد أعدَّ قسيّه، ورمى بها، فأخطأ هدفه، و لم يصب، فأخذ يتلهَّف ويتحسَّر، وفرَّت الحمر من بين يديْه، فيقول[1]:

**فأَمْسَـــــك ينظرُ حتّــى إذا**     **دَنَوْنَ من الرِّيِّ أو قــد رَوِينَا**

**تَنَحَّى بصَفْـرَاءَ مــــن نَبْعةٍ**     **على الكفِ تجمـع أرزا ولينا**

**معدًّا علـــى عجْسها مرهفاً**     **فَتِيقَ الغِرَارَيْنِ حَشْـــراً سَنِينَا**

**فارســل سهمــاً على فقرةٍ**     **وهُنَّ شَــوَارِعُ مـــا يَتَّقِينَـــا**

---

(١)"ديوان "كعب بن زهير ، ص ١٥٤ – ١٥٥ .

فمَرَّ علــى نَحْرِهِ والــذِّرَاعِ ولم يكُ ذاكَ له الفعلُ دينــا

فلهّف مــن حسْـــرةٍ أمَّــهُ وولَّيْنَ من رهـــجٍ يكتسينا(١)

والوصف الوارد في هذه الأبيات للقوس والسهام ما هو إلاَّ معانٍ مرَّت وتكرَّرت ولكن تختلف في تركيبها ووضعها من شاعر لآخر.

فالشاعر في البيت الثاني يحذف الموصوف القوس، ويعبِّر بالصفة صفراء؛ مبالغة في جودها؛ لأنَّ أجود القسي توصف بالصفار، وخاصة إذا كانت من النبع الذي هو أجود أشجاره، ولا ينبت إلاَّ في قلل الجبال وتجمع بين الصلابة واللين، وكل هذه الصفات توحي بقوتها وحسن صناعتها والاعتناء بها .

وفي تنكيره للنبعة دلالة على تعظيمها وتمييزها، وهنا احتراس في قوله : على الكفِّ، فهي أي القوس تجمع بين الصلابة واللين حال كونها في يد الصائد، ولكنها في الفريسة صلبة نافذة مهلكة، ولكل حرف جر ورد في البيت دلالته، فنجده يقول: بصفراء فالباء تدل على الملاصقة والملازمة والتلبُّس، ومن نبعة أي جزء من شجرة النبع جيدة وعلى الكفِّ تفيد التمكُّن فهو متمكِّن منها.

وفي البيت الذي يليه تجد التنكير ظاهرًا في أغلب ألفاظ البيت، ففي قوله: معدًا حال للصائد نكرة ومرهفًا وحشرًا وسنينًا صفات للسهم نكرات، وتنكيرها يدل على التعظيم والتفخيم لهذا السهم، ويتَّضح تكرُّر حرف الجر على في الأبيات مثل: على الكفِّ، على عجسها، على فقرة، على نحره، ممَّا يدل على التمكُّن والاستعلاء والثقة بالنفس عند الشاعر.

ومن الألفاظ المشتركة بين الشاعر كعب والشماخ في القصيدتين: مرهف، مفتوق الغرارين.

---

(١)أمسك : توقف عن الرمي ، يعني الصياد ، ودنون : قاربن ، وروين : أي شربن حتى ثقلن من الري. تنحى :وتروى " تأيّا " وقوله تنحى : أي تحرف له كي يرميه ، والصفراء : القوس ، والنبعة : القوس من شجر النبع وأغصان ذلك الشجر تتخذ سهاماً يرمى بها لصلابتها ، والأرز: الصلابة. العجس : المقبض ، المرهف : الحاد المسنون ، وفتيق الغرارين : أي واسعهما ، والغرار : الحد ، والحشر : اللطيف القد أيضًا ، والسنين : أي المسنون المرهف .أرسل : رمى ، وعلى فقرة ، على إمكان ، يقال : قد أفقرك الصيد وقد أكثبك فارمه ، وشوارع : أي قد شرعت في الماء ودنت من لتشرب أو تتبرد ، ويتقين : يحذرن يتوقين . مرَّ على نحره والذراع : أي أخطأ الصياد الرمي ، والدين : العادة. لهّف : قال : وا لهفتاه ،أي استغاث ، وولين : هربن ، والرهج : الغبارة.( ينظر الديوان ، ص ١٥٤ — ١٥٥ )

وما بينه وبين أوس: التلهُّف، ، الذراع ، النحر ، والفعل مرّ و أرسل .

ومن قصيدة له أخرى طويلة، يصف القوس والسهام فيها من خلال حديثه عن الصائد، وذلك في آخر القصيدة[1]:

**ثَاوِيًا مَاثِلاً يُقَلِّبُ زُرْقًا رَمَّها القَيْنُ بالعُيــونِ حُشُورَا**

**شَرِقَاتٍ بالسُمِّ مَن صُلَّبِيٍّ وَرَكُوضًا مِن السَّــرَاءِ طَحُورَا**

**ذاتَ حِنْوٍ مَلْسَاءَ تَسْمَعُ مِنْها تَحْتَ ما تَنبِضُ الشِّمالُ زَفِيرَا**[2]

فالشاعر يصف سهامه باللون الأزرق، ونكَّرها بياناً لعظمتها وقوتها، وقد حذف المسند إليه الفاعل؛ لقرب الدلالة عليه ولضيق المقام، والمعاني التي أضيفت على القوس والسهم وردت في سياق الموت فدلالتها كلها على هذا المعنى ، فشرقات بالسم تأخذ صورة الحية والأفعى . و قد أخذ تعبيره عن سهامه باللون الأزرق قول امرئ القيس، حيث يقول[3]:

**أَيَقْتُلُني وَالمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأنيـابِ أَغْوَالِ**[4]

---

(١) "ديوان" كعب بن زهير ، ص ٧٤ .

(٢)ثاوياً : مقيماً ينتظر مرور الصيد ، المائل : اللطئ بالأرض يتربص الفريسة ، والزرق : النصال أو السهام ، ورمّها : أصلحها وثقّفها ، القين : الحداد ، والحشر : الملصق القذذ وهو ريش السهم ، بالعيون : أي ينظرون إليها نصالاً زرقاً صافية قد جليت .شرقات بالسّم : أي كثر السم فيها فهي نصال قاتلة ، الصلبي : حجارة المسن يسن عليها ، الركوض : القوس ، السراء ك شجر تتخذ منه القسيّ ، الطحور : التي تقذف السهم إلى مكان بعيد . الحنو: الجانب ، وذات حنو : هي القوس ، والملساء التي لا أبن فيها ، والأبن : جمع أبنة وهو العقدة في العود أو العصا، والأبنة : العيب ، وتنبض : لعلها تقبض ، والشمال : اليد الشمال ، والزفير : أنين القوس من موضع الكبد أي الوسط.( ينظر الديوان ، ص ٧٤ )

(٣)"ديوان" امرئ القيس ، ص ٣٣ .

(٤)المشرفي : سيف نسب إلى قرى الشام ، يقال لها المشارف ، وأراد بالمسنونة الزرق : سهاماً محددة الأزجة صافية ، الأغوال : الشياطين .( ينظر الديوان ، ص ٣٣ )

وكما أنَّ كعب أخذ من امرئ القيس سهامه، فقد أخذ من الشماخ قوسه في قوله ركوضًا، حين قال[١]:

**بحضـــــرتهِ رامٍ أَعدَّ سَلاجِمًا وبالكـــفِّ طَوْعُ المركضيْنِ كَتُـــومُ**

ويأتي كعب بوصف آخر للقوس، بأنها منحنية الجانبيْن، ملساء ليس فيها أيُّ نتوء أو بروز أو عقدة، تقلِّل من حسنها وقوتها وتماسُكها، ويظهر أنَّ الشاعر استفادها من والده زهير قوله[٢]:

**مَلْسَاءُ مُحْدَلَةٌ كأَنَّ عَتَادَها نَوَّاحةٌ نَعَتِ الكِرامَ مُشَبِّبُ** [٣]

وهذا ليس غريبًا في ذلك الزمن وما بعده؛ أنْ تجد من الشعراء مَن يُكرِّر ويقتبس من شعر غيره ما يوافق مبنى قصيدته، وقد قال ذلك كعب بنفسه في بيت شعري من قصيدة له، حيث يقول [٤]:

**ما أَرَانَا نَقُولُ إِلاَّ رَجِيعًـا ومُعَـــــادًا مِن قَوْلِنَا مَـكْرُورَا**

وممَّن وصف القوس والسهم امرؤ القيس بن حجر، في قصيدة يتحدَّث فيها عن رامٍ من بني ثعل، فيصفها بأنها زوراء من نشم وسهم رهيش، فيقول[٥]:

**ربَّ رامٍ مـــــن بــــني ثعــــلٍ مُــتْلِجٍ كفَّيــهِ فـــــي قُـــتَرِهْ**
**عَـــــارِضٍ زَوْرَاءَ مِـــــن نَشَـــم غَـــيْرِ باناةٍ علــــى وَتَـــــرِهْ**
**قـــد أتتْــــهُ الـــوحشُ واردةً فَتَنَحَّــــى النَّـــزْعَ في يَسَــــرِهْ**
**فرماهــــــا في فَرَائِصِـــــــها بإزاءِ الحَــــــوْضِ أوْ عُقُــــــرِهْ**
**بِـــــرَهِيْشٍ مِـــــن كِنَانَتِـــــهِ كَتَلَظِّـــــي الجمْـــــرِ في شَـــــرَرِهْ**

---

(١)"ديوان" الشماخ ، ص ٣٠٢ .

(٢)شرح شعر زهير ، ص ٢٧٨ .

(٣)ملساء: التي لا تشقُّق فيها ولا نتوء، المحدلة: التي أعلاها أوسع من أسفلها، فيها ميل، العتاد: العداد، وهو صوت وتر القوس إذا رمي عليها، نعت الكرام: أخبرت بموتهم وبكتهم، المشبب: النائحة تشبب الحزن وتورثه.( ينظر شرح شعر زهير ، ص ٢٧٨ )

(٤)"ديوان" كعب بن زهير ، ص ٦٦.

(٥)"ديوان" امرئ القيس ، ١٢٤ – ١٢٥ .

**رَاشَــــهُ مِــــن رِيــــشِ ناهضــــةٍ      ثُمَّ أمْهَــــاهُ عَلَــــى حَجَــــرِهْ**[1]

يتحدَّث امرؤ القيس عن رجلٍ من بني ثعل، يدخل كفيْه في بيت له، يراقب الصيد إذا ورد على الماء، ومعه قوس مائلة الجوانب زوراء من شجر النشم، غير بائنة عن الوتر فوترها ملتصق بها، وهو ممَّا يؤذي القانص، إلاَّ أنها ستكون أشدَّ ما تكون قذفًا للسهم ، وقد تواردت حمر الوحش على الماء، فتنحَّى جانبًا كي لا تراه، فرماها في فرائصها، وهذا الموضع لا يُتقِنه إلاَّ رامٍ حاذق متمكِّن من الرمي، متمرِّس في مهنته، فرمى بسهم خفيف من كنانته كأنه جمرة منطلقة، مختارًا لهذ السهم أجود الريش ، وبراه ، حتى أصبح رقيقًا حادًا.

وقد ابتدأ الشاعر بتعريف راميه – المسند إليه — من بني ثعل تعظيمًا لهذا الرامي وتحذيراً منه ، فالرماة منهم كُثُر ومشهور ، وتوالت الصفات لهذا الرامي، بأنه مدخِل يديْه ، عارض قوسه.

و فصل بين هذه الصفات؛ وذلك لشبه كمال الاتصال بينها ، وكأنها جوابٌ لسؤال اقتضاه الشطر الأول، وحذف ضمير عارض الذي هو المسند إليه؛ لوضوح الدلالة عليه وقرب العهد به، ثم عبَّر عن سهمه بصفة الرهيش، وقد جاء بصيغة التنكير للتفخيم ، فهو كالجمر حرارة حال انطلاقه.

---

(1)بنو ثعل : قبيلة من طيئ ينسب الرمي إليهم ، منهم عمرو صتحب القتر ، متلج كفيه : أي يدخل كفيه في القتر ، وهي بيوت الصائد التي يتكمن فيها لئلا يفطن له الصيد فينفر منه . عارض زوراء : يعني هذا الرامي عارض هذه الزوراء — وهي القوس المائلة الجوانب — ليرمي بها ، غير بانة : أراد غير باينة ، وإنما جعل القوس غير بائنة عن الوتر ؛ لأن الوتر يلصق بكبد القوس ، فإذا ووقع الوتر على كبد القوس كان أشد على الرامي ، وأبعد لذهاب سهمه. فتنحى النزع: تحرف حيال وجهه ، النزع : مد اليد في الرمي ، في يسره : يريد قبالة وجهه وجبهته. الفرائص : جمع فريصة ، وهي بضعة في موضع الكتف تتصل بالفؤاد ؛ وهي مقتل ، والإزاء : مهراق الدلو ومصبها من الحوض ، وعقر الحوض : مقام الشاربة ، وهي موضع أخفاف الإبل عند الورود. الرهيش : السهم الخفيف، الكنانة: مثل الجعبة للسهام ، كتلظي الجمر: من حدتها وبريقها كما يتوهج الجمر. راشه من ريش ناهضة : أي جعل للسهم ريشاً من ريش فرخ من فراخ النسور أو العقبان حين نهض ، وخص بذلك لأنه أرق وأخف ، أمهاه : أرَّقه وأحدَّه . ( الديوان ، ص١٢٤ — ١٢٥ )

وممن وصف القوس والسهم أبي ذؤيب الهذلي الذي تحدَّث في كثيرٍ من قصائده عنهما ، وسيتعرض البحث لشيءٍ من أوصافه لها في بعض شعره؛ ومنه قوله في عينيته الرثائية(١):

وَنَميمَةً مِــن قانِصٍ مُتَلَبِّبٍ فــي كَفِّهِ جَشءٌ أَجَشُّ وَأَقطُعُ
فَنَكِرنَهُ فَنَــفَرنَ وَامتَرَسَت بِهِ سَطعاءُ هادِيَةٌ وَهــادٍ جُرشُعُ
فَرَمى فَأَنفَـذَ مِن نَجودٍ عائِطٍ سَهماً فَخَرَّ وَريشُــهُ مُتَصَمِّعُ
فَبَدا لَهُ أَقرابُ هـــذا رائِغاً عَجِلاً فَعَيَّثَ في الكِنانَةِ يُرجِعُ
فَرَمى فَأَلحَقَ صاعِدِيّاً مِطحَراً بِالكَشحِ فَاشتَمَّلَت عَلَيهِ الأَضلُعُ
فَأَبَدَّهُنَّ حُتوفَهُنَّ فَهــارِبٌ بِذَمــائِهِ أَو بارِكٌ مُتَجَعجِعُ (٢)

فالشاعر يصف حالة هذا السهم الذي يهمهِم حال رميه، فيصدِر صوتًا ينمُّ عليه ويرشِد إليه، متحزِّم بثوبه، في يده قوس جشاء خفيفة، وسهام قاطعة فأنكرت الحمر الصائد، فنفرت وفزعت منه، ومرَّت به أتان طويلة العنق متقدِّمة تحتك بفحلها، فرمى بسهمه تجاه هذه الأتان الحائل، فخرَّ الفحل ملطَّخًا بدمه، فتتالت الأتن هاربةً، فمدَّ يده الأخرى؛ ليأخذ سهمًا آخر - جيِّد الصنع، بعيد المهوى — تجاهها، فوقع في خاصرتها، حتى اشتملت

(١) شرح أشعار الهذليين، ١/ ٢١ — ٢٥.

(٢)نميمة : همهمات نمت عليه ، أي الصائد ، الجشء : القضيب من النبع الخفيف، أجش: في صوته، أقطع : نصال عراض قصار ، متلبب : متحزم بثوبه .نكرنه : الحمر نكرن الصائد ، امترست به هوجاء : أتان امترست بالفحل والامتراس : الاحتكاك ، الهادية : المتقدمة ، الهادي : الفحل.فرمى: يعني القانص ، النحوص : الحائل ، عائط : التي اعتاطت رحمها فلم تحمل سنتين أو ثلاث ، المتصمع : المنضم من الدم .فبدا له : يعني بدا للصائد ، أقراب هذا : الفحل، والقربان الخاصرتان، رائغاً: هارباً، راغ عنه ، فعيث : مد يده فأدخلها في الكنانة ليأخذ سهماً يختاره. الصاعدي : نسبة إلى صعدة ، وهي قرية باليمن ، المطحر البعيد الذهاب السريع ، والمطحر من السهام الذي ألزقت قذذه أي : أدقت جدًا .أبدهن : قتلهن بددا ، أي كل واحدة بسهم ، بذمائه : ببقية نفسه ، المتجعجع : الساق المصروع اللاصق بالأرض . ( ينظر شرح أشعار الهذليين ، ١/ ٢١ — ٢٥ )

عليه الأضلاع، واحتوته من قوة اندفاعه وجيد صناعته فقتلهن بددًا ؛ أي كل واحد منهن بسهم، حتى أصبحن صرعى هنا وهناك؛ ما بين هاربٍ بدمه، وبارك يتشحَّط في دمه الآخر.

هذه الأبيات جاءت في سياق قصيدة رثائية للشاعر ، يرثي بها أولاده الذين قُتِلوا وصرمتهم المنية، فكأنَّه يحكي حال الموت والحياة معزّيًا نفسه من خلال عرضه لهذا المشهد الدامي، الذي ينبع بالدم والموت، وبطلبٍ للحياة في جانب آخر، فكأنه يسلِّي نفسه ويعزِّيها بأنّ هذا هو المصير، وأنَّ الحياة صراع على الموت والحياة، وكأنك به حين يصف حال موت الأتان الأولى، يصف حال موت أول أبنائه ثم فجأة يرمى الأخرى بسهم سريع، وكأنّ الشاعر هو المرمِي بهذا السهم الذي يجعله يهرب أحيانًا، ويجثو أحيانًا أخرى من شدة وطأة ألم الفراق.

وقد جاء وصف القوس هنا بالجشء؛ – وهو صوت جنائزي بكائي مناسب لسياق الموت والرثاء الذي وردت فيه الأبيات – وهو مسند إليه نكرة؛ وذلك للتعظيمٌ والتفخيمٌ، و زاد في وصفها بأنها أجشُّ وأقطع، وقد وصل الشاعر بن الجملتيْن الاسميتيْن أجشّ وأقطع، فهما اسما تفضيل نكرتيْن واصفتيْن للقوس، والوصل بينهما هنا للتناسب بن الجملتيْن الاسميتيْن، وفي تقديم المسند في كفِّه دلالة على اختصاص الكفِّ بها في هذا الموضع وهذا السياق.

ويصف سهمه بالصاعدي المطحر منكَّرتيْن، تعظيمًا وتفخيمًا ، وقد سُبق ذلك بفعليْن ماضييْن معطوفيْن بالفاء؛ وذلك لقوة الجامع بينهما في المعنى، وحذف المسند إليه الضمير؛ لإلقاء المهابة وتمكين المعنى في النفس، واختصارًا للوقت، فالمقام لا يستدعي الإطالة، والمجال مجال صيد، يخشى من فراره .

وفي موضع آخر من القصيدة، يعود متحدِّثًا عن ذلك الصائد ، مستخدمًا كلابه وأسهمه في آن واحد، واستعماله لأسهمه في هذا الموضع ليس لأجل الصيد ذاته وإنما لإنقاذ كلابه من وطأة ذلك الثور المتهجِّم عليها، الذي أضرَّها بقرنيْه، فيقول واصفًا تلك الحالة وواصفًا أسهمه بقوله[1]:

---

(١)شرح أشعار الهذليين، ٣١/١ – ٣٢.

فَدَنَا لَهُ رَبُّ الكِلابِ بِكَفِّهِ بيضٌ رِهافٌ ريشُهُنَّ مُقَزَّعُ
فَرَمى لِيُنقِذَ فَرَّها فَهَوى لَهُ سَهمٌ فَأَنفَذَ طُرَّتَيهِ المِنزَعُ
فَكَبا كَما يَكبو فَنيقٌ تارِزٌ بِالخُبتِ إِلّا أَنَّهُ هُوَ أَبرَعُ (١)

وهنا تتَّضح الحالة التي يعيشها الشاعر، وفي تعبيره هذا بيان للصراع على الحياة والموت، وهو ما عايشه الشاعر من موت أضرَّ به، وحياة تنكَّدت عليه؛ بسبب فقده بنيه، فوجد في إلباس حالته النفسية على بقر الوحش مسلاة وتبريرًا لما يعيشه ويقاسيه.

تقول نورة الشملان :"وتتابع الفاءات – في القصيدة – كحروف عطف ، تجمع الأفعال ، وتتابع بينها ، تكسبها سرعة وتقاربًا ؛ لأن العطف بالفاء يفيد التعاقب القريب ، وقد أفادت هنا تعاقب الحدث أو الفعل في حركة الحيوان الصائد "(٢).

ويقول نوري القيسي : حول استخدام أبي ذؤيب لحرف الفاء :" قد ساعده أن يحكم عقد قصيدته ، ويطرد نسقها تناسباً وتماشياً مع ما تحمل من المعنى ، وأن قريحة الشاعر هي التي مكنته من إجادة استخدام ذلك الحرف "(٣).

"وهذا زهير بن أبي سلمى – وهو تلميذ أوس – يقع على صورة دقيقة لصناعة القوس، تجلو بعض خفايا القوس، فقد وصفها بأنها متابعة؛أي يتبع وترها السهم عند انطلاقه، ويتأنى في وصفها ، فهي ملساء محدلة لا خشونة فيها، قوّست بوضعها كما توضَع السبيكة، ورُوعِي أنْ يكون أعلاها أوسع من أسفلها، كما يشير إلى عودها المأخوذ من شجر

---

(١)الرهاف: الرقاق الشفرات المرهفة ، والواحد رهب ، يريد نصالاً تلألأ وتبرق ، المقزع : المنتوف وقيل: المخفف المحشور.فرّها: بقيتها ، طرتاه : ناحيتا جنبيه ، الخطان اللذان في جنبيه ، المنزع : السهم .الفنيق: الفحل من الإبل، التارز : الميت الذي قد يبس ، الخبت : المكان المستوي ، أبرع : أضخم وأعظم .( ينظر شرح أشعار الهذليين، ١/٣١ – ٣٢ )

(٢) أبو ذؤيب الهذلي ، حياته وشعره ، نورة الشملان، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، الرياض، ط١، ١٤٠٠ = ١٩٨٠ ، ص ١١٣ ." بتصرف "

(٣) وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية ، نوري القيسي ، مؤسسة دار الكتب ، الموصل ، الجمهورية العراقية ، ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م ، ص ١١٦ – ١١٧ .

النبع، ويتوقَّف زهير عند الوتر؛ ليصف هيئته المشدودة بميل واحديداب، وذلك أجود للرمي، ولا يفوت زهير أنْ يصوِّر لنا صوت السهم في انطلاقه، فيشبِّهه بنائحة تبكي على كرامٍ فارقوا الحياة، فيقول"[1]:

وعلى الشَّريعةِ رَابِىءٌ مُتَحَلِّسٌ    رامٍ بعَيْنيْهِ الحَظِيرةَ شَيْزَبُ

مَعَهُ مُتَابِعةٌ إذا هو شَدَّها    بالشِّرْعِ يَسْتَشْزِي له وتَحَدَّبُ

مَلْسَاءُ مُحْدَلَةٌ كأَنَّ عَتَادَها    نَوَّاحةٌ نَعَتِ الكِرامَ مُشَبِّبُ

قَنْوَاءُ حَصَّاءُ المُقَوَّسِ نَبْعَةٌ    مِثلُ السَّبِيكةِ إذ تُمَلُّ وَتُشْسَبُ

عُرْشٌ كحاشِيةِ الإِزَارِ شَرِيجَةٌ    صَفْرَاءُ لا سِدْرٌ ولا هِيَ تَأْلَبُ

وَمُثَقَّفٌ ممّا بَرَى مُتَمالِكٌ    بالسَّيرِ ذو أُطُرٍ عليهِ ومَنْكِبُ

فَرَمَى فَأَخْطَأَهُ وَجَالَ كَأَنَّهُ    أَلِمٌ على بَرْزِ الأَمَاعِزِ يَلْحَبُ[2]

ووصف الشاعر القوس بأنها متابعة ، ووقوعها مبتدأً مؤخَّر مسندًا إليه، وتقديم الخبر شبه الجملة؛ تشويق لذكر المسند إليه، والتعرُّف عليه، وقد جاء بإذا المتبوعة بالفعل الماضي بعد هذا الوصف، مقيدًا له، ممَّا يدلِّل على قطعه بانصياعها وطاعتها حال شدِّه لها، وأتى بضمير الغيبة مسندًا إليه ؛ وذلك لأنَّ الحديث في مقام الغيبة، فاستدعى أنْ يعبِّر بضمير

(١) القوس في الشعر الجاهلي والإسلامي لسلامة السويدي ، ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .

(٢)الشريعة : مورد الشاربة ، الرابئ : الحارس ، وهو هنا الصياد ، المتحلس : المقيم المترقب ، الحظيرة : مأوى الماشية ، استعارها للشريعة ، الشيزب :الضامر اليابس .المتابعة : القوس اللينة المطواع ، الشرع ، الواحدة شرعة : الوتر ، يستشزي : يرتفع ويتحدب ، الملساء التي لا تشقق فيها ، المحدلة التي أعلاها أوسع من أسفلها ، العتاد: العداد ، وهو صوت وتر القوس إذا رمي عنها ، نعت الكرام : أخبرت بموتهم وبكتهم ، المشبب : النائحة تشبب الحزن . القنواء : المحدودبة ، الحصاء : الجرداء ، المقوس : موضع التقوس ، النبعة : المصنوعة من شجر النبع ، وهو أصفر العود ثقيله إذا تقادم، السبيكة : القطعة من المعدن ذوبت وأفرغت في قالب ، تمل : تعالج بالنار ، تشسب : تضمر وتيبس. العرش: الطويلة، حاشية الإزار: جانبه الذي لاهدب فيه ، الشريجة : فلقة العود إذا شق فلقتين متساويتين، السدر والتألب ك ضربان من الشجر الضعيف .المثقف : السهم المقوم ، المتمالك : المتماسك ، السير : سير السهم ، الأطر ، الواحد إطار : وهو ما لف على السهم من العصب ، المنكب : منكب العقاب أو الصقر ، يريد ريش المنكب منه وهو أجود للسهام لأنه أعرض . ( ينظر شرح شعر زهير ، ص ٢٧٨- ٢٧٩) .

الغائب هو عن المسند إليه، وقد وصل بين جملتيْن فعليتيْن بين يستشزي وتحدب؛ وذلك للشراكة بينهما في المعنى.

ويأتي بوصف آخر لقوسه؛ من خلال قوله: فهي ملساء محدلة، وقد حذف المسند إليه؛ لقرب العهدبه والحديث عنه، والحديث يدور حول وصف القوس فناسب اختصارًا وقربًا ألاَّ يذكر المسند إليه، وهنا تشبيه بليغ لصوتها يأتي بيانه في موضعه .

ويصفها بأنها عرش، وقد حذف المسند إليه؛ لقرب العهد به، والحديث عنه ،وفي تنكيره للمسند تعظيم وتفخيم لقوسه، وتشبيهها بالعصا الجيدة المفلوقة فلقتيْن وأنها من أجود أنواع الشجر لا من رديئه.

ويقول عمرو بن قميئة، وهو من أقدم الشعراء الجاهليين يصف قوس صائد وسهامه(1):

**لـــــَهُ شِريـــانَةٌ شَغَلَت يَدَيهِ وَكـــانَ عَـــــلى تَقَلُّدِها قَوِيّا**

**وَزُرقٌ قَـــــد تَنَخَّلَها لِقَضبٍ يَشُدُّ عَلى مَنـــاصِبِها النَضِيّا** (2)

وقد وردت هذه الأبيات في سياق حديثه عن ديار محبوبته، واندراس مآثرها وحزنه الشديد الذي كاد يبكيه، لولا رميه بالسفه والغواية، وتسلِّيه عن ذلك المنظر المحزن لديه بسيره على ناقته القوية المتماسكة، التي تشبه فحلاً من فحول الخيل القوية النشيطة التي شمَّت ريح الربيع من مسافةٍ، فهي تسير سيرًا مذهلاً، وتسوق من سرعتها أتنًا حتى وردت ماءً عليه صائد مستعدّ، يكبِّر إذا رأى الصيد مقبلاً، وقد أعدَّ قوسًا من الشريان وهو من أجود شجر، تتَّخذ منه القسيِّ، وسهام زرق مهلكة، قد اختارها واعتنى بها.

و وصف قوسه بشريانه ، وهي شجر العضاة ، وقد جاءت مسندًا إليه، وقدَّم المسند الجار والمجرور؛ لقصر المسند إليه عليه، تشويقًا لمعرفة المتأخِّر ، وفي تنكيره للمسند إليه دلالة على تعظيمه وتفخيمه، و في وصف سهامه وحذفه للمسند الجار والمجرور دلالة على قرب العهد به، واختصارٌ للموقف، وجاءت سهامه زرق، دلالة على تفخيم وتعظيم تلك السهام.

---

(1)ديوان عمرو بن قميئة، ت حسن كامل الصيرفي، جامعة الدول العربية، معهد المخطوطات، ط ١٣٨٥هـ –١٩٦٥م، ص١٤٩.

(2)شريانة: شجر من عضاة الجبال ، تعمل منه القسيّ ، التقلد : الاحتمال .الزرق : الأسنة سمية بذلك للونها ، تنخل الشيء : صفاه واختاره وأخذ أفضله ، القضب: شجر تتخذ منه القسي. المناصب: جمع المنصب وهو كالنصاب : الأصل والمرجع ، والنصاب : جزأة السكين أي مقبضها .النضي: السهام .( ينظر الديوان ، ص ١٤٩ )

وأمَّا امرؤ القيس السكوني، فتنوَّع تصويره للسهم، فسهام الصائد المتربِّص بحمر الوحش متوفِّرة، بجعبة تلمع نصالها كأنها جمر مشتعل أو فتيل سراج متوهِّج، تبدو في دقتها كالسيوف الدقيقة(١):

| | |
|---|---|
| **فَلاقى أَبا بِشرٍ عَلى الماءِ راصِداً** | **به مِن زَماعِ الصَيــــدِ وَردٌ وَأَفكَـــلُ** |
| **يُقَلِّبُ أَشباهاً كأن نِصـــــالَها** | **بَعيجَةُ جَمرٍ أَو ذُبـــالٌ مُفَتَّــــــلُ** |
| **فلما رَضى إِغراضَها وإِغتِـــرارَها** | **وَواجهَهُ من مَنبِــــض القَلب مقتَلُ** |
| **رَماها بمذروب المكَفِّ كَـــأَنَّهُ** | **سِوى عودِه المحشوشِ في الرأسِ مِغوَلُ** |
| **فـــأَنفَذَ حِضنَيها وَطرَّ وَراءَه١** | **بمعتَقَبِ الوادي نَضيٌّ مَرمَّـــــلُ(٢)** |

لقد وصف الشاعر هنا سهامه بأنها متشابهة متماثلة، وقد جاء التعبير بالمضارع هنا في يقلِّب؛ دلالة على مداومته لتقليبها والاهتمام المستمر بها، وقد حذف المسند إليه؛ لضيق المقام وللعلم به؛ لأنَّ الحديث عن ذلك الصائد، ونجده عبَّر عن السهام بالصفة أشباه ونكَّرها، وفي ذلك زيادة تفخيم لها وتعظيم، ثم شرع في تشبيهها بالجمر ، وأتى بعد ذلك بصفة أخرى له، بأنه حاد، وجاءت هذه الصفة مسنداً إليه معرَّفًا بالإضافة؛ وذلك بيانًا لعظمة ذلك المضاف واختصاصًا به.

وأوصاف القوس والسهم في الشعر الجاهلي، وخاصة في مجال الصيد كثيرة، ولعل ما وُقِفَ عنده يُغنِي البحث ؛ ويفي بالغرض المنشود؛ لأنَّ أغلب تلك الأوصاف مكرَّر ووارد عند أغلب الشعراء، وهذا أمر طبيعي فالحياة التي يعيشها العربي، فأغلب مظاهر التصوير فيها واحدة أو متشابهة، ولكن مع ذلك كلٌّ منها له سياقه الذي وردت فيه –والله أعلى وأعلم–.

---

(١)قصائد جاهلية نادرة ،الشاعر امرؤ القيس بن جبلة السكوني، ت د. يحي الجبوري، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ص ١٤٢ – ١٤٣ .

(٢)زماع الصيد : سرعته ، الورد : هنا التقدم ، أفكل : الرعدة .أشباه : سهام متشابهة متماثلة ، بعيجة جمر : أي فلقة أو شقة من جمر .إغراضها : شوقها ، غرضت إلى الشيء : اشتقت إليه ، وغرض : بالفتح أي مل وضجر .مذروب: حاد ، المحشوش : السهم الذي يلزق به القذذ من نواحيه ، مغول : سيف دقيق له قفا ، يكون غمده كالسوط .حضناها : جانباها ، والحضن : ما دون الإبط إلى الكشح ، طرّ : شل وطرد ، وطررت الإبل : مثل طردتها إذا ضممتها إلى نواحيها ، معتقب الوادي : محبسه ، النضي : نصل السهم ، والنضي : القدح أول ما يكون قبل أن يعمل ، ونضي السهم : ما بين الريش والسهم .( ينظر قصائد جاهلية ، ص ١٤٢ – ١٤٣ )

## المبحث الرابع: القوس والحرب سياقاته ومواقعه:

عرف معظم العرب الحرب مثل كل الشعوب القديمة، التي آمنت بها وسيلة لتحقيق الأهداف ورأت القوة عامل بقاء، وعنصرًا أساسيًا من مقومات الحياة، وللحرب عندهم دواع وأسباب تستثير هممهم، وتلهب نار أحاسيسهم، وتدفعهم إلى الوقوف في وجه أية محاولة من محاولات الهجوم و السيطرة، وكثر الحديث عن هذه الدواعي والأسباب، ولكن يظل السبب الرئيس والدافع المباشر لهذه الحروب، هو حب العربي وتقديسه الحرب، و إشباع غرائزه، وتلبية لنداء داخلي يحثه على الحرب، وهذا ما يفسر وقوع بعض الحروب التي لا توجد لها أسباب ظاهرة . أما الأسباب المعروفة لدى كثير من الباحثين فهي كثيرة، منها ما هو اقتصادي ومنها ما هو اجتماعي.

فالدافع الاقتصادي كان أساسه طبيعة البادية القاسية "فإذ ا أخلفت السماء و أمحلت الأرض، أكل بعضهم بعضًا"[١] فالصراع على أسباب الحياة كان ظاهرًا عند العرب، كالصر اع على الكلأ والماء، و هذا يبين سبب تتبع البدوي مساقط الغيث، ورحيله وراء الماء، فالأرض الخصبة الموفرة بالماء والعشب كانت مطمعًا لكل قوي، وذلك لغياب السلطة التي تحكم أهل البادية، فالقوي يأكل الضعيف، ويسلبه أملاكه.

أما الدافع الاجتماعي فهو قائم على الأخذ بالثأر، هذه الظاهرة التي سيطرت على عقل البدويّ، الذي لا يرتاح ولا يغمض له جفن قبل الأخذ بثأره، وتعظم المصيبة عندما لا يكتفي الرجل بالثأر من القاتل فحسب، و إنما يصمم على إبادة القبيلة[٢].

وبعدها تستعر نار الحرب، و يصطلي بها أناس ليس لهم أي ذنب ، فالثأر شريعتهم المقدسة، التي لا يمكن لأحد أن يمسها أو يبدلها.

---

(١) الشعر الجاهلي، محمد عبدالمنعم خفاجي ،دار الفكر اللبناني،بيروت، ط ٢، ١٩٧٣م، ص ٩١- ٩٢.

(٢) أثر الصحراء في الشعر الجاهلي، سعدي ضناوي ،دار الفكر اللبناني،بيروت، ط ١، ١٩٩٣م، ص ١٤١.

وكان الجاهليون لا يقتتلون في الأشهر الحرم ؛ بسبب قدسيتها ، ولشدة ولعهم بالحروب، ولأنها تجري في دمائهم، بحيث لا يستطيعون التنصل منها، تجاوزوا حرمة هذه الأشهر، وسميت هذه الحروب بأيام الفجار ؛ لأن فيها خروجًا عن الشريعة المتعارف عليها بينهم، ولأن من اشترك فيها كان قد فجر فيها بانتهاكه قدسية هذه الأشهر الحرم[١].

وكانت هذه الأشهر بمثابة استراحة أو هدنة تأخذها القبائل، ويكونوا فيها آمنين على أنفسهم وعلى أموالهم و عيالهم ،ولكن مع هذا كانوا يستطيلون تتابعها، فيعمدون إلى النَّسِيءُ: وهو شهر كانت العرب تُؤَخِّره في الجاهلية، فنَهى الله عز وجل، عنه. [٢]

وللفقر والبؤس الذي يعيشه الجاهليون وقلة موارد الرزق الأثر الكبير في التهاب تلك الحياة بنار الحروب الطاحنة بين تلك القبائل فالقوي يأكل الضعيف، والضعيف يلجأ للصعلكة هو وأقرانه؛ ليقطعوا الطرق على الناس ويسلبوهم أموالهم ويقتلوهم ، وكان القتل عندهم والظلم من الأمور المحمودة والمفتخر بها، فهم يعدُّون الانتصار والكسب بالغصب من المدائح التي تضاف للقبيلة وللآخذ عمومًا، فنجده يوصف بالشجاعة والبسالة والقوة ويكون فخراً للقبيلة .

ومن الصفات المثلى للرجل المقدر والمعتبر في المجتمع الجاهلي الفروسية، وإتقان الرماية والطعن والضرب، دلَّ على ذلك ما وصل من شعرهم ، وما نطقت به قصص أيامهم وحروبهم، وكانت القاعدة التي تقوم عليها حياتهم قول زهير[٣]:

**وَمَنْ لَا يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ ... يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ**[٤]

---

(١) العقد الفريد،لابن عبد ربه: ت د عبدالمجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت ،لبنان، ط١ ،١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م ،ج ٦،ص ١٠٢ .

(٢) اللسان مادة نسأ ، باب النون ،ج ٤٩ص ٤٤٠٣ .

(٣) شرح ديوان زهير، ص ٣٥ .

(٤) ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه : أي من لا يدافع عن قومه يذل ويكسر ، ومن لا يظلم : أي من يكن مهيناً ضعيفاً يظلم .( ينظر شرح شعر زهير ، ص ٣٥)

وقد تشتعل الحرب في العصر الجاهلي نصرةً لقريب وإن كان ظالماً أو مظلوماً كما ذكر، وربما عير الشاعر قبيلته من جراء تخليها عن نصرته ، قال قريط بن أنيف ، وكان بعض بني شيبان أغار على إبله ، فاستنجد بقومه ، فلم ينجدوه ، فلجأ عندها إلى بني مازن من قبيلة تميم فأنجدوه ، فقال(١):

**لا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حينَ يَنْدُبُهُمْ في النَّائِبَاتِ على ما قال بُرْهَانَا** (٢)

فروح الحماسة عند العربي تُثار لغزو أو ثأر أو نجدة مظلوم أو طلب للسيطرة والحكم والحرية أو غير ذلك، حيث يقول شوقي ضيف: "لا نبعد إذا قلنا إنَّ الحماسة أهم موضوع استنفد قصائدهم ، فقد سعرتهم الحروب ، وأمدَّهم شعراؤهم بوقود جزل من التغني ببطولتهم وأنهم لا يرهبون الموت ، فهم يترامون عليه تحت ظلال السيوف والرماح مدافعين عن شرف قبائلهم وحماها ".(٣)

ويقول علي الجندي: "البيئة الجاهلية هيَّأت للعرب في ذلك الوقت ظروفًا جعلتهم يتنازعون، ويتشاحنون ، ويتحاربون ، وقد ساعد على ذلك عامل قوي جدًا؛ هو عدم وجود سلطة مركزية عامة يخضع لها العرب جميعًا. فعدم وجود حكومة عليا تتولى شؤون البلاد كلها، وتشيع العدل بين الناس على السواء ، وتنتصف للمظلوم من الظالم ، وتأخذ على يد المجرم والمسيء ، ويدين لها الجميع بالولاء، هو العامل الأساسي في حدوث المنازعات ، وانتشار الفوضى ؛ وقيام الحروب .

وحياةٌ هذه ظروفها وملابساتها لا يستطيع البقاء فيها إلاَّ مَن كان قويًا مرهوب الجانب ، أمَّا الضعيف أو الجبان ؛ فمأكول ومهان. لذلك كان من أهم ما يشغل العربي في

---

(١)شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، ت أحمد أمين ، عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٤١١هـ – ١٩٩١م ، ج ١ ، ص ٢٩ ، يروى لقريظ بن أنيف ، وقيل لأبي الغول الطهوي .

(٢)الأصل في الندبة – وإن اشتهرت ببكاء الأموات وقولهم عنده : وافلاناه– الدعاء ، والشاعر يقول : هولاء القوم ، يعني بني مازن ، لحسن محافظتهم وقوة تناهيهم في نصرة المنتسب إليهم والمعلق حبله بحبلهم ، لا يسألون الواحد منهم إذا دعاهم حجة على دعواه ، ولا يراجعونه في كيفية ما ألجأه إليهم ، لكنهم يعجلون الإغاثة له .

(٣)تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢٤ ، ص ٢٠٢ .

ذلك الوقت أن يسعى بكل جهده لتقوية نفسه ، وأن يبرهن لغيره أنه قوي ؛ لكي يهابه الجميع ، ويخشوا بأسه .

وقد أحسن التعبير عن ذلك النابغة الذبياني في قوله:

**تَعدو الذِئابُ عَلى مَن لا كِلابَ لَهُ وَتَتَّقي صَوْلَةَ المُستَأسِدِ الضّارِي** "[١]

ومن أهم ما افتخر به الجاهليون و اعتدوا به في حروبهم ، أسلحتهم التي يقتنوها ويذيقون أعداءهم مرارتها ، ويصفون خيولهم التي يركبونها وقد أكثروا من ذكر ذلك في شعرهم.

وقد وصف أوس بن حجر السلاح في لاميته المشهورة حيث يقول[٢]:

**وإنّي امْرُؤٌ أعْدَدْتُ للحرْبِ بَعدما رأيتُ لها ناباً من الشرّ أعصَلا**
**أصَمَّ رُدَيْنِيّاً كَـأنّ كُعـوبَهُ نـوَى القسبِ عرّاصاً مزجّاً منصَّلا**
**عَلَيْهِ كمِصْباحِ العَزيزِ يَشُبّهُ لِفِصْحٍ وَيَحشوه الذبالَ المُفَتَّلا**
**وَأمْلَسَ صُولِيّاً كَنِهْيٍ قَرَارَةٍ أحسّ بقاعٍ نفحَ ريحٍ فأجفلا**
**كأنّ قرُونَ الشمسِ عند ارْتفاعِهَا وَقدْ صَادَفَتْ طَلْقاً منَ النّجم أعزَلا**
**تَرَدّدَ فِيه ضَوْؤهَا وَشُعَاعُهَا فأحسنْ وأزينْ بامرىءٍ أن تسربلا**
**وَأبْيَضَ هِنْدِيّاً كَأنّ غِرَارَهُ تَلألُؤُ بَرْقٍ في حَبِيٍّ تكلّلا**
**إذا سُلّ منْ جفنٍ تأكّلَ أثْرُهُ على مثلِ مصحاةِ اللُّجين تأكُّلا**
**كأنَّ مدبَّ النّملِ يتبعُ الرُّبى ومدرجَ ذرٍّ خافَ برداً فأسهلا**
**على صفحتَيهِ مِنْ مُتونِ جِلائهِ كَفَى بالذي أُبْلِي وَأَنْعَتُ مُنْصَلا** [٣]

(١)شعر الحرب في العصر الجاهلي ، د علي الجندي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ص ٢٠ – ٢١ .

(٢)"ديوان" أوس، ص٨٣–٨٦.

(٣)"ديوان" أوس، ص٨٣–٨٦.

لقد بدأ بوصف الرمح وأطال فيه ، ممَّا يدل على تمكُّنه ، وسبره لأغوار تلك الأداة ،وإكثاره من التشبيهات بياناً لأهميته ، ثم انقل ليصف سيفه ودرعه فأجاد وصفهما ، ثم انتقل إلى قوسه مسهبًا في وصفها لما لها من مكانة خاصة جعلته يضفي عليها من الصور البيانية ، معتنيًا بها مذ كانت نبتة في أعلى الجبل ، حتى أصبحت أداة صالحة للاستخدام .

وسيتضح وصف القوس والسهم من خلال قصائد الحرب والسياق الذي وردت فيه، وأبرز الأوصاف المتعلقة بهما عند جمعٍ من شعراء الجاهلية، و لكن حديثهم عنهما في مجال الحرب لا يصل إلى درجة وصفهما في مجال الصيد ، و وصف الرحلة عموماً ،وما سيُبدأ به أبيات لأوس بن حجر في وصف قوسه وسهامه جاءت في نهاية عرضه لأسلحته التي و أعدها للحرب، و لما وصل للقوس ، أفاض في وصفها ، ووصف سهامها وأجاد في ذلك حيث قال(١):

**وَمَبْضُوعَةً مِنْ رأسِ فَرْعٍ شَظِيَّةً بِطَودٍ تَرَاهُ بالسَّحابِ مُجَلَّلا**

**على ظَهْرِ صَفْوَانٍ كأنّ مُتُونَهُ عُلِلْنَ بِدُهْنٍ يُزْلِقُ المُتَنَزلا(٢)**

**كَتومٌ طِلاعُ الكَفِّ لا دونَ مَلئِها وَلا عَجسُها عَن مَوضِعِ الكَفِّ أَفضَلا**

**إِذا ما تَعاطَوها سَمِعتَ لِصَوتِها إِذا أَنبَضـــوا عَنها نَئيمـــاً وَأَزمَلا**

**وَإِن شَدَّ فيها النَزعُ أَدبَرَ سَهمُها إِلى مُنتَهىً مِـــن عَجسِها ثُمَّ أَقبَلا**

**فَلَمّا قَضى مِمّا يُريدُ قَضـــاءَهُ وَصَلَّبَهـــا حِرصـــاً عَلَيها فَأَطوَلا**

**وَحَشوَ جَفيرٍ مِـــن فُروعٍ غَرائِبٍ تَنَطَّـــعَ فيهـــــا صـــانِعٌ وَتَنَبَّلا**

**تُخُيِّرنَ أَنضاءً وَرُكِّبنَ أَنصـــُلاً كَجَـمرِ الغَضا في يَومِ ريـــحٍ تَزَيَّلا**

**فَلَمّا قَضى في الصُنعِ مِنهِنَّ فَهمَهُ فَلَم يَبـــقَ إِلّا أَن تُسَنَّ وَتُصقَلا**

**كَساهُنَّ مِـــن ريشٍ يَمانٍ ظَواهِراً سُخـــاماً لُؤاماً لَيِّنَ المَسِّ أَطحَلا**

---

(١)الديوان، ص٨٩.

(٢)مبضوعة: أي مقطوعة، الفرع: أعلى الشجرة، الشظية: الشقة والفلقة، وهي صفة للمبضوعة ، مجللاً: جلّله: بمعنى غطّاه وألبسه، على ظهر صفوان: حجر يزلق المتنزل لملامسته، عِلِّلن: سقين مرةً بعد مرة. (ينظر الديوان، ص ٨٥ –٨٦ ).

يَخُرنَ إذا أُنفِزنَ في ساقِطِ النَدى          وَإن كانَ يَوماً ذا أَهاضيبَ مُخضِلا
خُوارَ المَطافيلِ الــمُلَمَّعَةِ الشَوى          وَأَطلائِها صادَفــنَ عِرنانَ مُبقِلا [1]

بدأ الشاعر بإعلان صفات قوسه ، ومقاييس جودته ، فعوده لا شق فيها ولا صدع ،إذا وضع الرامي كّفه في أي موضع منها ملأته ، فضلاً عما إذا وضع كّفه في كبدها عند الرمي ،و إذا أنبضها الرامي وجذب وترها فإنك تسمع لها صوتًا خفيفًا ، وهي مرنة لينة إذا شد النازع فيها السهم عاد إلى مقبض القوس ثم ابتعد عنها لقوة دفعها وصلابتها .

فلما فرغ من تجربته الناجحة في جودها ، ومدى دقتها ومتانتها في الصنع ، راح يجفِّفها ويطيل مدة بقائها لتيبس وتشتد ؛ حرصًا عليها من التلف أو أن يلحقها أي عيب فيصعب تقويمها .

ويتضح من خلال عرض الصفات المتعدِّدة لقوس الشاعر، أنَّ السياق الذي وردت فيه سياق فخر واعتداد بالنفس والقبيلة ، فناسب أن يسهِب في إضفاء الصفات الدالة على القوة والمنعة على أسلحته التي يقتنيها، وبالأخص قوسه فهي تشكِّل مصدر قوة وعزة بذاتها؛ و السبب في ذلك صعوبة منالها ، فلا يتوصَّل إلى مثل هذه القوس التي في أعالي الجبال، إلا بالمكابدة والصبر . ولعله جعل من صبر القوَّاس على سعيه لقوسه رغم ما واجه من المصاعب والعقبات دليلاً ورمزاً لنفسه الصابرة على قرابته والتغاضي عن بعض زلاتهم ، ومحاولة لجمع الكلمة بينه وقومه من خلال هذه القوس، وفيه إيحاء بالقوة ، والمنعة ، والقدرة على الانتقام من جهة ، وإيحاء بالصبر و المصابرة على القريب من جهة أخرى .

---

([1])كتوم : الكاتم من القسيّ التي لا ترن إذا أنبضت ، وربما جاءت في الشعر كاتمة ، وقيل هي التي لا شق فيها. العجس : موضع كف الرامي من كبد القوس .تعاطوها : من عطا الشيء وعطا إليه عطواً تناوله ، أنبض القوس : جذب وترها لتصوت ، النئيم : الصوت الضعيف وصوت القوس ، وكذلك الأزمل . نزع في القوس : مدها أي جذب وترها . صلبها : يبسها ، أطولا : أطال .الجفير : الكنانة وحشوها السهام ، اغرب نوع من الشجر تصنع من السهام ، تنطع الصانع : تحذق في صناعته وتأنق ، وكذلك تنبل . الأنضاء جمع نضي : وهو السهم الذي لم يبر بعد ، شبهها في توهجها بجمر الغضا في يوم ريح ، تزيلا : تطاير.السخام من الريش : اللين الحسن ، الطحلة : لون بين الغبرة والبياض والسواد .المطافيل : ذوات الأطفال ، الشوى : الأطراف ، أطلاؤها : أولادها ، عرنان : وادي واسع في الأرض منخفض يوصف بكثرة الوحش ، مبقل : طلعت فيه البقلة . ( ينظر الديوان ص ٨٩ – ٩٠ )

وبعد أن فرغ من صناعة قوسه وإتمامه ، انتقل يصف سهام هذه القوس ، ويعدد مراحل تصنيعها ، فهي منتقاة من خيار شجر الغرب ، وهو: شجر معروف بجودته في صنع السهام ، وقد تحذّق في صنعها وتأنق ، وهذا شأنه مع السهام أيضًا ، ثم بعد ذلك تخير وانتقى من بعض هذه السهام التي لم تُبْرَ بعد ليركب فيها النصل ، وراح يرسم لنا قوة وشدة توهج هذه السهام حين تنطلق إلى الهدف المحدد لها ، فشبه نصل السهام وهي منطلقة من القوس بسرعة ، بجمر الغضا حين يتطاير شرره في يوم ريح شديد ، وذلك لما بينهما من توهج ، وهذه الصورة دلالٌة على جودة هذا القوس ، ومتانة صنعها .

وقد وفِّق الشاعر في إصابة التشبيه عندما شبه نصل السيف المعد للحرب ، بجمر الغضا ؛ فجمر الغضا من أجود أنواع الجمر ، وأطولها مدة بقاء مشتعلاً ، والجمر جزء من النار ، وهي ومشتقاتها أكثر تناسبًا لذكر الحرب وعتاده ، ثم إن الجمر لونه أحمر – وهو ما يوحي بلون الدم القاني الذي يسفك في الحرب – يتطاير شرره ؛ دلالةً على جاهزيته للحرب في أي لحظة .

وبعد أن فرغ من المهام الأساسية من صنع السهام ، وأعلن جاهزيتها للاستخدام ، راح يتحذق فيها ويتأنق ، ويعاود النظر في تسنينها ،وصقلها الكرة بعد المرة . ثم بعد ذلك أخذ في كسوة هذه السهام ، وراح يتخير لها من الريش اليماني ألينه وأجوده ، وأخذ يوائم بين هذا الريش المائل لونه بين الغبرة والسواد في تركيبه ويلائم بينه ، وهذه السهام يسمع لها صوت متى ما أديرت على الظفر وحركت بالأصابع .

ثم يتساءل الشاعر متعجبًا من ظهور صوت القوس في جوٍّ ندي ،ويقول : كيف بها إذا كانت في جوٍّ جاف ؟! .ويبدو أن الصوت ينتقل في الجو الجاف أسرع ، وأعلى منه في الجو الرطب الندي . ثم أخذ بعد ذلك يرسم حجم الصوت النابع من هذه السهام ويشبِّهه ، بصوت خوار بقر الوحش ، التي لها أولاد مطافيل ، لون أطرافها أبيض ناصع ، ثم إن أولادها في واد واسع مليء بالوحوش ، وهذا الوادي نبت بقله ، ويظهر في وصف الشاعر للبقر بأنه ملمع الشوى ، إيضاح لسهولة رؤية الوحش للبقر في هذا الوادي المليء بالوحوش؛ مما يحدق عليها الخطر ؛ فهي ذات صوت خافت خافض ؛ حتى لايتنبه لها الوحش .

ولاحظ أن طرفي التشبيه يعودان إلى نوع واحد ؛ لأن الشاعر استعار صوت خوار البقر لصوت القوس قبل أن يشبهه بصوت خوار البقر المطافيل، ثمّ حذف المشبه الذي هو بقر الوحش وأبقى شيئًا من لوازمها على سبيل الاستعارة المكنية .

وكأن الشاعر أراد أن يثبت حقيقة قد استقرت في ذهن ذلك الرجل، حتى أنه ادعى أن صوت القوس هو في الأصل صوت خوار يشبه خوار البقر المطافيل وذلك عن طريق المبالغة ، "وهذا من أعلى مراتب البيان، الذي يجعل البيان في صورة مستجدة ، ويزيده فضلًا ونبلاً".[1]

وبعد أن فرغ الشاعر من تقصي الوصف، وتحري الدقة البالغة في نقل صور عتاد الحرب وعدته من درع ، ورمح ، وسيف عبر المشاهد البيانية العالية ، والتي كان التشبيه وسيلتها المباشرة ، ثم الوقوف عن كثب على صناعة القوس وسهامها لحظة بلحظة منذ أن كانت القوس فرعًا على صفوان أزلق ،في رأس شجرة بأعلى الجبل الشاهق إلى أن صارت لوتره صوتًا وأزملا ، ولسهامه ريشًا يمانيًا فاخرًا تكسى به ، وكأن بالشاعر أراد أن يدفع العدو المتربص به وبقومه ، فراح يظهر عتاد قومه ، وأسلحتهم الفتاكة ، عن طريق رحلة وصفية مثيرة، مليئة بالمغامرات، كان البيان العالي عنوانها ، والتشبيه وسيلتها التي نقلت به كل المشاهد نقلاً وصفيًا حيًا كرأي العين ، وهذا العمل الوصفي البياني التشبيهي للأسلحة ، يشبه عمل المناورات العسكرية في الوقت الراهن ؛ وذلك إذا شعرت الدولة بخطر داهم للبلاد، أو وجود أطماع من بعض القوى المتطلعة لتوسيع هيمنتها ودائرة نفوذها ، سرعان ما تنفر تلك الدولة لإظهار أقوى ما تملك من ترسانة عسكرية ، وأسلحة فتاكة لتردع به العدو المتربص ، وتدفع بها أطماع كل طامع .

ويبدو أن الأمر نفسه هو الذي دفع الشاعر لتفريغ طاقاته البيانية في سبيل إظهار سلاحه على أكمل وجه وأتم حال . فلذلك يلاحظ من الشاعر بعد استغراقه في وصف آلة

---

(1)أسرارالبلاغة، لعبد القاهر الجرجاني ، ت محمود شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، الناشر دار المدني ، جدة ، ص ٤٢ .

الحرب، انتقل يعتد بعتاده ، ويشيد بنفسه ، وبشجاعة قومه بني أسيد،وأن قومه ليسوا بمعزلٍ عن السلاح ، وأخذ يظهر قوة بأسهم عند اللقاء إذا ما تحتم عيهم ذلك ، فقال(١):

**فَذاكَ عَتادي فِي الحُروبِ إِذا اِلتَظَت وَأَردَفَ بَأسٌ مِن حُروبٍ وَأَعجَلا**
**وَذَلِكَ مِن جَمعي وَبِاللهِ نِلتُهُ وَإِن تَلقَني الأَعداءُ لا أُلقَ أَعزَلا** (٢)

ومِمَّا جاء على منوال هذه القصيدة في الاعتداد بالسلاح في الحروب واستعراضه، ما ذكره صاحب المفضليات من قصيدة لثعلبة بن عمر العبدي، يصف فيها قوسه بعدما وصف درعه و رمحه ، فيقول (٣):

**وَصَفراءُ مِن نَبعٍ سِلاحٌ أُعِدُّها وَأَبيَضُ قَصّالِ الضَريبَةِ جائِفُ**

**عَتادُ اِمرِئٍ فِي الحَربِ لا واهِنِ القُوى وَلا هُوَ عَمّا يَقدِرُ اللهُ صارِفُ**(٤)

وقد جاء وصفها كما هي أغلب أوصاف الجاهليين لها بصفراء، ولعله مزية لها فهذا اللون هو لشجر النبع الذي يكنه أعالي الجبال ، وحذف الموصوف – القوس - ؛ لأن في ذكر الصفة بلاغة عن ذكر الاسم صريحًا ، ففي ذكر الموصوف عناية بالصفة ودلالة على أهميتها، وتعظيماً لها ، مما يوحي للعدو قوة خصمه وجودة سلاحه ، حيث وصف بهذه الصفات المتتالية .

وهناك موضع آخر لبيان وصف القوس عندهم ،فحال استعدادهم للحرب تحدَّثوا عن تسلح الجيش وأنهم كاملو السلاح ، وعلى أُهبة الاستعداد في أي لحظة للقاء العدو،

---

(١)الديوان، ص٩٠.

(٢)فذاك عتادي : الإشارة راجعة إلى الرمح والسيف والقوس ، والعتاد : العدة ، التظت : التهبت .( ينظر الديوان ، ص ٩٠)

(٣)الشاعر: هو ثعلبة بن حزن بن زيد مناة العبدي من عبد القيس ،قال ابن دريد في الاشتقاق عند ذكر من سليمة عبد القيس: "من رجالهم ابن أم حزنة بن حزن بن زيد، وكان من فرسانهم"ينظر المفضليات"، ق ٧٤ ، ب١٠ ، ص ٢٨٢ .

(٤)الصفراء: القوس ، والقصال: القطاع يعني سيفًا، والضريبة: المضروبة نقلت من مفعولة إلى فعيلة، والجائف: الذي يبلغ الجوف، ويروى وزوراء ويروى: وأبيض إني للبوائق خائف.(ينظر المفضليات ، ق ٧٤ ، ب١٠ ، ص ٢٨٢ )

ويأتي هذا في أبيات لعبيد بن الأبرص، حينما تحدَّث في مطلعها عن أحبته كما هي عادة الجاهليين، ثم انتقاله إلى الاستهزاء والسخرية بامرئ القيس وأبيه وقبيلته ، مفتخراً بمقتل أبيه وانتصارهم عليه ، وعدم اكتراثهم لوعيد ابنه امرئ القيس الذي يؤلِّب عليهم الأعداء ، ويسخر به قائلاً أنَّ ما تؤمِّله حلم لن يتحقَّق ، وبعد ذلك تكلَّم عن رماح قومه وفعلها في أبيه، وخيولهم السريعة ، وقومه الأشاوس الشجعان العظام الذين أصبحوا ظاهري السلاح ، متقلديه في جيش عظيم الأسلحة .

ففيه قوس مصونة محفوظة – من أجود أنواع القسي وهو النبع – ليوم الحرب، ورمح مثقَّف مجهَّز ، وسيف حسام ، أي قاطع حاسم الحرب لصالحهم فيقول(١):

**سَلَفًا لِأَرعَنَ ما يَخِفُّ ضَبابُهُ　　　مُتَقَنِّسٍ بادي الحَديدِ لُهامِ**
**فيهِ الحَديدُ وَفيهِ كُلُّ مَصونَةٍ　　　نَبعٍ وَكُلُّ مُثَقَّفٍ وَحُسامِ (٢)**

وقد وُصِفت القوس بمصونة، وهي اسم نكرة مضاف إليه، وفي تنكيرها تعظيمًا وتفخيماً لها، ثم وصفت بأنها نبع، وكل هذا يدل على جودتها وعظم أصلها، ممَّا يوحي بالقوة والمنعة لاقتناء كل ما هو جيد مصان محفوظ ، ولعل في تعبيره عنها بمصونة أنها سبب من الأسباب في حفظ صاحبها وصيانته من العدو ، وقد بدأ بذكرها بعد الحديد؛ لأن المقاتل في المعركة يكون لابساً درعه ليتقي وقع السهام؛ لأنَّ أول ما يبدأ به في المعركة رمي السهام، ثم يشتبك الجيشان، وتعمل الرماح والسيوف بعد ذلك، ولهذا كان ترتيب الشاعر هنا موفقاً -في رأي الباحث-، وقد قدَّم الشاعر هنا فيه – التي هي خبر في الأصل — دلالة على الاهتمام والاختصاص، فهذا الجيش مهتم بنفسه،حيث اتَّخذ كل وسائل الحفظ والسلامة والمقاومة للعدو ، ولهذا جاء تركيب الشاعر للبيت موفَّقًا كذلك، فقد فصل الشاعر بين

(١)"ديوان" عبيد بن الأبرص ، شرح أشرف أحمد عدرة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٤هـ– ١٩٩٤م، ص ١١٤ — ١١٥ .

(٢)سلفاً لأرعن : مقدمة له ، الأرعن : الجيش ، ضبابه : غباره ، المتقنس : لابس القلنسوة ، بادي الحديد : ظاهر السلاح ، اللُّهام : الجيش العظيم .الحديد : السلاح ، المصونة : المحفوظة ليوم الحاجة ، النبع : شجر تصنع منه القسيّ والسهام ،المثقف :الرمح المصلح ، الحسام : السيف القاطع .( ينظر الديوان ، ص ١١٤ — ١١٥ )

مصونة وكلمة نبع؛ وفي هذا دلالة على كمال الاتصال بينهما، وأنَّ الثانية جاءت بياناً لمصونة منعًا للإيهام ؛ لأنَّ النبعة كذلك تكون مصونة في مكان مرتفع ، ثم يصونها صاحبها ويحافظ عليها ويتعهَّدها بالصيانة والعناية، وهذا من البلاغة بمكان.

وإلى وصف آخر للقوس عند شعراء الجاهلية ، لفارس زبيد عمرو بن معدي يكرب ، بعدما ذكر ما أعده للحرب من درع ورمح وسيف ، وقوس وأسهم ، وفرس كأنه ثور الوحش في نشاطه ، ثم يفخر بآبائه ومجدهم وما هو عليه من خلق كريم ، وما سيتطرق له البحث وصفه لقوسه وسهامه والسياق الذي وردت فيه فيقول(١):

**وذاتَ عِــدادٍ لَهَا أَزْمَلٌ ... بَـــرَتْهَا رُماةُ بَنـــي وابِشِ**
**وكُلَّ نَحِيضٍ فَتِيقِ الغِرَارِ ... عَزُوفٍ عَلَى ظُفُـــرِ الرَّائِشِ(٢)**

قوسه ذات عداد ، وجاءت معطوفة على مفاعيل سابقة ، والتقدير أعددت ذات عداد ،فهي مفعول به مسند ، وقد حذف المسند إليه — القوس – محافظة على الوزن ولدلالة السياق عليه .

ثم عاد لوصف صوتها بالأزمل وقد جاء موقعه مسند إليه وقدم المسند – الجار والمجرور – لها وفي هذا دلالة على التخصيص ، فهذا الصوت مخصص ومقصور على هذه القوس ، وقد جاء المسند إليه أزمل منكراً تعظيماً لهذه القوس ولصوتها المرهب للأعداء .

ثم انتقل لوصف سهمه بنحيض ، وفتيق الغرار ، وعزوف، وجميعها نكرات ؛ تعظيمًا لتلك الأسهم .

---

(١)الأصمعيات ، للأصمعي ، ت أحمد شاكر ، عبدالسلام هارون ، ط ٣ ، ق ٦٢ ، ص ١٧٧ .

(٢)(اللسان ) عداد القوس : صوتها ورنينها وهو صوت الوتر ، الأزمل : الصوت ، بنو وابش من عدوان وهم أرمى الناس.نحيض : يعني سهماً مرققاً ، نصل فتيق : حديد الشفرتين جعل له شعبتان ، كأن إحداهما فتقت من الأخرى ، الغرار: الحد ، عزوف : تسمع له صوتاً ، الرائش : الذي يريش السهم .( ينظر الأصمعيات ، ص ١٧٧ )..

والأبيات جاءت في سياق تعداد لبعض صفات أسلحته ؛ فالمجال مجال فخر واعتزاز بهذه الأدوات الحربية حال السلم، ولو كان وصفه في أثناء حرب دائرة ؛ لما كان بهذا الإسهاب والإطالة التي لا يحتملها ميدان المعركة .

ويصف لنا عبد مناف بن ربع الجربي أزاميل قوسه أثناء الحرب ، وأنها استحالت وكأنها بهذا الصوت الأرشية التي تجذب الماء من البئر حيث يقول[1]:

**وَلِلقِسِيّ أَزاميلٌ وَغَمغَمَةٌ حِسَّ الجَنوبِ تَسوقُ الماءَ وَالبَرَدا**
**كَأَنَّهُم تَحتَ صَيفِيٍّ لَهُ نَحَمٌ مُصَرِّحٍ طَحَرَت أَسناؤُهُ القَرِدا[2]**

"فهو يصف الأعداء هنا في المعركة ، وكأنهم تحت سحاب له صوت ينتحم مثل نحيم الدابة ، صبَّ ماؤه وانكشف، فصار غيماً خالصاً، ونفى عنه القرد ، وهو من السحاب المتلبِّد المتراكب بعضه على بعض ، فهو يبيِّن رشقهم ،كأنه مطر نزل عليهم من هذه السحابة الصيفية".[3]

وسياق الأبيات في حرب وقعت للشاعر وقومه، وهذا ممَّا وقع فيها، فلأصوات القسيِّ فيها أزاميل وغمغمة، تشبه في صوته صوت حس ريح الجنوب التي تسوق السحاب ، وأنَّ ما يقع عليهم من النبال كالمطر المتتالي من سحابة صيفية كما ذكر.

و الشاعر في أبياته ، قد تحدث بألفاظ إيقاعها يوحي بالمهابة والإخافة للأعداء، فقد ذكر قبل هذيْن البيتيْن ألفاظًا؛ مثل ( يلعج ، ضرباً ، عارضاً، نهنهة ، جابئاً لبدًا ،

---

(١)شرح أشعار الهذليين ج ٢ ، ص ٦٧٥ .

(٢)أزاميل : جمع أزمل ، وهي أصوات تختلط فتصير واحداً، الغمغمة: الصوت لا تفهمه، حس الجنوب: صوتها. صيفي : سحاب ، له نحم : له صوت ينتحم مثل نحيم الدابة ، مصرح : صرح بالماء ، صبه وانكشف فصار غيماً خالصاً ، وت=نفى عنه القرد ، القرد : من السحاب الصغار المتلبد المتراكب بعضه على بعض ، طحرت : دفعت ، الأسناء : جمع سنا وهو الضوء . (ينظر شرح أشعار الهذليين ج ٢ ، ص ٦٧٥ )

(٣)شعرية القوس ، ص ٥٩٤ .

شغشغة ، هيقعة ) وكلها ألفاظ تناسب سياق الفخر بالجيش في الحرب، وفيها ما يوحي بالقوة والمنعة وإرهاب العدو بأصواتها وأفعالها .

وكان في تنكير الشاعر للمسند الخبر أزاميل وغمغمة دلالة على التعظيم والتفخيم ، وقد وصل الشاعر بينهما بحرف العطف الواو؛ وذلك لاتِّحادهما في المعنى، فكلاهما صوتان وقد أحسن الشاعر حين وصل بينهما؛ إذ الفصل هنا موهِم وغير مناسب .

و يصف أبو ذؤيب الهذلي قِسيَّ قومه في الحرب بالجعثميات وكأن صوتها صوت نساء ثكالى يجمعن بين البكاء والأزامل – وهو العويل من شدة الفقد – ، ومفتخراً بها وبصوتها فيقول(١):

**كَأَنَّ ارتِجازَ الجِعثُمِيّاتِ وَسطَهُمْ نَوائِحُ يَجمَعنَ البُكا بِالأَزامِلِ** (٢)

وفيه تشبيه لصوت القسي بصوت تلك النساء النوائح ، وفي تعبيره بالصفة وترك الموصوف وهي القسيّ؛ تصوير لقوتها .

وأمَّا المفضل النكري، فيصف مقابلتهم للأعداء بنبال تغصُّ بها حلوقهم وحناجرهم، و وصف منظر انطلاقها ؛ في قصيدته التي وصفت بالمنصفة، فيقول(٣):

**رَمَيْنَا في وُجُوهِهِمُ بِرِشْقٍ تغَصُّ بِهِ الحَنَاجِرُ والحُلُوقُ**
**كأنَّ النَّبْلَ بَيْنَهُمُ جَرَادٌ تُكَفِّيـهِ شـــآمِيَةٌ خَـــرِيقُ**
**وجَاوَزْنَا المَنُونَ بغيرِ نِكْسٍ وَخاظِي الجِلْزِ ثَعْلَبُـهُ دَمِيقُ** (٤)

فالشاعر جاء بهذه الأبيات في سياق قصيدة ، أنصف فيها أعداءه ، وأنهم يملكون من القوة ما يملكه قومه ، وفي هذا كناية عن قوة قومه وبسالتهم ؛ لأنهم سيقاومون مَنْ

---

(١) شرح أشعار الهذليين ، ج١ ، ص ١٦٢ .

(٢) بنو جعثمة : من اليمن وأراد بالجعثميات ، القسيّ ، وارتجازها : صوتها ، شبه أصوات الأوتار بأصوات نوائح يجمعن البكاء بالرنة والصياح ، ويشفعن : أي يجمعنه بالرنة والعويل .( ينظر شرح أشعار الهذليين ج١ ، ص ١٦٢ )

(٣)الأصمعيات ، وتسمى هذه القصيدة بالمنصفة ق ٦٩ ، ص ٢٠١ .

(٤) الرشق: الرمي بالسهام ، تكفئه: تقلبه، وسهل الهمزة. شآمية: ريح تهب من الشام. الخريق: الباردة الشديدة الهبوب، النكس: سهم لا خير فيه ، يجعل سنخه نصلا ونصله سنخا ، الخاظي: الغليظ الصلب. وفي صلب الشنقيطية «الجلز: أصل السنان ومعظمه. والثعلب: ما دخل في جبة السنان من الرمح. وإنما يعني سهمًا». ونراه عني بالنكس السهم، وبما بعده الرمح. الدميق: المدخل، يقال دمقه فهو مدموق ودميق، أي أدخله.( ينظر الأصمعيات ،ص ٢٠١)

يشابههم في القوة والمنعة ، وفي أثناء فخره شبه رميهم بسهام منطلقة كالجراد –الذي تسوقه ريح الشمال الباردة – في سرعتها متجهة إلى حلوقهم وحناجرهم؛ فهي مواطن لسهامهم، تتركَّز فيها، إشارة منه لبيان مهارتهم في الرمي وإصابتهم للمواضع القاتلة في العدو وهي الحناجر والحلوق ، فرميهم والأعداء مقبلون ، وهذا أبلغ في الشجاعة والإقدام .

وسلموا من الموت لعدم اقتنائهم السهام النكس الضعيفة ، التي ينكسر مشق رأسها ، فيجعل أعلاه أسفله ، وفي تنكيره للفظة نكس دلالة على حقارته ووضاعة شأنه دلَّ على ذلك السياق الموحي بأنهم انتصروا وسلموا من الموت بسهام جيدة الصنع .

وقد ورد هذا الوصف –عند غيره من الشعراء– للسهم والقوس، فالنكس وصف بالضعف، وهو يطلق عليه إذا كان كذلك ، فيقول أبو المثلم الهذلي(١):

**أَو كُنت ذا صارِمٍ عَضبٍ مَضارِبُهُ صافي الحَديدَةِ لا نِكسٌ وَلا جَبِلُ**
**وَسَمحَةٌ مِن قِسِيِّ النَبعِ كاتِمَةٌ مِثلُ السَبيكَةِ لا نِكْسٌ وَلا عُطُلُ(٢)**

وعند الشنفرى سهم ليس بنكس ولا متعوِّج، حيث يقول(٣):

**وَمُسْتَبْسِلٍ ضَافِي القَمِيصِ ضَمَمْتُهُ بِأزْرَقَ لا نِكْسٍ ولا مُتَعَوِجِ(٤)**

وقد ورد وصف القسيّ بالزرقة عند كثير من الشعراء الجاهليين الذين وصفوا القسيَّ والسهام في شعرهم ومنهم الشنفرى في بيته السابق، و من أبرزهم امرؤ القيس بن حجر، حين استفهم متهكِّماً من عدوه الذي تراوده نفسه لقتله في قوله(١):

---

(١)شرح أشعار الهذليين ، ج١ ، ٢٧٢ – ٢٧٥ .

(٢)صارم : سيف ، عضب : قاطع ، مضاربه : جمع مضرب وهو الموضع الذي يضرب به منه ، النكس الضعيف ، الجبل : الغليظ وقيل الكز الضعيف .سمحة : سهلة ليست بكزة ، كاتمة ليس فيها شق ، مثل السبيكة : في صفائها وحسنها ، العطل : التي ليس عليها وتر ، أي مثل صحيفة الذهب حمراء أي هي نبعية ، فما بري منها أحمر ؛ لأن لون خشيبها أحمر. ( ينظر شرح أشعار الهذليين ، ج١ ، ٢٧٢ – ٢٧٥)

(٣)"ديوان" الشنفرى، ص٤٠.

(٤)المستبسل : الذي يقبل على الحرب مستقتلاً ، الأزرق : السهم ، النكس : السهم الذي ينكسر مشق رأسه ، فيجعل أعلاه أسفله .( ينظر الديوان ، ص ٤٠ )

**أَيَقْتُلُنِي وَالمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أَغْوَالِ**(٢)

فلا يمكن لعدوه أن يتجرَّأ أن يقترب منه، وقد كانت تلك الأسلحة ضجيعته وملازمة له ، من سيف مشرفي وسهام محدَّدة زرق،و في وتنكيرها ، وتشبيهها بأنياب الأغوال تبشيعاً لها وإمعاناً منه في وصفها، بما يكون محلاً لإخافة العدو، بأنياب الشياطين، وبيان التشبيه في البيت يأتي في موضعه –بإذن الله– .

وقد ورد هذا الوصف في القرآن الكريم للمجرمين بأنهم يحشرون زرقاً، وذلك في قوله تعالى : (يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا) (٣).

وذكر القرطبي في تفسير هذه الآية : " زرقا حال من المجرمين ، والزرق خلاف الكحل . والعرب تتشاءم بزرق العيون وتذمه ؛ أي تشوه خلقتهم بزرقة عيونهم وسواد وجوههم . وقال الكلبي والفراء : زرقا أي عميا . وقال الأزهري : عطاشا قد ازرقت أعينهم من شدة العطش ؛ وقاله الزجاج ؛ قال : لأن سواد العين يتغير ويزرق من العطش . وقيل : إنه الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة ، يقال : ابيضت عيني لطول انتظاري لكذا . وقول خامس : إن المراد بالزرقة شخوص البصر من شدة الخوف ؛ قال الشاعر :

لقد زَرِقتْ عيناك يا ابنَ مُكَعْبِرٍ كما كُلُّ ضَبِّيٍّ من اللُّؤمِ أَزْرَقُ

يقال : رجل أزرق العين ، والمرأة زرقاء بينة الزرق . والاسم الزرقة . وقد زرقت عينه بالكسر وازرقت عينه ازرقاقا ، وازراقت عينه ازريقاقا . وقال سعيد بن جبير : قيل لابن عباس في قوله : ونحشر المجرمين يومئذ زرقا وقال في موضع آخر : ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما فقال : إن ليوم القيامة حالات ؛ فحالة يكونون فيه زرقا ، وحالة عميا " (٤).

---

(١)"ديوان" امرئ القيس،ص ٣٣ .

(٢) المشرفي : سيف نسب إلى قرى الشام ، يقال لها المشارف ، وأراد بالمسنونة الزرق : سهاماً محددة الأزجة صافية ، الأغوال : الشياطين . (ينظر ديوان امرئ القيس،ص ٣٣ )

(٣) سورة طه ، آية ١٠٢ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ،ت د عبدالمحسن الأحمد ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ،١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م ، ج ١٤ ، ص ١٣٥ .

وقد ورد وصفها بالزرقة في مجال الفخر والاستماته في الإقبال على الحرب عند الشنفرى، في أبيات خاصة بالقوس وصوتها وسهامها ؛ لأهميتها عنده وأثرها الفعَّال في إخافة العدو وردِّه، فيقول(١):

**وَمُسْتَبْسِلٍ ضَافِي القَمِيصِ ضَمَمْتُهُ بِأَزْرَقَ لانِكْسٍ ولا مُتَعَوِجِ**

**عَلَيْهِ نُسارِيٌّ على خُوطِ نَبْعَةٍ وَفُوْقٍ كَعُرْقُوبِ القَطَاةِ مُدَحْرَجِ(٢)**

فالشاعر يُحدِّث نفسه مفتخراً بإقدامة في مواجهة أي كارثة تمر به؛ سواءَ أكانت من إنسان أو حيوان ، فهو مدجَّج بأجود ما يملك من سلاح ، قوس نبعية ذات سهام زرق ليست بالضعيفة ولا المعوَّجة ، عليها أجود أنواع الريش ، ريش النسر ، و قد جاء وصفه بأزرق مجرور بحرف الجر الباء ؛ وهذا دليل على الملاصقة والملازمة ، متعلِّقاً بالفعل ضمّ؛ وذلك لتخصيصه به وقصره عليه .

ووصف زيد الخيل سهامه بهذه الصفة في بيتٍ فردٍ ، حيث يقول(٣):

**وَزُرقٌ كَسَتهُنَّ الأَسِنَّةُ هَبوَةً أَحَدُّ مِنَ الماءِ الزُلالِ كَليلُها(٤)**

فسهامه زرق كستها الأسنة غبرة ، فمن شدة صفائها كأن عليها غبرة ، وقد جاءت مبتدأً منكراً ؛ وفي ذلك تعظيم لها ، وتعجيل بمساءتها للعدو.

و للقسيّ و السهام عند الجاهليين كبير الأثر في حياتهم –كما ذكر – ، إلا أنها عند الصعاليك تشكل جزءاً لا يتجزأ من حياتهم فهي تعتبر ألصق ما يكون بهم من سلاح ؛

---

(١)"ديوان" الشنفرى ، ص ٤٠ .

(٢)المستبسل : الذي يقبل على الحرب مستقتلاً ، الأزرق : السهم ، النكس : السهم الذي ينكسر مشق رأسه ، فيجعل أعلاه أسفله .النساريّ : ريش النسر ، الخوط : الغصن الناعم ، وكل قضيب ما كان ، النبعة : واحدة شجر النبع الذي تتخذ منه القسيّ ومن أغصانه السهام .الفوق : موقع الوتر من رأس السهم ، العرقوب من الدابة : هو في رجلها كالركبة في يدها ، القطاة : طائر في حجم الحمام يعيش في الصحراء خصوصًا. ( ينظر الديوان، ص ٤٠)

(٣)كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني ، صححه سالم الكرنكوي ، ١٨٧٢هـ – ١٩٥٣ م ، دار النهضة الحديثة ، بيروت لبنان ، ج٦ ن ص ١٤.

(٤) زرق : نصال بيض ، الأسنة : المسان التي يحدد بها واحدها سنان ، هبوة : يعني من صفائها كأن عليها غبرة ، والكليل في البيت غير الحاد . ( ينظر المعاني الكبير في أبيات المعاني ، ج ٦ ص ١٤ )

لملازمتها لهم ، ولما لها من خاصية في إصابة العدو عن بعد ، وللصيد بها ، لاسيما حينما تمسك به كف قوية ، فيغدو حينها الخطر الأكبر الذي يمثل وبالاً وخيماً عليهم. فاستحكمت العلاقة وتوثقت أواصرها بين الصعلوك وسهامه ، فوهبها من نفسه الشيء الكثير؛ لأنها تظهر براعته و تمكنه من إصابة خصمه .على نحو ما جاء في وصف الشنفرى لسهام تأبط شراً قائلاً : [١][٢]

**لَهَا وَفْضَةٌ فيها ثلاثونَ سَيْحَفا إذا آنسَتْ أُولَى العَدِيِّ اقْشَعَرَّتِ**

**وَتَأْتِي العَدِيَّ بارِزا نِصْفُ سَاقِها تَجُولُ كَعَيْرِ العَانَة المُتَفَلِّتِ**

**إذا فَزِعُوا طارَتْ بأبْيَضَ صَارِمٍ وَرَامَتْ بما في جَفْرِها ثمَّ سَلَّتِ** [٣]

فوصفها بالسيحف؛ وهو السهم العريض النصل، وقد جاء تمييزاً لما في هذه الجعبة ، وقد نكَّرها إشارة منه إلى قوتها ، و أتى بأداة الشرط إذا متلوَّة بالفعل الماضي آنست ليدل؛على أنَّ هدفها محقَّق لا محالة، فهي مجهزة للقاء الأعداء ، فبمجرَّد إحساسها بأي خطر ، تبادر بإصابته ، وهنا استعارة لطيفة يأتي بيانها .

ولحروف الجر في — لها وفيها – دلالتها فإنَّ كلاً منهما وقع خبرًا مقدَّمًا للمبتدأ، وفي هذا التقديم للمسند الجار والمجرور تخصيص للمسند إليه بعدهما ، وتنبيهاً من أول الأمر على أنهما خبرٌ، لا نعت لما بعدهما .

وقد اتَّخذ صخر الغي من صوت قوسه بُعداً آخر، فجعله كصوت العدَّائين الذين يبحثون عن شيء فقدوه؛ ليهزوا به الأعداء في ساحة المعركة، حيث يقول[٤]:

---

(١)الوصف لدى الشعراء الصعاليك ، ص ١٥٠ . بتصرف .

(٢)"ديوان" الشنفرى ، ص٣٦ .

(٣)الوفضة : جعبة السهام ، السيحف : السهم العريض النصل ، آنست : أحست ، العدي : جماعة القوم يعدون راجلين للقتال ونحوه ، اقشعرت : تهيأت للقتال .بارزاً نصف ساقها : يريد أنه مشمر جاد ، العير حمار الوحش ، العانة : القطيع من حمر الوحش .الأبيض : السيف ، الصارم : القاطع ، الجفر : الكنانة .( ينظر ديوان الشنفرى ، ص ٣٦ )

(٤)شرح أشعار الهذليين ، ج ١ ، ص ٢٥٦ — ٢٥٨ .

وَسَمحَةٌ مِن قِسِيّ زارَةَ صَفـ ـراءُ هَتوفٌ عِدادُها غَرِدُ
كَأَنَّ إِرنانَها إِذا رُدِمَت هَزمُ بُغاةٍ في إِثرِ ما فَقَدوا [1]

فمع سماحتها وسهولتها وطيب أصلها، إلاَّ أنَّ الوصف المتمثِّل في البيتيْن، يشكِّل سلاحاً قوياً من خلال الإيقاع والتأثير النفسي على الأعداء .

ففي البيت الأول صوت قوي لقوسه ، هتّاف مطرب للرامي ، مؤذٍ مرهب للمرمي، وصوت آخر لها، حين ينبض فيها، وكأنه صوت قوم يبحثون عن شيءٍ في أرض قفر ويهمس بعضهم لبعض بالكلام، فشبه الصوت بذلك .

وفي تنكير سمحة دلالة على تفخيمها وتعظيمها، وكذلك القيود التي تلي هذا الوصف تدل دلالة واضحة على منزلتها ، ومدى تأثيرها في الأعداء حين ملاقاتهم .

و وصف آخر لصوت القوس ، يقول ساعدة بن جؤية[2]:

وَصَفراءَ مِن نَبعٍ كَأَنَّ عِدادَها مُزَعزِعَةٌ تُلقي الثِيابَ حَطومُ[3]

إن قوس الشاعر صفراء نبعية من أجود أنواع القسيّ ، ذات صوت يشبه صوت الريح المزعجة ، التي تلقي الثياب بعيداً ؛ لشدة هوائها ، محطِّمةً ما تمر عليه .

ويقول أبو جندب الهذلي مفتخراً بنفسه حال لقاء الأعداء[4]:

وَكُنْتُ إِذَا قَوْمٌ بَغَونِي أَتَيْتُهُم بِمُسقِطَةِ الأَحبالِ فَقماءَ قِنطِرِ

---

([1])رهاب : رقاق يعني سهاماً ، مجناً : ترس ، قد أجني : أي حني ، أجد : شديدة .صارم : سيف ، وهو الماضي، خشيبته : طبيعته ، مهو : رقيق الشفرتين ، ربد : فيه لمع تخالف لونه ، والربدة : الغبرة .ويصف القوس فيقول: وسمحة: أي سهلة ، زارة حي من أزد السراة ، هتوف : مصوتة ،عدادها : صوتها ، غرد : شديد الصوت .إرنانها : صوتها، ردمت : أنبض فيها ، هزم : صوت .( ينظر شرح أشعار الهذليين ، ج ١ ، ص ٢٥٦ – ٢٥٨)

([2])شرح أشعار الهذليين ، ج٣ ، ص ١١٦١ .

([3])عدادها : صوتها ، مزعزعة : أي كأن حفيفها حفيف ريح ، حطوم : تحطم ما مرة به ، أي ريح شديدة ، والعداد : الحفيف .( ينظر شرح أشعار الهذليين ، ج٣ ، ص ١١٦١ )

([4]) شرح أشعار الهذليين ، ج١ ، ص ٣٥٦ .

**إِذا أَدرَكَت أولاهُمُ أُخرَياتُهُم    حَنَوتُ لَهُم بِالسَندَرِيِّ المُوَتَّرِ**(١)

فالشاعر يفتخر بنفسه، وأنه على الأعداء داهية ، قبيح المنظر، تُسقط المرأة بسببه حملها ، إذا أدركهم مجتمعين عطف لهم قوساً من السندريِّ تحمل سهماً موتر ، يفرِّق جمعهم، وفي ذكر المتعلقات لوصف تلك القوس ما يدل على القوة والإخافة وصدِّ العدو من التقدُّم ؛ لما سيلحقه من خسائر جرَّاء تقدُّمه .

وذكر يوسف خليف في كتابه الشعراء الصعاليك قوله ،" أمَّا عمرو ذو الكلب فيعنى بوصف نصال سهامه؛لأنها التي يكمن في سنانها الموت، فهي حيناً رماح طائرة يكسوها ريش منسول، فيقول(٢):

**وَ ثُجْرَاَ كَالرِّمَاحِ مُسَيَّرَاتٍ    كُسِنَ دَوَاخِلَ الرِّيشِ النُّسَالِ**(٣)

وهي حيناً آخر كأنها شوك العضاة :

**وَفِي قَعرِ الكِنانَةِ مُرهَفاتٌ    كَأَنَّ ظُباتِها شَوكُ السَّيَالِ**(٤)

فسهام الشاعر تشبه الرماح جودة وقوة ، وقد كساها ريشاً منسولاً ، و سهاماً أخرى رقيقة حادة ، تشبهه في حدها شوك السيال وهو شجر من العضاة .

وقد جاء أوصاف السهام والقوس في هذه الأبيات منكرات، وهذا أبلغ في التصوير وأنكى بالعدو وأدعى لصدِّه وإذلاله بهذه الصفات المتتالية لهذه الأسلحة الفتَّاكة.

---

(١)مسقطة الأحبال : داهية ، أي بغيتهم بداهية تسقط منها النساء الأحمال من شدتها ، فقماء : في فمها عوج ، أي قبيحة المنظر ،قنطر ك داهية .يريد : إذا اجتمعوا ، حنوت : أي عطفت ، السندري : قسيُّ جياد ، يكون السهم سندرياً ، ضرب منها يقال لها السندرية ، موتر : مفوق ، وهو أن يجعل الوتر في الفوق .السندري : ضرب من الخشب تعمل منه القسي والنبال .( ينظر شرح أشعار الهذليين ، ج ١ ، ص ٣٥٦ ) .

(٢)الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ،د. يوسف خليف ، دار غريب ، القاهرة ، د . ط ، ص ١٩٣.

(٣)ثجر : نصال عراض الأوساط ، الواحد أثجر ، النسال : التي نسلت ( ينظر شرح أشعار الهذليين، ج ٢، ص، ٥٦٩ )

(٤)الكنانة : الجعبة ، مرهفات : مرققات ، يعني سهاماً ، الظبة : الحد ، السيال : شجر من العضاة . ( ينظر المصدر السابق )

وقد ورد وصف القسيّ والسهام في سياق قصيدة الرثاء، ومن ذلك قول ساعدة بن العجلان يرثي أخاه مسعوداً [١]:

فَلقدْ بَكيتُكَ يَوْمَ رَجلِ شَواحطٍ ... بِمَعابلٍ صُلْـــعٍ وأبيَضَ مُقطَعِ

شُقَّــتْ خَشِيبَتُهُ وأُبــــرِزَ أَثْــرُهُ ... في صَفحَتيــهِ كَالطَرِيقِ المُهيَعِ

وَرَميتُ فوقَ مــُـلاءَةٍ مَحْبُوكَــة ... وَأبَنــتُ للأشْهَـــــادِ حَزّةَ أَدعِي

وَلَحَفتــَـهُ مِنهــَـــا حَلِيفاً نَصلُه ... حــَـدٌّ كحَدِ الرُمحِ ليسَ بِمنزعِ[٢]

يذكر الشاعر بأنَّ بكاءه يوم شواحط ، يقصد به رميهم بسهام عريضة النصل وينادي أخاه ، عليه قوس مشدودة ، وأخذ يرمي ويدَّعي ويبيّن للناس فعله فيه وأثره عليه، فقد أصابه بسهم حاد ، نصله ليس من السهام الرديئة التي لا تمضي حين يرمى بها،حتى جعله لحافاً له .

وقد وصفت السهام بالمعابل الصلع وبالحليف ، والقوس بالملاءة المحبوكة، كل هذه الألفاظ جاءت في سياق رثاء ؛ ممَّا جعلها ألفاظاً وأوصافاً صادقة ومعبرة.

ويبدو أنَّ العرب قد عرفوا أنواعاً من القسيّ الفارسية، التي وصلت إليهم عن طريق التجارة مع الأمم الأخرى؛ منها الشدف، وقد ورد ذكرها في شعر أمية بن أبي الصلت، واصفاً مهارة الرمي بها، فيقول[٣]:

لايَضجَرونَ وَإن حُرَّت مَغافِرُهُم ... وَلا تَرى مِنهُم في الطَعنَ مَيّالا

---

(١)شرح أشعار الهذليين ، ج١ ، ص ٣٤٠ – ٣٤١ .

(٢)شواحط: واد ، رجل : رجَّالة ، المعبلة : سهم عريض النصل ، النجيف : العريض ، مقطع : سيف قاطع ، صلع: برَّاقة .شقت خشيبته : المقصود النبل إذا طبع وعرض قبل أن يصقل ، الخشيبة : الطبع ، أثره : فرنده .يقول : رميت وعلى ملاءة فوق ملاءة ، أي قوسي تعلوها ، وهي مشدودة في وسطه ، محبوكة ، محتزم بها ، حزة : حين وساعة ، أبنت : بينت ، الأشهاد : من كان شاهداً حليف: سهم حاد ، المنزع: الذي لا يمضي إذا رمي به، لحفته: جعلته لحافاً يلبسه، أي ألصقته به. (شرح أشعار الهذليين ، ج١ ، ص ٣٤٠ – ٣٤١ )

(٣)" ديوان" أمية بن أبي الصلت ، ت د عبدالحفيظ السطلي ، المطبعة التعاونية بدمشق ، ص ٤٥٧.

يَرمونَ عَن شُدُفٍ كَأَنَّهَا غُبُـطٌ        بِزَمْخَرٍ يُعْجِلُ المَرميَّ إِعْجَالا(١)

ويتَّضح من خلال أوصاف القسيّ والنبال في مجال الحرب ، تجد التركيز على السهام، ممَّا جعل الشعراء الجاهليين ينوِّعون في وصفها ؛ وقد يكون السبب في ذلك أنها رسل الموت للأعداء، وفيها تكمن إصابة العدو والنيل منه ، بخلاف الأداة الرامية ، مع أنها لم تُغفَل ، بل تُحدِّث عنها ، ونُوِّع في وصفها بما يتناسب مع السياق .

(١)حرت : اشتدت حرارتها ، المغافر: مفردها مغفر ، وهو زرد من الدروع يلبسه المحارب تحت الخوذة ثم يرسله إلى عنقعه حتى يبلغ الدرع فيقي عنقه ، الميال : الاكثير الميل وأراد به الأميل ، وهو من لا يثب على ظهور الخيل ، وقيل : هو الذي لا سيف معه ، أو الذي لا رمح معه ، أو الذي لاترس معه ، أو الجبان عامة ، وكلها صالحة في هذا البيت .الشدف : القسيّ الفارسية ، الواحدة شدفاء ، وهي العوجاء ، الغبط : مفردها غبيط ، وهو الرحل ، شبه القسيّ الفارسية بخشب الرحل ، الزمخر : السهام . (ينظر الديوان ، ص ٤٥٧)

# الفصل الثاني

## البناء الفني ودلالاته في وصف القوس :

المبحث الأول : الأبنية وعلاقات التراكيب ودلالاتها.

المبحث الثاني :الصور البيانية ودلالاتها.

المبحث الثالث :المحسنات البديعية ودلالاتها.

## المبحث الأول: الأبنية وعلاقات التراكيب ودلالاتها :

إنَّ للأبنية والتراكيب في الكلام عموماً ، وفي الشعر خصوصاً دلالات تتضح من خلال ترابط الأبيات سياقًا وتركيبًا ، مما يضفي على الكلام حُسنًا ، وذلك من خلال علوم البلاغة العربية و بالأخص علم المعاني منها ؛ لاختصاصه بالأبنية والتراكيب وتقسيماتها ، من تقديم وتأخير وذكر وحذف و تعريف وتنكير وفصل ووصل وقصر وإيجاز وإطناب إلى آخره ، و لا يكتشف ذلك إلا أهل الفصاحة والبيان والذوق الرفيع ، ممن تقودهم ذائقتهم الأدبية والشعرية إلى توخي معاني الجمال في الكلام .

ومن خلال ما سبق سيتعرض البحث لوصف القسيِّ والسهام في شعر الجاهليين ، توضيحاً لما ورد فيه من أبنية و تراكيب لها دلالاتها البلاغية التي تجعل من القصيدة عقدًا منظومًا، وسلسلة مترابطة ، وذلك بربط بعض الأبيات ببعض .

والتراكيب جمع "تركيب" ويطلق على مقابل الإفراد في الألفاظ ، فإن اللفظ نوعان مفرد ومركب، ولا يمكن الإفادة به إلا إذا ركّب بغيره، يقول الشيخ عبد القاهر(١): " والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف ، ويُعمَد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب " ، ومثل لذلك بقول امرئ القيس(٢) :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

فلو غيّرنا ترتيبه ، وقلنا : "منزل قفا ذكرى من نبك حبيب" أخرجناه من كمال البيان ، إلى مجال الهذيان ،وأسقطنا نسبته من صاحبه ، وقطعنا الرحم بينه وبين منشئه ، بل أحلنا أن يكون له إضافة إلى قائل ، ونَسَبٌ يختص بمتكلم ، ثم يقول الشيخ: " وفي ثبوت هذا الأصل ما تعلم به أن المعنى الذي له كانت هذه الكلم بيتَ شعر أو فصلَ خطاب ، هو ترتيبها على طريقة معلومة ، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة ".

---

(١)أسرار البلاغة ،للشيخ عبد القاهر الجرجاني تعليق :الشيخ محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ، ص ٤ — ٥ .

(٢)"ديوان" امرئ القيس ، ص٨ .

وممن أكثر وصف القسيّ والسهام أوس بن حجر الذي مرّ ذكره في مواضع سابقة حول سياقات وصف تلك الأداة ، و سيفصل من خلال علم المعاني القول في هذا المبحث ، وذلك ببيان ما في الأبيات من معانٍ بلاغية تجدر الإشارة إليها ، والوقوف عندها ، فيقول أوس في قصيدته المشهورة بوصف القوس :

**وَمَبضوعَةً مِن رَأسِ فَرعٍ شَظِيَّةً بِطَودٍ تَراهُ بِالسَحابِ مُجَلَّلا**

**عَلَى ظَهرِ صَفوانٍ كَأَنَّ مُتونَهُ عُلِلنَ بِدُهنٍ يُزلِقُ المُتَنَزِّلا**[1]

هذه الأبيات وما قبلها في القصيدة جاءت عرضاً لأسلحة الشاعر مفتخرًا ومعتدًا بها ، و قد عبر عنها بصورة التنكير المتتابع ، وهو ما يظهر في هذين البيتين ، فالملاحظ يجد أن مبضوعة صفة للقوس ، ويظهر حذف المسند المسند إليه في قوله ومبضوعة حيث التقدير : انتقيت قوساً مبضوعة ،وفي هذا الحذف إيجازاً ولشد انتباه السامع لهذه المبضوعة المنتقاة ، وقد قال عبد القاهر الجرجاني عن الحذف : " هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر ، أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة ، أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن ".[2]

وفي تنكير لفظ الفرع إشارة لعظم هذه القوس فهي منتقاة من أعلى قمة جبل عالٍ لا يصله إلا متمرس خبير باقتناص مثلها .

والتنكير: يأتي للإفراد أو للتعظيم والتهويل أو التحقير[3]، وهو من المعاني التي ظهرت بجلاء في وصف القوس .

---

(١) "ديوان" أوس ،ص٨٥-٨٦ .

(٢) دلائل الإعجاز ، ص ١٤٦ .

(٣)الإيضاح في علوم البلاغة ، المعاني والبيان والبديع ، للخطيب القزويني ، ت محمد عبدالمنعم خفاجي ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض ، المملكة العربية السعودية ،ط ١ ، ١٤٢٦ هـ = ٢٠٠٦ م ، ص ٥٧ – ٥٨ .

وشظيةً صفة للمبضوعة وجاءت احتراساً وتكميلاً حتى لا يظن أحد أنها مجتثة بغير عناية ولكن جاءت لتدل على أنها مقطوعة ومأخوذة من هذا الفرع بعنايه دقيقة وبعد طول تأمل ونظر .

وكلمة بطود تتميم للمعنى – والتتميم : أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة تفيد نكتة –. [١]، والمقصود أنها مأخوذة من علو فوق علو وارتفاع فوق ارتفاع حيث إنها قطعت من أعلى فرع في الشجرة التي هي مستقرة فوق طود عالٍ .

ثم أردفت بتتميم ثانٍ فقال ( على ظهر صفوان ) فأبان بهذا النعت عن شدة الوصول إليها ، وصونها عن الأيدي .

ثم انتقل إلى وصف حال الراعي الذي اختار هذه القطعة بدقة وعناية وخبرة فقال :

**يُطيفُ بِها راعٍ يُجَشِّمُ نَفسَهُ لِيُكلِئَ فيها طَرفَهُ مُتَأَمِّلا**

**فَلاقى اِمرَأً مِن مَيدَعانَ وَأَسمَحَت قَرونَتُهُ بِاليَأسِ مِنها فَعَجَّلا**[٢]

وقد اشتملت على أفعال مثل: يطيف ، يجشم ، يكلئ وكلها جاءت مضارعة لاستحضار الصورة ولبيان تجدد هذا الأمر وتكرره مرة بعد مرة .

ثم قال :

**فَلاقى اِمرَأً مِن مَيدَعانَ وَأَسمَحَت قَرونَتُهُ بِاليَأسِ مِنها فَعَجَّلا**

فأشار بتلك الفاء إلى أن هناك كلاماً دار في نفس الراعي محذوفاً حيث إنه لما أخذ يطوف بذلك الفرع ويقلب فيه طرفه حدثته نفسه بأنه لن يصل إليه وكأن الفرع أخذ يستفزه ويتحداه ، ومن ثم عبر بالفعل لاقى وما يدل عليه من صيغة المفاعلة التي جعلت كلاً من الراعي والميدعاني في مواجهة وتحدٍ كل منها يتحدى الآخر ويستفزه ،وأنه كلما زاد

---

(١)الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ٢٢٢ .

(٢)يطيف بها راعٍ، أي يطوف بهذه القوس المبضوعة راعٍ حافظ، يحفظ منها منظرًا والكالئ الحافظ، وكلأ يكلأ: بمعنى: أطال النظر، وميدعان: حي من اليمن من أزد السراة، قرونته: نفسه.( ينظر الديوان ، ص ٨٥ – ٨٦)

الأمر صعوبة وبعداً وازدادت له نفسه شوقاً وشغفاً ولذا يقول : وأسمحت قرونته باليأس منها فعجلا ، كما لك أن تتأمل التنكير في كلمة امرأً وما فيه من معنى التعظيم والتفخيم ؛ لما فيه من كمال المروءة والرجولة .

ثم أخذ يصف مرحلة ثانية من مراحل صنع هذه القوس فقال :

**فَلَمّا نَجا مِن ذَلِكَ الكَربِ لَم يَزَل يُمَظِّعُها ماءَ اللِحاءِ لِتَذبُلا**
**فَأَنحى عَلَيها ذاتَ حَدٍّ دَعا لَها رَفيقاً بِأَخذٍ بِالمَداوِسِ صَيقَلا**
**عَلى فَخِذَيهِ مِن بُرايَةِ عودِها شَبيهُ سَفى البُهمى إِذا ما تَفَتَّلا**(١)

فأشار بقوله : فلما نجا من ذلك الكرب ، إلى انتهاء تلك المرحلة الصعبة بفوزه بذلك الفرع الذي أخذ منه تلك المبضوعة التي اختارها بعناية وخبرة فأبان عن فخامة وهول ما حدث بقوله : ذلك الكرب فركز وأوجز العبارة وأشار بالبعد إلى شدة هول هذا الأمر وأنه لا يقدر عليه إلا من كان مثل هذا الراعي اليمنى الخبير الذي له مثل نفسه التي يتجشم بها الصعاب .

وأخذ يذكر خطوات صنعه لهذا القوس فقال : لم يزل يمظعها ماء اللحاء لتذبلا فأشار إلى أنه تركها لتتشرب ماء لحائها لكي تذبل وتأخذ شكلها النهائي الذي ينبغي أن تكون عليه ،وأسند الفعل يمظعها إلى نفسه وهو ليس الفاعل ، و لكنه لما كان سبباً في أن تتشرب ماء لحائها أسند الفعل إليه على سبيل المجاز العقلي الذي علاقته السببية .

ثم انتقل إلى مرحلة ثالثة بقوله :

**فَأَنحى عَلَيها ذاتَ حَدٍّ دَعا لَها رَفيقاً بِأَخذٍ بِالمَداوِسِ صَيقَلا**
**عَلى فَخِذَيهِ مِن بُرايَةِ عودِها شَبيهُ سَفى البُهمى إِذا ما تَفَتَّلا**(٢)

---

(١) سبق شرحها ، ص ٢٧.

(٢)سبق شرحها ، ص ٢٧.

فكلمة أنحى وما تدل عليه من هدوء وتمكن وعدم عجلة في براية هذا القوس ، ثم جرَّد من نفسه رفيقاً بأخذ المداوس فقال:

دعا لها رفيقاً بأخذ بالمداوس صيقلاً

وهو لم يدع أحداً ولكنه يقصد نفسه وجرد من نفسه خبيراً ببرى الأعواد ؛ ليبين عن مدى خبرته وتمرسه في هذا الأمر .

ثم أخذ يصف سهامه فقال :

**وَحَشوَ جَفيرٍ مِن فُروعِ غَرائِبٍ تَنَطَّعَ فيها صانِعٌ وَتَنَبَّلا**
**تُخُيِّرنَ أَنضاءً وَرُكِّبنَ أَنصُلاً كَجَمرِ الغَضا في يَومِ ريحٍ تَزَيَّلا**
**فَلَمّا قَضى في الصُنعِ مِنهِنَّ فَهمَهُ فَلَم يَبقَ إِلّا أَن تُسَنَّ وَتُصقَلا**
**كَساهُنَّ مِن ريشٍ يَمانٍ ظَواهِراً سُخاماً لُؤاماً لَيِّنَ المَسِّ أَطحَلا**
**يَخُرنَ إِذا أُنفِزنَ في ساقِطِ النَدى وَإِن كانَ يَوماً ذا أَهاضيبَ مُخضِلا**
**خُوارَ المَطافيلِ المُلَمَّعَةِ الشَوى وَأَطلائِها صادَفنَ عِرنانَ مُبقِلا**
**فَذاكَ عَتادي في الحُروبِ إِذا اِلتَظَت وَأَردَفَ بَأسٌ مِن حُروبٍ وَأَعجَلا**
**وَذَلِكَ مِن جَمعي وَبِاللَهِ نِلتُهُ وَإِن تَلقَني الأَعداءُ لا أُلقَ أَعزَلا** (١)

وبعد استعراض الشاعر لأحداث قوسه ، التي مضى بيان متابعته لها واقتناصها من رأس ذاك الجبل ، وما تلا ذلك من أحداث ، ثم انتقل بعد ذلك ليصف ماله علاقة أساسية بالقوس وهي سهامها المنطلقة بالموت منها ، وما حباها به من عناية وتزيين وحسن إعداد ،

(١) الجفير : الكنانة وحشوها السهام ، اغرب نوع من الشجر تصنع من السهام ، تنطع الصانع : تحذق في صناعته وتأنق ، وكذلك تنبل . الأنضاء جمع نضي : وهو السهم الذي لم يبر بعد ، شبهها في توهجها بجمر الغضا في يوم ريح ، تزيلا : تطاير.السخام من الريش : اللين الحسن ، الطحلة : لون بين الغبرة والبياض والسواد .المطافيل : ذوات الأطفال ، الشوى : الأطراف ، أطلاؤها : أولادها ، عرنان : وادي واسع في الأرض منخفض يوصف بكثرة الوحش ، مبقل : طلعت فيه البقلة ، فذاك عتادي : الإشارة راجعة إلى الرمح والسيف والقوس ، والعتاد : العدة ، التظت : التهبت . ( ينظر الديوان ص ٨٩ – ٩٠ ).

وكل ما ذكر من عناية بالقوس وسهامها في هذه القصيدة ،يبين استعداده التام بأجود ما يمكن أن يقتنى ، لصد العدو وإغاضته ، فهي نار مرسلة للأعداء من وقعت عليه أهلكته .

وقد صاغ الشاعر هذه التراكيب صياغة جعلت من الكلام اتساقاً وانتظاماً ، يدل من كان له ذوق بلاغي على معانٍ إبداعية ، ودلالات إيحائية .

فمن خلال ما سبق سيتعرض الباحث لشيء من المعاني والتراكيب التي أجاد في صياغتها الشاعر مع الإشارة إلى دلالة كل منها ، ومن ذلك عطفه بين تنطع وتنبل من قبيل عطف المترادفات وهو من الحيل التي يلجأ إليها الشاعر من أجل القافية ويريد بها أن يؤكد المعنى المكرر ويقويه أيضاً ،والمراد بيان شدة حذقه وتأنقه في صناعة السهام .

وفي قوله :تخيرن أنضاءً وركبن أنصلاً ، بنى الفعلين تخيرن وركبن للمجهول؛ للعلم بالفاعل إذ أنه هو الذي تخيرهن وركب بهن الأنصل ، كما أن في حذف المسند إليه تركيز على هذا الفعل وبيان شدة العناية في اختيار هذه الأعواد و تركيب الأنصل بها ، ودلالة على تعظيمه فهو أشهر من أن يذكر .

وقوله: في يوم ريح تزيلاً، تتميم للمعنى يراد به المبالغة في بيان توهجها وحدتها .

وفي تنكير كلمة صانع ؛ دلالة على التعظيم ، فهو صانع ليس أي صانع ولكنه ماهر حاذق مجرب متمرس .

( فلما قضى في الصنع منهن فهمه ) هذه جملة الشرط وهي جملة بها قدر من الإبهام حيث لم يبن عن مقدار فهمه وما هو الذي قضاه بها ، ولكنه قال : قضى منهن فهمه ليشير إلى أن ما قضاه بها أمراً غريباً لا يوصف ولا يقدر قدره إلا مجرب متمرس مثله في صناعة الأسهم والنبال .

**كَساهُنَّ مِن ريشٍ يَمانٍ ظَواهِراً سُخاماً لُؤاماً لَيِّنَ المَسِّ أَطحَلا**

وهذه جملة جواب الشرط أبانت عما زينها به من ريش يمان جعلها أحسن منظراً وأسرع نفاذاً .

وفصل بين تلك الصفات فقال : ( سخاماً لؤاماً لين المس أطحلا ) ؛ ليبين أن هذه الصفات متكاملة فيما بينها فهي بمنزلة الصفة الواحدة . ولذا أبان عن شدتها وسرعتها وقوتها فقال:

**يَخُرنَ إذا أُنفِزنَ في ساقِطِ النَدى وَإِن كانَ يَوماً ذا أَهاضيبَ مُخضِلا**

فقوله : في ساقط الندى ، تتميم وقوله : وإن كان يوماً ذا أهاضيب مخضلا ، تتميم آخر ،أي أنهن يصوتن في الندى وفي اليوم شديد الريح فكيف في الجفاف

وقد تحدث الشاعر عن نفسه في أغلب الأبيات السابقة بصيغة الغائب فقال :

تنطع فيها صانع ، فلما قضى في الصنع منهن فهمه ، كساهن ، وذلك من قبيل الالتفات من التكلم إلى الغيبة على رأي السكاكي ثم التفت في آخر الأبيات من الغيبة إلى التكلم فقال:

عتادي، جمعي، نلته ، لا ألق ، فهو التفات على رأي الجمهور والسكاكي .

والالتفات عند الجمهور: هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة – التكلم والخطاب والغيبة – بعد التعبير عنه بطريق آخر منها(١).

وهذا الالتفات فضلاً مما يكسبه للكلام من عذوبه ويجعل المخاطب أكثر نشاطاً ورغبه في سماعه ، فهو يبدأ كلامه بالغيبة ، ووفق في ذلك أيما توفيق إذ أنه عن طريق الغيبة أبان عن قصة ذلك الصانع الحاذق الذي أخذ يجمع هذه الأعواد ويبرها ويركب فيها الأنصل ويزينها بالريش ويجعلها على أكمل صورة وأبهى منظر وأحسن ما يكون الصنع ثم ختم بالتكلم الذي عاد بالكلام إلى طابعه الذي ينبغي أن يكون عليه ورونقه الأصلي الذي التفت عنه ليبين عن أن هذا مقصور مراد وتلك صنعة شعرية ماهرة .

وفي موضع آخر من قصيدة أخرى للشاعر تحدث فيها عن القوس ولعله يقف عند أبرز ما يظهر من معانٍ وتراكيب ، وجعل من هذه القصيدة دليلاً على اهتمامه بقوسه وعنايته بها وتتبعه لمواطنها حيث يقول :

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ٨٤ .

وَصَفْرَاءَ مِنْ نَبْعٍ كَأَنَّ نّذِيرَهَا إِذَا لَمْ تُخَفِّضْهُ عَنِ الوَحْشِ أفْكَلُ
تَعْلَمُهَا فِي غَيْلِهَا وَهْيَ حَظْوَةٌ بِوَادٍ بِهِ نَبْعُ طُوَالٍ وَحَثْيَلُ
وَبَانَ وَظْيَانَ وَرَنْفٍ وَشَوْحَطٍ أَلَفَّ أَثِيثَ نَاعِمٍ مُتَفَيّلُ
فَمَظَّعَهَا حَوْلَيْنِ مَاءَ كَأَنَّهَا تَعَالَى عَلَى ظَهْرِ العَرِيشِ وَتَنَزَّلُ
فمَلَكَ بِاللِّيطِ الذّي تَحْتَ قِشْرِهَا كَغَرْقَى بِيضٍ كَنَّهُ القَضِيبُ مِنْ عَلُ[١]

فقد جاءت قوسه موصوفة بصفراء ، و منصوبة بفعل محذوف تقديره تخيرت ، وحذف المسند والمسند إليه هنا للعلم بهما .

وجاء بلفظة نبع منكرة للتفخيم والنوعية أيضاً ، أي ليس نبعاً أي نبع ، ولكنه مخصوص يعرفه المتمرس الخبير ، وهنا كذلك ضيق مقام عن إطالة الكلام بسبب الإسراع إلى وصف قوسه و الإيجاز .

ثم تمم بقوله : وهى حظوة وذلك لبيان شدة ظهورها على الرغم من أنها لازالت قضيباً صغيراً ينبت في أصل الشجرة .

فمظعها :التمظع : شرب القضيب ماء اللحاء ، و التعبير بهذه الكلمة وما فيها من تشديد وثقل تشير إلى شدة عنايته والمبالغة في الاهتمام بها .

وعبر بالمضارع في كلمتي ( تعالى وتنزل ) والأصل تتعالى وتتنزل لاستحضار الصورة ولبيان تجدد هذا الأمر وتكرره مرة بعد مرة حتى يصلب ويقوى ويشتد .

**وعند الشماخ بن ضرار حول القوس ووصفها** [٢]:

**وَذَاقَ فَأَعْطَتْهُ مِنَ اللّينِ جَانِبًا كَفَى، وَلَهَا أَنْ يُغرِقَ السَّهْمَ حَاجِزُ**

---

(١) سبق شرحها ص ٢٩.

(٢) "ديوان" الشماخ، ص١٨٧.

إِذَا أَنْبَضَ الرَّامُونَ عَنْهَا تَرَنَّمَتْ تَرَنُّمَ ثَكْلَى أَوْجَعَتْهَا الجَنَائِزُ
قَذُوفٌ إِذَا مَا خَالَطَ الظَبْيَ سَهْمُهَا وَإِنْ رِيعَ مِنْهَا أَسْلَمَتْهَا النَّوَاقِزُ

كَأَنَّ عَلَيْهَا زَعْفَرَانًا تَمِيرُهُ خَوَازِنُ عَطَّار يَمَانٍ كَوَانِزُ
إِذَا سَقَطَ الأَنْدَاءُ صِينَتْ وَأُكْرِمَتْ حَبِيرًا وَلَمْ تُدْرَجْ عَلَيْهَا المَعَاوِزُ(١)

يظهر في هذه الأبيات الوصف الدقيق للقوس والعناية بها كذلك عند شاعر اهتم بوصفها اهتماماً لم يسبقه إليه إلا أوس بن حجر الذي أفاد منه الشاعر في بعض معانيه حول القوس وغيرها ، وقد أتى الشاعر بوصف لا يقل فيه عن أوس كما سبق ، فمن خلال هذه الأبيات يتضح للقارئ معانٍ بلاغية أثرت وأجزلت شعر الشماخ في قوسه وحبه لها ، فها هو ينكر لفظة جانباً للتفخيم أي بها من اللين جانب وأي جانب ،ويعبر بالجمع (الرامون ، الجنائز ) للدلالة على الكثرة والمبالغة ، وفي تعبيره بقذوف حيث حذف المسند إليه على القطع والاستئناف للاهتمام بهذا المقطع من الكلام وللاهتمام بهذا المسند وما يشتمل عليه من وصف كما أنه للإيجاز وضيق المقام .

ويتمم بقوله :تميره خوازن عطار يمان كوانز مبالغة في ادعاء شدة اصفراره ، ثم يحذف المسند إليه في صينت وأكرمت ؛ للعلم به وللاهتمام بالمسند ومحافظة على وزن البيت. فمن شدة اهتمامهم بها ما ذكره الشارح في جمهرة أشعار العرب: أي إذا كان الغيم غطيت بثوب جديد محبر(٢).

ومن اهتمامهم بالقوس قول ابن مقبل في وصف قوس الشريان في يد الرامي، وقد شبَّه صوتها بصوت الناقة(٣):

خَفيُّ الشَّخصِ يغمِزُ عَجسَ فرْعِ مِنَ الشُّريَانِ مِرزَامٍ سجُوعِ

---

(١) سبق شرحها ص ٣٧ .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ٨٤ .

(٣) "ديوان" ابن مقبل ، ص ١٣٠ – ١٣١ .

**إِذَا غمَزتْ تَرنَّمَ أَبهَرَاهَا حَنينَ النَّابِ بِالأُفْقِ النَّزُوعِ**[1]

فقوله ( خفي الشخص ) فيه إبهام يريد به أن يركز الذهن على صورة القوس وأن يجعل الرامي مبهماً حتى تذهب النفس فيه كل مذهب ، ونكر المسند فرع تعظيماً لها وأتى بصفات تزيد من مكانتها وقوتها فهي مرزام وسجوع ، وعبر الشاعر بالمضارع (يغمز) لاستحضار الصورة وبيان تجدد هذا الأمر منه وتكرره وتتابعه .

ويقول الشماخ [2]:

**فأَوْرَدَها ماءً بغَضْوَرَ آجِنًا لهُ عَرْمَضٌ كالغِسْل فيهِ طُمومُ**
**بحضرتهِ رامٍ أَعدَّ سَلاجِمًا وبالكفِّ طَوْعُ المركضيْنِ كَتُومُ**
**فأَنْفَذَ حِضْنَيْها وجالَ أمامَها طميلٌ يُفَرِّي الجوْفَ وَهْوَ سليمُ**

فمن خلال هذه الأبيات يلاحظ التنكير المتتابع في ( ماءً ، سلاجماً ، رامٍ ) أي أن الماء ماء منكر غريب لا يكاد يورد .

وأن السلاجم : وهي السهام ، سلاجم مهولة شديدة قوية صلبة ، وأن الرامي رام بارع عظيم ، وجميعها يوحي بالعظمة والكثرة .

وفي تعبيره بالفعل المضارع ( يفرى ) فيه دلالة على التجدد والاستمرار ، " والفعل المضارع يدل على الحال ، أي على وقوع الحدث الآن ، وهذه دلالته الأصلية ، ومن هنا كانت صيغته أقدر الصيغ على تصوير الأحداث ؛ لأنها تحضر مشهد حدوثها وكأن العين تراها وهي تقع "[3] فبين مدى شدة وقوع السهم عليه وأثره فيه حتى بات ملطخاً بالدم .

(١) سبق شرح الأبيات ص ٤٥ .

(٢) سبق شرح الأبيات ص ٥٩ .

(٣) خصائص التراكيب ، محمد أبو موسى ، ص ٢٦٤ .

وفي قوله : ( وهو سليم ) احتراس حتى لا يظن أن هذا السهم عندما نفذ في حضنيها كسر فهو يفرى الجوف فجئ بهذه الجملة الحالية لدفع هذا الظن على سبيل الاحتراس . والاحتراس : هو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه.[١]

ومن التعبير بصيغة المضارع والماضي حول القوس والحديث عنها قول كعب بن زهير: [٢]

**أَخُو قُتُرَاتٍ لا يَزَالُ كأنَّهُ إذا لم يُصِبْ صَيْدًا مِن الوَحْشِ غارِمُ**
**يُقَلِّبُ حَشْرَاتٍ وَيَخْتَارُ نَابِلٌ مِن الرِّيشِ ما التَفَّتْ عليه القَوَادِمُ**
**يَعُضُّ بإِبْهَامِ اليَدَيْنِ تَنَدُّمًا ولَهَّفَ سِرًّا أُمَّهُ وهو نَـادِمُ**
**وقال ألا في خَيْبَةٍ أنتِ مِن يدٍ وَجَذَّ بذي إِثْرٍ بَنَانَكِ جَـاذِمُ**
**وأصْبَحَ يَبْغِي نَصْلَه ونَضِيَّهُ فَرِيقَيْنِ شَتَّى وهو أَسْفَانُ وَاجِمُ**[٣]

ففي قوله : ( يقلب حشرات ويختار نابل ويعض بإبهام ) عبر بالفعل المضارع لاستحضار الصورة وللدلالة على التجدد والاستمرار فهو لا يزال يعتني بها ويصلحها مرة بعد أخرى وينتقي لها ما يكون جيداً من الريش وغيره ، ثم انتقل ملتفتاً إلى التعبير بالماضي في قوله : ( لهف – جذ – أصبح ).

وهذا الانتقال مما ألحقه بعض الدارسين بباب الالتفات [٤]ومن أولئك ابن الأثير[٥]والعلوي ، حيث قال عن معنى الالتفات " هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول ، وهذا أحسن من قولنا : هو العدول من غيبة إلى خطاب ومن خطاب إلى غيبة ؛ لأن الأول يعم سائر الالتفاتات كلها ، والحد الثاني إنما هو مقصور على الغيبة والخطاب لا غير .

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ٢٢٠ .
(٢) ديوان زهير ، ص ٤٤ ، ٤٥ .
(٣) سبق شرحها ص ٦٤ – ٦٥.
(٤) خصائص التراكيب، محمد أبو موسى ، ص ٢٦٢ .
(٥) المثل السائر ، لابن الأثير ، ج ٢ ، ص ١٤٤ – ١٤٥ .

ولا شك أن الالتفات قد يكون من الماضي إلى المضارع ، وقد يكون على عكس ذلك ، فلهذا كان الحد الأول هو أقوى دون غيره "(١)

ويقول زهير بن أبي سلمى(٢):

**وعلى الشَّرِيعةِ رَابِئٌ مُتَحَلِّسٌ     رامٍ بعَيْنِيْهِ الحَظِيرةَ شَيْزَبُ**
**مَعَهُ مُتَابِعةٌ إذا هو شَدَّها     بالشِّرْعِ يَسْتَشْزِي له وتَحَدَّبُ**
**مَلْسَاءُ مُحْدَلةٌ كأَنَّ عَتَادَها     نَوَّاحةٌ نَعَتِ الكِرامَ مُشَبِّبُ**
**قَنْوَاءُ حَصَّاءُ المُقَوَّسِ نَبْعَةٌ     مِثلُ السَّبِيكةِ إذ تُمَلُّ وَتُشْسَبُ**
**عُرُشٌ كحاشِيةِ الإِزَارِ شَرِيجةٌ     صَفْرَاءُ لا سِدْرٌ ولا هِيَ تَأْلَبُ**
**وَمُثَقَّفٌ ممّا بَرَى مُتَمالِكٌ     بالسَّيرِ ذو أُطُرٍ عليهِ ومَنْكِبُ**
**فَرَمَى فَأَخْطَأَهُ وَجَالَ كَأَنَّهُ     أَلِمٌ على بَرْزِ الأَمَاعِزِ يَلْحَبُ(٣)**

تتحدث الأبيات السابقة مصورةً رحلة قنص للشاعر أبان فيها عدده المصاحبة له في سفره ومنها قوسه التي أخذ يصفها وصفاً دقيقًا ، ظهر جماله من خلال تراكيبه ومعانيه البارزة في الأبيات في باب الفصل والوصل . يقول عبد القاهر حوله:" الوصل في الجمل عطف بعضها على بعض، والفصل ترك العطف فيها، والمجيء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد الأخرى، ثم يقول: "إن معرفة الفصل من الوصل مما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا للأعراب الخلص وإلا قوم طبعوا على البلاغة، وأوتوا من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد، وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حداً للبلا غة ، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، يحيى بن حمزة العلوي ، مطبعة المقتطف بمصر ، ١٣٣٣ ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .

(٢) شرح شعر زهير ص ٢٧٨ .

(٣) سبق شرحها ( ينظر شرح شعر زهير ، ص ٢٧٨- ٢٧٩) .

: " معرفة الفصل من الوصل " ذاك لغموضه ودقة مسلكه ، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد ، إلا كمل لسائر معاني البلاغة "[(١)] .

ويتضح الفصل بين ( رابئ ، متحلس ، رام بعينيه الخطيرة ، شيزب ) وفي دلالة على أن كل تلك الصفات بمنزلة الصفة الواحدة وأنها متكاملة فيما بينها ، تحكي حال هذا الصائد وترقبه في استعداد وتأهب لملاقاة فريسته .وكذلك فصل الشاعر في وصفه القوس فقال : ( متابعة ، ملساء ، محدلة ، قنواء ، حصاء المقوس ، نبعة عرش ، شريجة ، صفراء ، لا سدر ولا هى تألب ) وكل هذه الصفات يتضح من خلال تتابعها وجود رابطة قوية بينها فكل منها موضح ومفصل لوصف من أوصاف تلك القوس وهذا من قبيل تعاطف الصفات بدون رابط خارجي فهي في بوتقة واحدة ، وفي ترادف الصفات من غير الواو إشارة ودليل على أن هذه القوس جامعة لهذه الصفات مترابطتها ، وكأنها تلاقت من داخلها وشكلت صفة واحدة ، تشتمل عليها دون أن تشعر بأنها صفات متغايرة ، وهذا يضفي على الأبيات جمالاً و ترابطاً .

وورود الفصل في وصف السهم فقال : ( مثقف ، متمالك بالسير ، ذو أطر عليه ) للدلالة على أن كل تلك الصفات لا يمكن فصل أحدها عن الأخرى لأنها متكاملة فيما بينها وتقوم بوصف دقيق وأن كل واحدة منها تمثل لبنة في وصف الصورة المتكاملة للقوس والسهم .

ويبرز من خلال هذه الأبيات صور بلاغية أخرى أضفت عليها قوة واتساقاً ، ومن ذلك التنكير الذي ذكر في ( رابئ ) لتعظيم وتفخيم شأن هذا الحارس المترقب، وكذلك تنكير ( متابعة ) تفخيماً وتهويلاً لتتابع انطلاق سهامها مما يجعلها مخوفة محذورة. وقوله (معه متابعة) والمعية هنا فيها اصطحاب ونوع ود وقربى وكأن القوس صار صديقاً أو صاحباً.

وهذا يختلف عن قول الشماخ[(٢)]:

**(بحضرته رام أعد سلاجماً وبالكف طوع المركضين كتوم )**

(١) دلائل الإعجاز ، ص ٢٢٢ .

(٢) ديوان الشماخ ٣٠١ .

فهنا العلاقة بين القوس وصاحبه علاقة فيها ما يشي بقوة الانسجام إلى حد أن القوس طوع كفه، فالتعبيران يتباينان .

والإيغال أو التذييل يظهر في قوله : ( مشبب وتشسب ) إذ المعنى قد تم بدونها ولكن جيء بها لتحقيق معنى التشبيه وتأكيد المعنى . والإيغال : هو ختم البيت بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها ، كزيادة للمبالغة أو تحقيق التشبيه ، والتذييل : تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد (١).

و جاء في وصف الشنفرى لسهام صاحبه تأبط شراً بقوله(٢):

| | |
|---|---|
| لَهَا وَفْضَةٌ فيها ثلاثونَ سَيْحَفا | إذا آنسَتْ أُولَى العَدِيّ اقْشَعَرَّتِ |
| وَتَأْتِي العَدِيَّ بارِزا نِصْفُ سَاقِها | تَجُـــــولُ كَعَيْرِ العَـانَة المُتَفَلِّتِ |
| إذا فَزِعُوا طارَتْ بأبْيَضَ صَارِمٍ | وَرَامَتْ بما في جَفْرِها ثمَّ سَلَّتِ(٣) |

والشواهد الدالة على علم المعاني من هذه الأبيات متعددة؛ فمنها قوله : (لها وفضة) حيث قدم المسند على المسند إليه للاهتمام والعناية والتأكيد على أن هذه القوس لها ما يخصها من مقتنيات ولوازم لا تكمل إلا بها ومنها هذه الجعبة المليئة بالسهام الفتاكة ، وهذا متضح من خلال وصفها واستعدادها للهجوم في أي لحظة بين ذلك سياق الأبيات ، وفي قوله : ( أولى العدى ) التخصيص بالقيد ( أولى ) للدلالة على سرعة تهيئه واستعدادها . وعبر بفعلي المضارع (تأتى وتجول) لاستحضار الصورة وللدلالة على التجدد والاستمرار .

ولحروف الجر في – لها وفيها – دلالتها فإنَّ كلاً منهما وقع خبرًا مقدَّمًا للمبتدأ، وفي هذا التقديم للمسند الجار والمجرور تخصيص للمسند إليه بعدهما ، وتنبيهاً من أول الأمر على أنهما خبرٌ، لا نعت لما بعدهما . كما سبق ذكره .

ويقول أبو ذؤيب الهذلي :

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ٢١٦ – ٢١٨ .

(٢) "ديوان" الشنفرى ، ص٣٦ .

(٣) سبق شرحها ص ٩٦ .

وَنَميمَةً مِن قانِصٍ مُتَلَبِّبٍ      في كَفِّهِ جَشءٌ أَجَشُّ وَأَقطُعُ

وقد جاء وصف القوس هنا بالجشء؛ وهي مسند إليه نكرة؛ وذلك للتعظيمٌ والتفخيمٌ، و زاد في وصفها بأنها أجشُّ وأقطع، وقد وصل الشاعر بين الجملتيْن الاسميتيْن أجشّ وأقطع، فهما اسما تفضيل نكرتيْن واصفتيْن للقوس، والوصل بينهما هنا للتناسب بن الجملتيْن الاسميتيْن، وفي تقديم المسند في كفِّه دلالة على اختصاص الكفِّ بها في هذا الموضع وهذا السياق، فهي ملازمة لها مربوطة بها ، فلا يمكن أن يرمى بها رمياً صائبا محدداً وهي في غير الكف.

وللتقديم و التأخير في البلاغة فوائد جمة تعبر عن مدى سعي العربية إلى تحصيل جمال التعبير و الصياغة قبل كل شيء، و لو كان ذلك على حساب الترتيب الذي وضعه الأولون لتراكيبهم .

يقول عبد القاهر الجرجاني رحمه الله متحدثا عن فائدته: "هذا باب كثير الفوائد ، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة ، و يفضي بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك و لطُف عندك، أن قدم فيه شيء وحول اللفظ من مكان إلى مكان " [١].

ومن خلال هذا البحث يتجلى وصف القوس والسهم ، وورود الحديث عنها في معرض فخرهم أو رحلتهم وهذا مما يدل على مكانتها وملازمتها لهم في حلهم وترحالهم ، وتبرز ظاهرة التنكير في وصفهم ولعل في هذا بيان تفخيم وتعظيم لهذه القوس لما يدل عليه التنكير كما مر على التعظيم والتكثير ، مع أن لها دلالة على التقليل والتحقير لكن السياق الذي وردت فيه أبيات وصف القوس يدل دلالة واضحة على تعظيم هذه القوس والسهام .

وتبين كذلك من خلاله مسائل بلاغية من وصل وفصل وتقديم وتأخير والتفات وتتميم واحتراس وغيرها مما له صلة وعلاقة بعلم المعاني .

---

(١) دلائل الإعجاز ، ص ١٠٦ .

## المبحث الثاني: الصور البيانية ودلالاتها:

لقد زخر الشعر العربي بالصور البيانية ذات الدلالات البعيدة واللطيفة ، مما جعل الشعراء يتفننون في استخدام هذه الصور والتنويع بينها فمن تشبيه إلى مجاز واستعارة وكناية ويظهر هذا بجلاء في الشعر الجاهلي خصوصاً فأغلب الظواهر البلاغية البارزة في شعر الجاهليين هي الصور البيانية بأنواعها ، وهذا يبين مدى تصوير الجاهلي لما تقع عليه عينه مشبهاً أو مستعيراً أو مكنياً ، وذلك من البيئة التي يعيشها فيصور السماء والسحاب والمطر والجبال والأشجار والجمال والحيوانات التي يعايشونها.

و من خلال البحث حول القوس والسهام يتضح بروز التشبيه والكناية بروزاً يجعل منه ظاهرة انتشرت ودرج معاصرو ذلك الزمن عليها، ولعل ما يتطرق له من أبيات في هذا المبحث تجلي هذا القول .

وكما سبق وأن ذكر في المباحث السابقة من اهتمام الجاهليين بالقوس وسهامها في شعرهم وتشبيهها بأمور عدة تتضح من خلال البحث ، مما جعلها ذات مكانة عند العربي حيث هي الصالحة في السلم والحرب ، وهي الأداة التي ترمز للقوة والنفاذ وبعد الهدف ، و أسهب بعض الشعراء في وصفها في شعرهم مما جعلها تستحوذ على جل أبيات بعض قصائدهم كما هو عند أوس و الشماخ ، وهما من أبرز من وصفها في الشعر الجاهلي وأطال الحديث عنها ، وغيرهم تحدث عنها في معرض حديثه في قصائد متفرقة ، ولكن بجمعها توحي بمكانة واهتمام عند العربي بهذه الأداة .

و من أبيات أوس بن حجر التي سيُتطرق فيها للصور البيانية ودلالاتها قوله(١):

**وَمَبضوعَةً مِن رَأسِ فَرعٍ شَظِيَّةً بِطَودٍ تَراهُ بِالسَحابِ مُجَلَّلا**
**عَلَى ظَهرِ صَفوانٍ كَأَنَّ مُتونَهُ عُلِلنَ بِدُهنٍ يُزلِقُ المُتَنَزِّلا(٢)**

---

(١) ديوان أوس، ص٨٥-٨٦.

(٢) سبق شرحها يرجع للصفحة (ينظر الديوان، ص٨٥-٨٦ ).

فبعد استعراض الشاعر لأسلحته ووصفها بصفات متعددة تبين مدى قوتها ومكانتها، بعبارات توحي بالقوة والمنعة والإباء والشجاعة فيقول مبيناً عظم شأن هذه المبضوعة التي كنى عن موقعها بقوله :

( بطود تراه بالسحاب مجللا ) فهنا كناية عن علو هذا الجبل الذي يعانق السحاب حتى غاص فيه فلا يرى رأسه من تجليل السحاب له ، وهذه الكناية أفادت ما لا يفيده التصريح بعلوه مجرياً من الصفات الداعية للتعجب من ارتفاعه وعلوه ، والكناية عند البلاغيين: أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه ، فيومئ به إليه ، ويجعله دليلاً عليه ، مثال ذلك قولهم: هو طويل النجاد ، يريدون طويل القامة[١].

ووصف هذا الحجر وشدة ملاسته فقال: (كأن متونه عللن بدهن يزلق المتنزلا ) وفي هذا تشبيه نادر، حيث شبه هيئة هذا الجبل وشدة ملاسته، وصعوبة تسلقة والصعود إليه بهيئته وقد سقي بدهن مرة بعد مرة فلا تثبت عليه قدم، فالغرض من البيت هو بيان حال هذا الطود من العلو والارتفاع وأن رأس هذا الفرع الذي قدت منه القوس يوجد على ظهر صفوان لا يقدر على تسلقه وركوبه إلا ذو بأسٍ ورباطة جأش وشدة ، فركوب متون الجبال الصعبة الوعرة التي تزلق الراكب عليها ، كركوب متون الخيل التي تزل النازل عليها ، أمر لا يقدر عليه إلا كمي قوي شديد البأس ، وهذا المعنى قريب من بيت امرئ القيس في وصف فرسه في معلقته حيث يقول :

**مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً كَجُلْمُوْدِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ**
**كَمَيْتٍ يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالِ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بِالْمُتَنَزِّلِ[٢]**

فهو قد شبه اللبد إذا زلَّ عن ظهر الفرس بالذي يزل عن الصخرة الملساء التي تزل المتنزل عليها ، وكلما كان الظهر أملس كان وركوبه أصعب ولا يثبت عليه إلا قوي شديد .

(١) دلائل الإعجاز ص ٦٦ .

(٢) ديوان امرئ القيس ١٩ -٢٠ ، الجلمود : الصخر ، الصفواء : الصخرة الملساء ، المتنزل : النازل عليها .

والكناية والتشبيه والاستعارة من الظواهر البلاغية الكثيرة التي ستمر كثيراً من خلال أبيات هذا البحث لاستحواذها على جل ما ورد حول وصف القوس والسهام .

والتشبيه لغة: التمثيل. يقال : هذا شبه هذا ومثيله . والتشبيه اصطلاحاً : عقد مماثلة بن أمرين، أو أكثر، قصد اشتراكهما في صفة أو أكثر ، بأداة لغرض يقصده المتكلم [١].

وينتقل الشاعر بك إلى مقطوعة أخرى تزخر بلاغة وجمالاً حيال نجاته وفوزه بمطلوبه ، مهذباً ومصلحاً ومعتنياً به في أوصاف دقيقة مشوقة فيقول :

**فَلَمّا نَجا مِن ذَلِكَ الكَربِ لَم يَزَل　　يُمَظِّعُها ماءَ اللِحاءِ لِتَذبُلا**

**فَأَنحى عَلَيها ذاتَ حَدٍّ دَعا لَها　　رَفيقاً بِأَخذٍ بِالمَداوِسِ صَيقَلا**

**عَلى فَخِذَيهِ مِن بُرايَةِ عودِها　　شَبيهُ سَفى البُهمى إِذا ما تَفَتَّلا**[٢]

وأول ما يبرز لك من جمال الاستعارة ، الاستعارة المكنية وهي : وهي التي ذكر فيها المشبه وحذف المشبه به ورُمز له بإحدى لوازمه (خصائصه) للدلالة عليه.وتظهر في الفعل (نجا ) حيث شبه الكرب بعدو يريد الهرب والنجاة منه ، ثم حذف المشبه به ( العدو) ورمز إليه بلازم من لوازمه وهو النجاة . على سبيل الاستعارة المكنية .

يقول عبد القاهر الجرجاني عن الاستعارة : فإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً والأعجم فصيحاً والأجسام الخرس مبينة والمعاني الخفية بادية جلية " [٤]ويظهر في كلمة (فرع) مجاز مرسل إذ المراد الشجرة وعبر بالفرع على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية ، والمجاز المرسل : هو

(١) أسرار البلاغة ، للجرجاني ، ص ٤٣ .

(٢) فلما نجا من ذلك الكرب: أي الشدّة، يمظعها: يشربها، الرفيق: الحاذق، المداوس: المصاقل، واحدها مدوس، وهو الذي يصقل به السيف، السفى: شوك البهمي، واحده سفاة.( ينظر الديوان ، ص ٨٧).

(٤)أسرار البلاغة ، للجرجاني ، ص ٤٣ .

الكلمة المستعملة قصداً في غير معناها الأصلي ، لملاحظة علاقة غير المشابهة مع قرينة دالة على عدم إرادة المعنى الوضعي ، وله علاقات كثيرة ، من أهمها : السببية ، المسببية ، الكلية ، الجزئية ....[1]

ثم لك أن تتأمل قوله (على فخذيه من براية عودها ) فقوله (على فخذيه ) كناية عن شدة عناية واهتمامه ، فهو يبرى العود بهدوء ودقة ويأخذ منه شيئاً فشيئاً .

ولذا شبه ما يتساقط من برى العود بما يسقط من سفى البهمي إذا ما تفضلا فأبان أن المتساقط من برى العود دقيق جداً مثل سفى البهمى وهو تشبيه حسيٍّ مفصل ، تظهر فيه براعة الشاعر في التقاط المشاهد التفصيلية الدقيقة المحيطة ببيئته ، فشبه الأجزاء المتناثرة من لحاء العود بفعل البراية بسفى البهمى – وهو نبات معروف له شوك – إذا جف ويبس تطايرت أشلاؤه ، وفتائله في الهواء ، وذلك لما بينهما من التناثر والتطاير في الهواء ، وفي هذا إشارة إلى مدى عنايته ودقته وخبرته بالبري .

يقول الخالديان في كتابهما الأشباه حول هذا البيت –كما سبق – : " بيت أجاد التشبيه فيه وفات جميع الشعراء في جودة معناه وصحته وهو قوله في صفة الذي ينحتها:

على فخذيه من براية عودها ... شبيه سفى البهمى إذا ما تفتلا

ومن تأمل سفى البهمى في آخر الربيع وأول الصيف وهو وقت تفتله رآه أشبه الأشياء بما ذكره أوس في بيته هذا"[2].

ثم قال :

**فجردها صفراء لا الطول عابها ولا قصر أزرى بها فتعطلا**

---

(١)جواهر البلاغة ، السيد أحمد الهاشمي ، تعليق ، سليمان الصالح ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٢٦ هـ = ٢٠٠٥ م ، ص ٢٦٥ – ٢٦٦ .

(٢) الأشباه والنظائر للخالديين، ج ٢، ص ٥٠.

فأبان عن متانتها وقوتها بقوله ( صفراء ) وفي هذا الوصف من خلال هذا السياق كناية عن اكتمال هيئتها وأنها في غاية التمام والحسن ومثل تلك الكناية قوله الله تعالى : ( لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ )(١)

وجاء الطول معرفة ليشير إلى الطول المستقبح المعهود في أمثالها ، وجاء القصر نكرة للتقليل أي ليس بها أي قصر معيب ولو قليله .

ثم أخذ يصف سهامه قائلاً :

**وَحَشوَ جَفيرٍ مِن فُروعِ غَرائِبٍ   تَنَطَّعَ فيها صانِعٌ وَتَنَبَّلا**

**تُخُيِّرنَ أَنضاءً وَرُكِّبنَ أَنصُلاً   كَجَمرِ الغَضا في يَومِ ريحٍ تَزَيَّلا**

**فَلَمّا قَضى في الصُنعِ مِنهِنَّ فَهمَهُ   فَلَم يَبقَ إِلّا أَن تُسَنَّ وَتُصقَلا**

**كَساهُنَّ مِن ريشٍ يَمانٍ ظَواهِراً   سُخاماً لُؤاماً لَيِّنَ المَسِّ أَطحَلا**

**يَخُرنَ إِذا أُنفِزنَ في ساقِطِ النَدى   وَإِن كانَ يَوماً ذا أَهاضيبَ مُخضِلا**

**خُوارَ المَطافيلِ المُلَمَّعَةِ الشَوى   وَأَطلائِها صادَفنَ عِرنانَ مُبقِلا**

لقد أبان أوس القول حول قوسه ، ولم يترك أداتها الرامية التي بدونها تذهب هيبة القوس و فاعليتها ، فأخذ يوضح ما هية هذه السهام التي ستكون لهذه القوس التي أسهب في وصفها والعناية بها ، وهذا يستدعي سهاماً أخرى مميزة متمكنة ، جيدة المنشأ والصنع ، فكنى عنها بأنها ( من فروع غرائب ) وهو بذلك يشير إلى جودتها وحسن صنعها ، حيث إنها انتقيت من أجود فروع أشجار القسيّ والسهام .

**وقوله (تُخُيِّرنَ أَنضاءً وَرُكِّبنَ أَنصُلاً   كَجَمرِ الغَضا في يَومِ ريحٍ تَزَيَّلا) ،**

بعد ذلك تخير وانتقى من بعض هذه السهام التي لم تبر بعد ليركب فيها النصل ، وراح يرسم قوة وشدة توهج هذه السهام حين تطلق إلى الهدف المحدد لها ، فشبه نصل السهام وهي منطلقة من القوس بسرعة فائقة نحو الهدف ، بجمر الغضا حين يتطاير شرره في يوم ريح شديد. وذلك لما بينهما من توهج و اشتعال جسم يسير بسرعة شديدة وتتطاير منه

(١) سورة البقرة، ٦٨.

أشلاء خفيفة، وفي هذا التشبيه دلالة على جودة هذه القوس وسهمها المنطلق ودقة صنعه ، وقد وفق الشاعر- في رأي الباحث – في تشبيهه نصل السهم المعد للحرب ، بجمر الغضا ؛ لعلها جمر الغضا من أجود أنواع الجمر ، وأطولها مدة بقاء وهي محافظة على اشتعالها والجمر جزء من النار ، والنار ومشتقاتها أكثر تناسباً لذكر الحرب وعتاده .

- ثم يعود فيقول :

**يَخُرنَ إذا أُنفِزنَ في ساقِطِ النَدى وَإِن كانَ يَوماً ذا أَهاضيبَ مُخضِلا**

**خُوارَ المَطافيلِ المُلَمَّعَةِ الشَوى وَأَطلائِها صادَفنَ عِرنانَ مُبقِلا**

ثم أخذ بعد ذلك يرسم حجم الصوت النابع من هذه السهام ويشبهه ، بصوت خوار بقر الوحش ، وهذه البقر لها أولاد مطافيل ، لون أطرافها أبيض ناصع البياض ، ثم إن أولادها في واد واسع مليء بالوحوش ، وهذا الوادي نبت بقله .

ولعل في وصف هذه البقر بملمع الشوى ، كناية تنبئ عن سهولة رؤية الوحش للبقر في هذا الوادي المليء بالوحوش ؛ مما يحدق عليها الخطر ؛ فهي ذات صوت خافض خافت؛ حتى لا يتنبه لها الوحش . ويلاحظ أن طرفي التشبيه يعودان إلى نوع واحد ؛ لأن الشاعر استعار صوت خوار البقر لصوت القوس قبل أن يشبهه بصوت خوار البقر المطافيل، ثم حذف المشبه الذي هو بقر الوحش وأبقى شيئاً من لوازمها على سبيل الاستعارة المكنية . وكأن الشاعر أراد أن يثبت حقيقة قد استقرت في ذهن ذلك الرجل ، حتى إنه ادعى أن صوت القوس هو في الأصل صوت خوار يشبه خوار البقر المطافيل وذلك عن طريق المبالغة، وكل هذا يوحي بشدة الصوت وارتفاعه في كلٍ، وهذا من أعلى مراتب البيان ، الذي يجعل البيان في صورة مستجدة ، ويزيده فضلاً ونبلاً. (١)

ويقول في قصيدة أخرى :

**وَصَفْرَاءَ مِنْ نَبْعٍ كَأَنَّ نَذِيرَهَا إِذَا لَمْ تُخَفِّضْهُ عَنِ الوَحْشِ أَفْكَلُ**

**تَعْلَمُهَا فِي غَيْلِهَا وَهْيَ حَظْوَةٌ بِوَادٍ بِهِ نَبْعٌ طُوَالٌ وَحَثْيَلُ**

---

(١) أسرار البلاغة حول الاستعارة ص ٤٢ .

وَبَانَ وَظَيَانَ وَرَنْفٍ وَشَوْحَطٍ أَلَفَّ أَثِيثَ نَاعِمِ مُتَغَيِّلُ
فَمَظَّعَهَا حَوْلَيْنِ مَاءَ لِحائها تُعَالَى عَلَى ظَهْرِ العَرِيش وَتَنَزَّلُ
فمَلَكَ باللِّيطِ الذِّي تَحْتَ قِشْرِهَا كَغِرْقَى بِيض كَنَّهُ القَيضُ مِنْ عَلُ

وفي لا ميته المشهورة بوصف السلاح والتي استعرض فيها الأسلحة عموماً ، وتحدث عن كل واحدٍ منها على حدة واصفاً له ومبيناً مزاياه ، يقف عند سلاحه المفضل – كما هي عادته في قصيدته السابقة — وهو القوس ، فوقف عنده وقفة تأنٍ باعتبار أن السلاح الأمضى ، والأقرب لهوى نفسه ، ولعله يرى أنه أنجع سلاح في الحرب ، و أخص سلاح للصيد ، فلا يصلح الصيد إلا بها ، فهي تمثل له في الصيد الهواية ، وفي العدو النكاية ؛ فيلاحظ على أوس الدقة في تصويرها ، والوصف لكل جزء منها ، ويصور قوة السهم المنطلق من هذه القوس وسرعته ، ويشبه صوتها بالنذير ، والنذير لا يحمل معه إلا الوعيد ، لذا فإن صوت هذه السهام الصادرة عن القوس تصيب الوحش بالرعدة من جراء سماعه صوتها ، قبل أن تصل إلى جوفه وتصيب مقتله ، ويرى الباحث أن الشاعر قد وفق في وصفه لسهامه الصادرة عن قوسه وما أحدثته من فزع ورعب للوحوش ، حينما شبهها بصوت النذير .

بعد أن فرغ الشاعر من ذكر سلاحه المحبب إليه ، انتقل في مشهد تصويري ليبث لنا طريقة صنع هذه الأداة ، فبعد أن قطع عودها من شجر النبع ، سقاها ماء لحائها حتى تلين ، وتترطب، ثم يضعها على سطح عريشه حتى تجف وتقسو ثم ينزلها، ثم يبدأ ببري عودها ثم صقلها، ثم بعد أن فرغ من ذلك كله، جاء ليصور طريقة ومقدار بري العود عن طريق التشبيه المركب ، فترك من قشر العود شيئاً يتمالك به القوس ، بمقدار قشر البيض الرقيق ، إذا غطي بقشر البيض الغليظ فأصبح متماسكاً.

وفي قصيدة أخرى لشاعر اقتبس من قاموس أوس الشعري الكثير وخاصة في وصفه القوس الشماخ بن ضرار حيث يقول :

وَحَلَأَهَا عَن ذِي الأَرَاكَةِ عَامِرُ أَخُو الخِضْرِ يَرْمِي حَيْثُ تُكْوَى النَّوَاحِزُ
قَلِيلُ التِّلاَدِ غَيْرَ قَوْسٍ وَأَسْهُمٍ كَأَنَّ الذِّي يَرْمِي مِنَ الوَحْشِ تَارِزُ
مُطِلاًّ بِزُرْقٍ مَا يُدَارِي رَمْيَهَا وَصَفْرَاءَ مِنْ نَبعِ عَلَيْهَا الجَلاَئِزُ

تَخَيَّرَهَا القَوَّاسُ مِنْ فَرْعِ ضَالَةٍ لَهَا شَذَبٌ مِنْ دُونِهَا وَحَوَاجِزُ
نَمَتْ فِي مَكَانٍ كَنَّهَا وَاسْتَوَتْ بِهِ فَمَا دُونَهَا مِنْ غَيْلِهَا مُتَلاَحِزُ
فَمَا زَالَ يَنْجُو كُلَّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ وَيَنْغُلُ حَتَّى نَالَهَا وَهْوَ بَارِزُ
فَلَمَّا اطْمَأَنَّتْ فِي يَدَيْهِ رَأَى غِنَىً أَحَاطَ بِهِ وَازْوَرَّ عَمَّنْ يُحَاوِزُ
فَمَظَّعَهَا عَامَيْنِ مَاءَ لِحَائِهَا وَيَنْظُرُ مِنْهَا أَيُّهَا هُوَ غَامِزُ
أَقَامَ الثِّقَافَ و الطَّرِيدَةَ دَرْأَهَا كَمَا قُوِّمَتْ ضِغْنُ الشُّمُوسِ المَهَامِزِ(١)

في هذه الأبيات الواصفة للقوس وصاحبها تتضح صور بلاغية أضفت على جو القصيدة إبداعاً وإمتاعاً ولعل من أولها وأبرزها : لفظة (عامر) : ففي هذه الكلمة استعارة تصريحية أصلية حيث شبه الشاعر نفسه بعامر ذلك القانص المشهور من أرمى أهل زمانه ثم حذف المشبه واستعير لفظ المشبه به له ، ويكني عن سداد الرمية ودقتها حيث لا تقع إلا في مقتل ، ثم يعود ليبين مدى قوة وبراعة هذا الرامي وشدة خطره على الفريسة في صورة تشبيهية رائعة حيث شبه هيئة هذا الحيوان وهو يرميه فيصيبه من أول رميه بهيئة الحيوان الميت الساكن في مكانه لا يتحرك فإذا رماه أصابه في أي مكان أراد ووجه الشبه الهيئة الدالة على دقة الرامى وسداد رميته في كل ، حيث أنه يمتلك سهاماً كنى عنها بأنها زرق مرعبه لا يعالج من رميت به ، و عليها الجلائز : كناية عن جودة صنعه وقوته ومتانته لأن الجلائز عقبات تلوى على كل موضع من القوس لتشدها من غير عيب بها ...

وفي قوله :اطمأنت : استعارة حيث شبه هذه القوس بالدابة النافرة ، ولما ظفر بها وأمسكها هدأت واطمأنت ثم حذف المشبه به وترك لازماً من لوازمه وهو اطمأنت على سبيل الاستعارة المكنية .

ويعود فيكني بقوله رأى غنى: وفي هذا كناية عن شدة تيقنه وعلمه بأن هذا القوس غالي الثمن ولذا عبر بالفعل ( رأى ) الدال على شدة العلم واليقين ، و أحاط به : كناية عن كثرته ووفرته .

---

(١) ديوان الشماخ، ص ١٨٢ .

وفي كلمة ( غنى ) مجاز مرسل حيث عبر بالغنى وأراد القوس الثمين على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته السببية .

وفي قوله غامز : مجاز عقلى علاقته المفعولية حيث غامز والأصل أن يكون مغموزاً .

-ومجاز عقلي آخر في أقام الثقاف والطريدة درأها علاقته الآلية ، حيث أسند الإقامة للثقاف والطريدة ، والذي يقوم القواس بالثقاف والطريدة فلما كانت هناك ملابسة بينهما صح الإسناد إليها لإبراز قوة الآلة ودورها في التقويم .

كما قومت ضغن الشموس المهامز : تشبيه تمثيلي ،حيث شبه هيئة تقويم الأعواد بالثقاف والطريدة بهيئة تقويم الشموس من الخيل بالمهامز بجامع الهيئة الدالة على الإصلاح والتقويم في كل .

وبعد جملة من أبيات القصيدة يعود فيقول:

**وذاقَ فأعطتهُ من اللينِ جانباً — كفى ، ولها أنْ يغرقَ السهمَ حاجزُ**

**إذا أنبضَ الرامون عنها ترنمتْ — تَرُنَّم ثكلى أَوْجَعتْها الجنائزُ**

**قذوفٌ إذا ما خالطَ الظبيَ سهمها — وإنْ رِيغ منها أَسلَمَتْهُ النواقزُ**

**كأَن عليها زَعْفَراناً تُميرُه — خَوَازِنُ عَطَّارٍ يَمَانٍ كَوَانِزُ**

**إذا سقطَ الأنداءُ صِينَتْ وأكرمت — حَبيراً ولم تُدرجْ عليها المَعاوزُ**

وهنا في هذه الأبيات ظواهر بلاغية أخرى تدل دلالة واضحة على مدى حرص واهتمام الشاعر بموصوفه العزيز عليه تلك القوس التي عانى من أجلها ما عانى و أصبحت شيئاً يذاق وعطراً مكنوزاً لا بد من المحافظة عليه ، ومن ذلك قوله : ذاق ، وفيه استعارة تبعية حيث شبه تجربة القوس لاختبار وترها بالذوق للطعام لاختبار طعمه ومعرفته ثم استعير الذوق للاختبار ثم اشتق من بمعنى الاختبار ذاق بمعنى اختبر على سبيل الاستعارة التبعية

التصريحية وأجاد الشاعر في التعبير بتلك الاستعارة لأن الذوق يدل على شدة الإدراك والمعرفة ومنه قول الله – عز وجل – " فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ".(١)

"والاستعارة التصريحية : هو أن يكون الطرف المذكور من طرفي التشبيه هو المشبه به ".(٢)

وفي صورة تشبيهية أخرى واضحة لترنم القوس وترنم الثكلى (ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز ) : يشبه الشاعر ترنم القوس حين رجعت في صوتها ورنت بصوت ترنم الثكلى التي مات ولدها .

والقوس فيها معنى الثكل لأنه قال ترنم ثكلى ، فحذف أداة التشبيه يبين ذلك .

ويلاحظ في الطرفين خصوصيات ، فالقوس لا تحدث هذا الصوت إلا إذا جذب وترها الرامي ، وترم الثكلى مقيداً بأوجعتها الجنائز ، وهذا أدل على شدة الفجيعة وكأن السهام أبناء هذه القوس كلما خرج منها واحد اشتدت فجيعتها .

وقريب من ذلك قول الشنفرى :

**إذا زَلَّ عنها السَّهْمُ حَنَّتْ كأنَّها مُرَزَّأَةٌ عَجْلَـــى تُرنُّ وَتُعْوِلُ**(٣)

فيلاحظ أن الشماخ قال : إذا أنبض الرامون عنها ، والشنفرى قال زل عنها السهم وهذان مختلفان .

فالأول يصف فعل الرماة والثاني يصف حركة السهم وهو بهذا أقرب إلى القوس ،والشماخ يقول: ترنمت والترنم شجن غناء والشنفري يقول " "حنت" والحنين بمعني الترنم والشماخ يقول ترنم ثكلى، فيشبه ترنمها بترنم الثكلى على الطريقة الموجزة ، وأصل الكلام ترنمت ترنماً كترنم الثكلى، ثم قال: أوجعتها الجنائز فذكر أنها أصابتها محن بعد محن وأوجعها فَقْدٌ بعد فَقْدٍ ..

---

(١) سورة النحل، ١١٢.

(٢)مفتاح العلوم ، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي ، تحقيق :د . أكرم عثمان يوسف ، منشورات جامعة بغداد ، مطبعة دار الرسالة – بغداد ، ط ١ ، ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م ، ص ٦٠٤ .

(٣) ديوان الشنفري، ص ٦٠ .

والشنفري يقول: كأنها مرزأة عجلى" فلم يشبه حنينها بحنين وإنما شبهها هي بالمرزأة، وهذا غير الأول ثم إنه ذكر المرأة بأنها مرزأة أي أصابتها رزية بعد رزية وأنها عجلى ترن وتعول فذكر الفعل بصيغة المضارع الدالة على حضور الحدث وكأنها تسمعها ترن وتعول وهذه حسية في شعر الشنفرى، وهكذا لكل شاعر نسج وطبع ومادة.

وهذه صورة جيدة جمعت بين طرفين متباعدين وهي نادرة في الشعر، ومن نوادر تشبيهات الشماخ (1).

" و قد أخذ الشاعران الشماخ والشنفرى معنى الحنين للقوس من أوس في قوله :

**إذا مَا تَعاطَوْهَا سِمِعْتَ لِصَوْتِهَا إذا أنبضُوا عنْهَا نئيماً وأزمَلا**

فهو الأصل في المعنى وعليه عوّل من أخذه، وأوّل من أخذه الشمّاخ بقوله:

**إذا أنبضَ الرَّامون عنها ترنَّمتْ ترنُّـــمَ ثكلى أوجعَتْها الجنائزُ**

وأخذه الشنفرى فقال:

**إذا زلَّ عنها السهمُ حنَّتْ كأنَّها مولَّهَةٌ ثكْلـــى تـرِنُّ وتُعـــوِلُ**

وذكر بعض الشعراء أنَّ حنين القوس عند خروج السهم عنها حزناً واغتماماً به وقال:

**باكية إنْ زلَّ سهمٌ عنها خوفاً عليه أن يضيــعَ منهـــا**

وقال آخر:

**إذا تعاطاها الشديد السَّاعد حنَّتْ إلى السَّهمِ حنينَ الوالدِ**

وقال آخر:

**وصفراء طيّعــــة الجانبَيْنِ على أنَّ فيها جميع الشَّغبْ**

**تحنُّ حنيناً إلى سهمــــها حنينَ المحبِّ إلى من أحَبْ "(2)**

---

(1)تشبيهات الشماخ بن ضرار الذبياني، دراسة بلاغية وموازنة ، للسيد محمد السيد سلام، ص ٢٣٤.

(2) الأشباه والنظائر للخالديين ، ج ٢ ، ٥٠ ، ٥١ .

ولبيان  ما ورد من البيان في بعض الأبيات السابقة من كتاب الأشباه والنظائر والتي ود فيها ذكر الحنين للقوس فيها قول الشاعر :

و يتكرر وصف القوس بالحنين عند شعراء آخرين ومن ذلك قول :

**إذا تعاطاها الشديد السَّاعد          حنَّتْ إلى السَّهمِ حنينَ الوالدِ**

فهنا صارت علاقتها بسهمها حنيناً وكأن النبض للرامي بالسهم اعتناق قبل الفراق ، وكأن الصوت الصادر منها بعض النبض حنين على ذلك المفارق ومن ثمَّ ففي كلمة (حنت ) استعارة تبعية حيث شبه صوت القوس إثر النبض بالحنين من الأم أو المحب ثم حذف المشبه واشتق من الحنين بمعنى التصويت حنت بمعنى صوتت على سبيل الاستعارة التبعية . ثم شبه هذا الصوت المنبعث منها  بصوت الأم الرءوم على ابنها فقال ( حنت إلى السهم حنين الوالد ).

ومنه كذلك قول الشاعر :

**وصفراء طيّعة الجانبَيْنِ ... على أنَّ فيها جميع الشَّغبْ**

**تحنُّ حنيناً إلى سهمها ... حنينَ المحبِّ إلى من أحَبْ**

فالصورة تقترب كثيراً من الصورة السابقة ، وتعكس تلك الصورة مدى الارتباط الوثيق بين الشاعر وقوسه .

ومنه أيضاً قول الداخل بن حرام  في بيت من وصف رحلة صيده، فيقول[1]:

**كَـــأَنَّ عِـــدَادَهَا إِرْنَانُ ثَكْلَـــى          خِـــلاَلَ ضُـــلُوعِهَا وَجْـــدٌ وَهِـــيجُ[2]**

فشبه صوتها المنبعث منها بإرنان الثكلى ، ولكن زاد الصورة بما يكسبها مبالغة وقوة فقال :

(1) شرح أشعار الهذليين، صنعة أبي سعيد السكري، ت: عبد الستار فراج، مراجعة: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ٦١٧/٢، يقال له الداخل ، واسمه زهير بن حرام ، أحد بني سهم بن معاوية.

(2) عدادها: صوتها، فعاوده كلما أنبض عنها، صوتت، خلال ضلوعها: أي في قلبها، وجد بولدها، وهيج: يتوهّج ويلتهب في صدرها.( ينظر شرح أشعار الهذليين ، ج٢ ، ص ٦١٧ )

( خلال ضلوعها وجد وهيج ) وهكذا أعجب الشعراء بهذا التشبيه فأخذوا يرددونه في أشعارهم وتعكس هذه الصورة ارتباطاً وثيقاً بين العربي وقوسه لأن العلاقة بين القوس والسهم ما هي إلا ظل للعلاقة بين العربي والقوس .

وقول الشنفرى :

**وَحَمْرَاءُ مِنْ نَبْـــــعٍ أبيٌّ ظهيرةٌ … تُرِنُّ كإرنانِ الشَّـــجِيِّ وَتَهْتِفُ**

حيث شبه صوت وتر قوسه ببكاء وصياح الحزين ووجه الشبه هو شدة الصوت وارتفاعه وتردده في كل .

ثم أردف هذا التشبيه بتشبيه ثان بصور فيه صوت السهم فقال :

**كَأَنَّ حَفِيفَ النَّبْلِ مِنْ فوقِ عَجْسِها … عَوَازِبُ نَحل أخطأَ الغارَ مُطْنِفُ**[1]

فشبه صوت السهم عند خروجه من القوس بصوت عوازب النحل التي ابتعدت في المراعي وأخطأ بيته في الغار ووجه الشبه هو تواصل الصوت وتتابعه دون انقطاع مع ارتفاعه وشدته .

وفي توالي هذه الكنايات والتشبيهات والمجازات عن هذه القوس وسهامها ما يوحي بجودتها وإتقان صنعتها وبراعة من يرمي بها .

ولِما للناقة من مكانة عند العربي كما هي القوس كان الربط بينهما وضحاً وجلياً في شعر الجاهليين الذين ربطوا بين ذلك التوافق من خلال أبيات ظهرت فيها البلاغة بشتى علومها حتى ظهر ذلك من خلال تتبع الظواهر البلاغية الواردة في الأبيات التي ربطت بين الصنوين المبجلين عند العرب مما جعل التشبيه والاستعارة والمجاز وغيرها يضفي على تلك الرابطة قوة ومكانة توحي بالعزة والمنعة والغنى والفخر ، و لعل البحث يعرج على شيء من ذلك .

يقول ابن مقبل :

---

(١) "ديوان" الشنفرى، ص٥٤.

خَفِيّ الشَّخْصِ يَغْمِزُ عَجْسَ فَرْعٍ مِنَ الشِّرْيانِ مِرْزَامٍ سَجُوعِ
إِذَا غُمِزَتْ تَرَنَّمَ أَبْهَرَاهَا حَنِينَ النَّابِ بِالأُفُقِ النَّزُوعِ [١]

لقد كنَّى الشاعر في هذين البيتين عن قوسه بفرع من الشريان ، وهو شجر تتخذ منه القسيّ، ثم أردف كنايته باستعارة مكنية في قوله ( مرزام سجوع ) حيث شبه القوس بناقة ثم حذف المشبه به وترك لازماً من لوازمها وهو الإرزام على سبيل الاستعارة المكنية .

كما شبه صوتها حال غمزها صوت الناقة، ثم حذف المشبه به وترك لازماً من لوازمه وهو الحنين — وهو صوت تصدره الناقة حال فقدها لولدها أو لموطنها – على سبيل الاستعارة المكنية ، ووجه الشبه هو استمرار الصوت وتتابعه وشدته وارتفاعه في كل مكان.

ولعل في قوله ( ترنم أبهراها ) مجاز عقلي حيث أسند الترنم إلى هذا المكان من القوس والترنم للقوس بكامله على سبيل المجاز العقلي الذي علاقته الآلية وفيه إبراز وتأكيد على صدور الصوت من هذا المكان خاصة ولذا صح إسناد الفعل إليه .

ويقول كعب بن زهير واصفاً صوت قوسه ومشبهاً له بصوت الناقة :

وصفْراءَ شَكَّتها الأسرَّةُ عُودُها على الطَّلِّ والأَنْدَاءِ أحْمرُ كَاتمُ
إذَا أُطرَ المربُوعُ منهَا ترنَّمَتْ كمَا أرزَمَت بكرٌ عَلى البَوِّ رَائمُ [٢]

ففي البيت الثاني شبه الشاعر صوت وتر سهمه بصوت الناقة التي تنزع وتعطف على البو ، ووجه الشبه : شدة الصوت وارتفاعه وتردده في كل .وكما يشبه صوت وتر القوس بصوت الناقة يشبه كذلك صوتها بصوت القوس .

وعلى عكس ما سبق تجد تشبيه صوت الناقة بصوت القوس على نحو ما ذكره الشماخ في معرض قصيدة له طويلة تحدث فيها عن رحلته فيقول[١]:

---

(١) ديوان ابن مقبل، ص١٣٠-١٣١.

(٢) ديوان كعب بن زهير، ص١٤٤.

عَلَنداةُ أسْفارٍ إذا نالَها الوَنى وماجتْ بها أنساعها وضفورها
يـردُّ أنابيبُ الجِـرانِ بُغامَها كما ارتدَّ في قَوْس السَّراءِ زفيرُها

حيث شبه تلك الناقة القوية التي اعتادت على كثرة الأسفار بصوت وتر قوسه عند خروج السهم منه ووجه الشبه هو شدة الصوت وارتفاعه وتردده في كل ،في كلمة ( زفيرها) استعارة تصريحية أصلية حيث شبه صوت وتر القوس بصوت الزفير ثم حذف المشبه واستعير لفظ المشبه به له على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

وفي ربط الناقة القوية بالقوس وصوتها ، دلالة واضحة على القوة والصلابة في كل منهما ، ولم يشبه هذا التشبيه إلا لما له من المكانة في نفسه والمتانة في صنعه .

وكما شبه الشعراء صوت وتر القوس بصوت الناقة الثكلى وشبه صوت الناقة الثكلى به نجدهم شبهوا كذلك ضلوع الناقة بالقسيِّ ومن ذلك قول الشماخ :

فقرَّبتْ مبْراةً كأنَّ ضلُوعَها منَ الماسِخيَّاتِ القِسِيَّ المُوتَّرَا

فشبه ضلوع الناقة القوية النحيفة النشيطة بالقوس التي براها الماسخى وحناها ووجه الشبه هو الاعوجاج والانحناء في كل . مبراة من البرة التي تجعل في الأنف من الناقة، والماسخيات: قسيٌّ تُنسَب إلى قوم وقد أحسن الشمَّاخ في هذا التشبيه، من قبل اجتماع الأضلاع والقسي الموتِّرة في الشكل والتوتُّر والأعصاب، والأوتار، ولم يرِد إلاَّ الشكل فقط، وقد أتى على ما فيه".[٢]

فالحسن عند قدامة راجع إلى قوة الصلة بين الطرفين والتقريب بين متباعدين مع وجود العلاقة البينة الصحيحة بينهما .

والتشبيهات الحسية من هذا المثيل تشبيهات جيدة تؤثر في النفوس وتبين مقدرة الأديب في التقاط الشبه من النيق البعيد على حد قول الإمام عبد القاهر الجرجاني .

---

(١) ديوان الشماخ، ص١٦٥.

(٢) نقد الشعر، لقدامة بن جعفر، ١٢٦.

ومن ذلك أيضاً قوله:

**عَنسٌ مذكَّرةٌ كأنَّ ضلوعَها أَطَرٌ حنَاها الماسخيُّ بيثْربَ**[1]

فهنا شبه ناقته القوية بقوله ( عنس ) أي هي عنس أي صخرة قوية ووجه الشبه هو القوة وشدة التحمل في كل .

وأكد هذا التشبيه بقوله ( مذكرة ) أي أن لها صفات الذكور من الإبل من الصلابة وقوة التحمل .

ثم بين صورة الضلوع فقال :

( كأن ضلوعها أطرحناها المساخي بيثرب )

فهو يشبه ضلوع الناقة الصلبة القوية بالقسي الماسخية في انحنائها وصلابتها .

فهناك قسي مؤترة أي مشدودة الأوتار ، وهنا أطر أي محنية ، وهناك ذكر علامة من علامات – الناقة ( مبراة ) ثم قال : ( تخال ضلوعها ) ، أما في هذا التشبيه مشبهها بداية بالصخرة فيبين قوتها ثم ذكر ( كأن ) التي تؤكد قوة الشبه والتشبيهان متقاربان جداً .

وورود تشبيه الإبل بالقسي كثير في الشعر الجاهلي ومنه كذلك قول طرفة :

تردُّ عَليَّ الرِّيح ثوْبي قَاعدًا لدَى صَدفيّ كالحنيَّةِ بارِكُ [2]

وقول زهير كذلك :

**تَظَلُّ تَمَطَّى في الزِّمامِ كأنَّها إذا بَرَكتْ قَوْسٌ مِنَ الشِّريَانِ**[3]

لقد وصف الشماخ بن ضرار مشهداً من مشاهد الصيد والذي من خلاله وصف القوس والسهام وكنى عنهما ، حيث يقول:

**فأَوْرَدَها ماءً بغَضْوَرَ آجِنًا لهُ عَرْمَضٌ كالغِسْل فيهِ طُمومُ**

---

(1) يُنظر: الديوان، ص١٢٩.

(2) يُنظر: الديوان، ص٩٦.

(3) يُنظر: شرح زهير، ص٢٦٩.

بحضرتهِ رامٍ أَعدَّ سَلاجِمًا وبالكفِّ طَوْعُ المركضيْنِ كَتُومُ
فلمّا دَنتْ للماءِ هِيمًا تعّجلتْ رَباعيّةٌ للهادِياتِ قَدُومُ
فدَّلتْ يديْها واستغاثتْ بِبَرْدِهِ على ظَمأٍ منها وفيهِ جُمومُ
فأهوى بمفتوقِ الغِرارْين مُرْهَفٌ عليه لُؤَامُ الريشِ فهو قَتُومُ
فأَنْفَذَ حِضْنَيْها وجالَ أمامَها طميلٌ يُفَرّي الجوْفَ وَهْوَ سليمُ[١]

فمن خلال هذه الأبيات وغيرها يتضح للقارئ مدى اهتمام العربي بقوسه وسهامه حتى أضفى عليها صوراً وتشبيهات وكنايات كما سبق ، وما سيمر كذلك فالشماخ هنا كنى بكنايات كثيرة عن قوسه وسهامه ومن ذلك قوله ( سلاجماً ) وهذه كناية عن سهامه العريضة الطويلة الجيدة ، ثم قال ( طوع المركضين كتوم ) كناية عن قوسة الطيعة اللينة المصيبة لهدفها في صمت وسكون ، ثم يعود لسهمه مكنياً عنه بقوله (مفتوق الغرارين مرهف ، عليه لؤام الريش قتوم ) وفي هذه الكنايات ما فيها من الوصف الدقيق البارع لهذه السهام الرقيقة القوية الحادة المكسوة بأجود أنواع الريش ، فهي إذا هوت على الفريسة لم تدعها حتى تهلكها ، وفي تعبيره بأهوى دلالة الهلاك والوقوع في الهاوية لمن أصابه هذا السهم ، فهذا السهم من شدة انطلاقه كأنه هوى في مكان سحيق سرعة وإصابة .

وأيضاً كعب بن زهير يصور حال صائده المتمرس في قتل الصيد وإجادته في تصوير المشهد وامتعاض الصائد حال فوات الفريسة منه و عدم إصابتها – محتذياً في ذلك وصف أوس لصائده – فيقول :

أَخُو قُتُرَاتٍ لا يَزَالُ كأنه إذا لم يُصِبْ صَيْدًا مِن الوَحْشِ غارم
يُقَلِّبُ حَشْرَاتٍ وَيْخَتارُ نَابِلٌ مِن الرِّيشِ ما التَفَّتْ عليه القَوَادِمُ
صَدَرْنَ رِوَاءً عن أسِنَّةِ صُلَّبٍ يَقِئْنَ ويَقْطُرْنَ السِّمَامَ سَلاَجِمُ

---

(١) "ديوان" الشماخ ، ص ٣٠١ – ٣٠٢ .

إلى قوله :

**يَعُضُّ بِإِبْهَامِ اليَدَيْـــــنِ تَنَدُّمًا وَلهَّفَ سِرًّا أُمَّهُ وهو نَادِمُ**[1]

فيجد القارئ لهذه الأبيات الصور البلاغية المعبرة ، فترى الكناية في قوله ( أخو قترات) ويقصد بذلك ملازمة صائده لمكانه وطول مكثه به ، فعبر بالأخوة لطول الملازمة مما جعله يلبس تلك الأماكن لباس الأخوة وكأنها عقدت معه صداقة وصلة إلى هذه الدرجة ، ثم يشبهه بالغارم ، حيث شبه هذا الصائد الذي لم يصب صيداً بالغارم الذي لا يجد ما يفك به دينه ووجه الشبه هو شدة الحزن مع عدم وجود ما يزيل هذا الحزن عنه في كل .

ثم يعود لما يملكه ويكنه لهدفه من تلك السهام القوية التي اختارها ولا زال يتخير منها أجودها ، و يظهر في قوله ( صَدَرْنَ رِوَاءً عن أَسِنَّةِ صُلَّبٍ ) استعارة تمثيلية حيث شبه هيئة تلك النصال وقد صارت على أتم وجه من الشحذ والحدة بعد أن كانت غير ذلك بهيئة الإبل التي ارتدت عن الماء وقد رويت منه بعد أن كانت عطشى بجامع الهيئة الدالة على تغير الحالة من السوء إلى الحسن في كل ،ثم حذفت هيئة المشبه ، واستعيرت هيئة المشبه به له على سبيل الاستعارة التمثيلية .

- واستعارة تمثيلية أخرى في قوله :( يقطرن السمام ) حيث شبهت هيئة تلك النصال وقد شحذت لتوقع بالفرائس الواحدة تلو الأخرى بهيئة الأفاعي التي يقطر من فيها السم الزعاف الناقع لتوقع بفرائسها بجامع الهيئة الدالة على التهيؤ وكمال الاستعداد التام في كل . ثم حذفت هيئة المشبه واستعيرت هيئة المشبه به له على سبيل الاستعارة التمثيلية .

ثم يعبر بعد هذا الاستعراض لحاله وعدته عمّا حصل له عند فوات الفرصة عليه من عض إبهامه فيقول : ( يعض بإبهام اليدين ) وفي هذا كناية عن الحسرة والندم على فوات مطلوب ومنه قول الله تعالى : ((وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا)) [2]

---

(1) يُنظر: الديوان، ص٤٤-٤٥.

(2) سورة الفرقان، آية ٢٧.

ويكني مرة أخرى عن تحسره وحزنه وأسفه على فوات تلك الفرصة السانحة له بقوله : (ولهف سراً أمه)

وقد استعار كعب معانيها من قصيدة أوس التي يقول فيها :

**أخُو قُتُرَاتٍ قَدْ تَيَقَّنَ أنّهُ إذا لم يُصِبْ لَحْمًا مِنَ الوَحشِ خَاسِفُ**
**مُعَاوِدُ قَتْلِ الهادياتِ شِوَاؤُهُ مِنَ اللّحم قُصْرَى بادِنٍ وَطفاطِفُ**
**قَصِيٌّ مَبِيتِ الليلِ للصَّيدِ مُطْعَمٌ لأَسْهُمِهِ غارٍ وبارٍ ورَاصِفُ**
**فَيَسَّرَ سَهْمًا رَاشَهُ بِمَناكِبٍ ظُهَارٍ لُؤامٍ فَهْوَ أعْجَفُ شارِفُ**
**على ضَالَةٍ فَرْعٍ كأنَّ نذيرَها إذا لَمْ تُخَفِّضْهُ عن الوحشِ عَازِفُ**
**فأمهلَهُ حتّى إذا أنْ كأنَّهُ مُعَاطِي يَدٍ مِن جَمَّةِ الماءِ غَارِفُ**
**فَأَرْسَلَهُ مُسْتَيْقِنَ الظّنّ أنّهُ مُخالطُ ما تحتَ الشَّراسِيفِ جَائِفُ**
**فَمَرَّ النَّضِيُّ للذِّرَاعِ ونَحْرِهِ وللحَينِ أحيانًا عنِ النَّفسِ صَارِفُ**
**فَعَضَّ بإبهامِ اليمينِ نَدَامَةً وَلَهَّفَ سِرًّا أُمَّهُ وهوَ لاهِفُ**

فيظهر تأثر كعب الشديد بأوس في معانيه، وقصيدة أخرى تحمل شيئاً من المعاني السابقة وقد تأثر فيها بأوس والشماخ فيقول :

**فأَمْسَك ينظرُ حتّى إذا دَنَوْنَ من الرِّيِّ أو قد رَوِينَا**
**تَنَحَّى بصَفْرَاءَ من نَبْعةٍ على الكفِ تجمع أرزا ولينا**
**معدًّا على عجْسها مرهفاً فَتِيقَ الغِرَارَيْنِ حَشْراً سَنِينَا**
**فأرسل سهماً على فقـرةٍ وهُنَّ شَوَارِعُ ما يَتَّقِينَا**
**فمَرَّ على نَحْرِهِ والذِّرَاعِ ولم يكُ ذاكَ له الفعلُ دينا**
**فلهّف من حسْرةٍ أمَّهُ وولَّيْنَ من رهجٍ يكتسينا**

ويأتي زهير بن أبي سلمى واصفاً صياده بغير ما وصفه أوس وابنه كعب بمعانٍ مغايرة لما سبق فيقول :

**وعلى الشَّرِيعةِ رَابِئٌ مُتَحَلِّسٌ رامٍ بعَيْنِيْه الحَظِيرةَ شَيْزَبُ**
**مَعَهُ مُتَابِعةٌ إذا هو شَدَّها بالشِّرْعِ يَسْتَشْزِي له وتَحَدَّبُ**

مَلْسَاءُ مُحْدَلَةٌ كأَنَّ عَتَادَها نَوَّاحةٌ نَعتِ الكِرامَ مُشَبِّبُ
قَنْوَاءُ حَصَّاءُ المُقَوَّسِ نَبْعَةٌ مِثلُ السَّبِيكةِ إذ تُمَلُّ وَتُشْسَبُ
عُرْشٌ كحاشِيةِ الإِزَارِ شَرِيجَةٌ صَفْرَاءُ لا سِدْرٌ ولا هِيَ تَأْلَبُ
وَمُثَقَّفٌ ممّا بَرَى مُتَمالِكٌ بالسَّيرِ ذو أُطُرٍ عليهِ ومَنْكِبُ
فَرَمَى فَأَخْطَأَهُ وَجَالَ كَأَنَّهُ أَلِمٌ على بَرْزِ الأَمَاعِزِ يلحبُ[١]

ففي قوله : ( رابئ ) استعارة ، حيث شبه الصائد بالحارس بجامع الترقب والإقامة في كل ثم حذف المشبه ، واستعير له المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية . و(الحظيرة ) استعارة كذلك ، حيث شبه الشريعة بمأوى الماشية بجامع أن كليهما تجتمع فيه وتأوي إليه ، ثم حذف المشبه ، واستعير له المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

ثم يأتي بتشبيه صوت قوسه في قوله : (كأَنَّ عَتَادَها نَوَّاحةٌ نَعتِ الكِرامَ مُشَبِّبُ) حيث شبه صوت وتر القوس إذا خرج السهم عنها بصوت النائحة التي تبكى على كرام فارقوا الحياة وتنوح عليهم ، ووجه الشبه هو ارتفاع الصوت وتردده في كل ، وذكر مناقب الكرام وخصالهم بعد هلاكهم ، فصوت القوس ليس كذلك على الحقيقة وفي الظاهر ، وإنما الشاعر هو من أنطقها بهذا المعنى وينسب إليها هذه الصفة .

ثم يمعن في تشبيهه التمثيلي لقوسه وإضفاء الصفات الحسنة لها بقوله :

**(قَنْوَاءُ حَصَّاءُ المُقَوَّسِ نَبْعَةٌ مِثلُ السَّبِيكةِ إذ تُمَلُّ وَتُشْسَبُ)**

حيث شبه هذه القوس بالسبيكة التي أحسن صنعها و أخذت أبهى منظر ، ووجه الشبه هو : جودة الصنع وبهاء المنظر في كل .

وقوله : ( عرش كحاشية الإزار ) تشبيه آخر حيث شبه طولها بطول الإزار ووجه الشبه هو الطول والاستواء والاعتدال في كل .

ويكني عن جودتها وقوتها ومتانتها وأنها من أجود العيدان بقوله : ( لا سدر ولا هى تألب) و( ذو أطر عليه ).

---

(١) يُنظر: شرح شعر زهير ، ص ٢٧٨- ٢٧٩ .

وفي كلمة ( منكب ) مجاز مرسل علاقته المحلية حيث عبر بالمنكب وأراد ما عليه من ريش ، وخُصَّ ريش المنكب عن العقاب أو الصقر لأنه أجود للسهام لأنه أعرض .

ثم أخذ في تشبيه حال فريسته حين أخطأها الرمي بقوله : ( وجال كأنه ألم ) حيث شبه ذلك الحيوان عندما دار حول نفسه من السهم بحال الحيوان الذي يدور من الألم ووجه الشبه هو الفزع والاضطراب الذي يدفع إلى حركة غير إرادية في كل .

ومن تشبيه الشعراء للسهم حال انطلاقه بالجمر قول امرئ القيس :

**ربَّ رامٍ من بني ثعلٍ مُتْلِجٍ كفَّيهِ في قُتَرِهْ**

إلى قوله :

**بِـــــرَهِيْشٍ مِـــــن كِنَانَتِــــهِ كَتَلَظِّــــي الجمْــــرِ في شَـــرَرِهْ**

**رَاشَــهُ مِــن رِيــش ناهضــةٍ ثُمَّ أمْهَــاهُ عَلــى حَجَــرِهْ** (١)

ففي قوله : ( برهيش من كنانته كتلظى الجمر في شرره ) تشبيه حيث شبه بريق تلك السهام وحدتها بتوهج الجمر وشرره ووجه الشبه هو شدة اللمعان والاحمرار في كل مكان.

وهذا السهم كيف لا يكون بهذه القوة والحدة وهو من ريش ناهضة وهي النسور والعقبان فهو أجود وأفضل ، وفي هذا كناية عن شدة العناية والاهتمام بتلك السهام .

ومن هذا المعنى تشبيه النبال وحدها بالجمر بيت الداخل بن زهير بن حرام في قوله :

**وَبِيضٌ كَالسَّلاجِم مُرْهَفَاتٌ كَأنَّ ظُبَاتَهَا عُقْرٌ بَعِيجٌ(٢)**

حيث يشبه حد السهم بالجمر الذي أثير بعود فاتقد ووجه الشبه هو شدة الاحمرار في كل.

ومنه قول امرئ القيس السكوني :

**يُقلبُ أشباهاً كأنَّ نِصَالَهَا بعيجةُ جمرٍ أو ذبالٍ مُفَتَلِ**

---

(١) يُنظر: الديوان، ص٢٤-٢٥.

(٢)شرح أشعار الهذليين، ٢/ ٦١٥ – ٦١٩ .

وقبل هذه الأبيات بيت أوس الذي مر معنا في البحث حيث يقول :

**تُخُيِّرنَ أَنضاءً وَرُكِّبنَ أَنصُلاً          كَجَمرِ الغَضا في يَومِ ريحٍ تَزَيَّلا**

ولعل في التعبير بالجمر والشرر والحمرة والاتقاد ما يوحي بقوة ومتانة هذه السهام وشدة إصابتها وكأنها في حرارة وقوعها على الفريسة ذلك الجمر المتقد المؤلم لمن قرب منه والقاتل لمن وضع فيه .

وأما عمرو ذو الكلب فشبهها بالرماح الطائرة وشبه ظباتها بالشوك فيقول(١):

**وَ ثُجْرَاَ كَالرِّمَاحِ مُسَيَّرَاتٍ          كُسِينَ دَوَاخِلَ الرِّيشِ النُّسَالِ**

وهي حيناً آخر كأنها شوك العضاة :

**وَفِي قَعرِ الكِنانَةِ مُرهَفاتٌ          كَأَنَّ ظُباتِها شَوكُ السَّيَالِ**

ففي قوله : ( كأن ظباتها شوك السيال ) تشبيه حيث يشبه نصال سهامه بشوك السيال ووجه الشبه هو الدقة والحدة والنفاذ في كل .

ويقول الشنفرى واصفاً سهام تأبط شراً :

**لَهَا وَفْضَةٌ فيها ثلاثونَ سَيْحَفا          إذا آنسَتْ أُولَى العَدِيّ اقْشَعَرَّتِ**

**وَتَأْتِي العَدِيَّ بارِزا نِصْفُ سَاقِها          تَجُولُ كَعَيْرِ العَانَة المُتَفَلِّتِ(٢)**

ففي هذين البيتين استعارتين وتشبيه ،فالاستعارة الأولى في قوله ( آنست ) ؛ حيث شبَّه الشاعر سهامه بالإنسان بجامع الإيناس في كل، واستعار الإيناس للإنسان، وقد حذفه وأتى بشيء من لوازمه وهو القشعريرة ، على سبيل الاستعارة المكنية الأصلية، وقرينتها لفظة آنست .

والأخرى في قوله : ( بارزاً نصف ساقها ) استعارة تمثيلية حيث شبه الشاعر هيئة القوس وهو يخرج منها نصف السهم وتكون مستعدة للقاء العدو بهيئة الفارس الذي يشمر

---

(١) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، ص ١٩٣ .

(٢) ديوان الشنفرى، ص٣٦.

عن ساقه ويكون جاداً ومستعداً ومتهيئاً للقتال ، ثم حذفت هيئة المشبه واستعيرت هيئة المشبه به له على سبيل الاستعارة التمثيلية .

وأما التشبيه ففي قوله : ( تجول كعير العانة المتفلت ) حيث شبه الشاعر حركة القوس يميناً وشمالاً وأماماً وخلفاً للرمي وإصابة الأعداء بحركة العير المتفلت فهو يجول ويتحرك يميناً وشمالاً ووجه الشبه هو الحركة غير المنضبطة التلقائية في كل .

ولم يقتصر العرب على ذكر القسي العربية فحسب بل تجاوزوا ذلك بذكر القسي الفارسية وتشبيهها بخشب الرحل في قوتها وشدة اعوجاجها وفي ذلك يقول أميه بن أبي الصلت(١):

**لايَضجَرونَ وَإن حُرَّت مَغافِرُهُم وَلا تَرى مِنهُم في الطَعنَ مَيّالا**

**يَرمونَ عَن شُدُفٍ كَأَنَها غُبُطٌ بِزَمْخَرٍ يُعْجِلُ المَرميَّ إِعْجَالا**

- ففي قوله : ( يرمون عن شدف ) فالشدف كناية عن موصوف وهي القسى الفارسية ، ويبدو أن العرب قد عرفوا أنواعاً من القس الفارسية التي وصلت إليهم عن طريق التجارة من الأمم الأخرى منها ( الشدف ) وسميت بذلك لشدة اعوجاجها ، حيث شبهها بالغبط وهو خشب الرحل ووجه الشبه هو الطول والعظم والضخامة في كل .

وفي كلمة : ( زمخر ) مجاز مرسل حيث إنه أراد السهام ،وزمخر نوع من القصب التي تصنع منه السهام ومن ثمَّ عبر به عن السهام عن طريق المجاز المرسل الذي علاقته باعتبار ما كان .

- وبقوله : ( يعجل المرمى إعجالاً ) كناية عن شدة هذه القوس وبعده مرماها وخفة السهام وشدة نفاذها وسرعتها وإردائها من وقعت عليه أو أصابته.

يتضح مما تقدم بروز ظواهر بلاغية معينة في وصف القسي والسهام تتركز في التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز ، مما ظهر للباحث وقد كان التشبيه والكناية الظاهرتان البارزتان في هذا الموضوع وذلك لما تتسم به حياة العربي في تلك الفترة الزمنية التي تعتمد في الغالب على التصوير المباشر للحياة وتشبيه ما يمتلكونه وما يعايشونه بما يرونه ماثلاً أمامهم وتلتقطه أعينهم عن قرب ، ولما للكناية والتشبيه من إمعان في الوصف يزيده قوة وجمالاً ، وتقريب

(١) يُنظَر: الديوان، ص٤٥٧.

للذهن بإيجاز واختصار ، ولما يحصل للنفس من الأنس به، بإخراجها من الخفي إلى الجلي الواضح. وهو ما يعبر عنه الرماني بقوله: إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة ، ولما يحصل للنفس من الأنس به بإخراجها مما لم تألفه إلى ما لها به إلف وقوله : إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة ، وإخراج ما لا يعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها[1].

(1) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي ، ت محمد خلف الله أحمد ، د . محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٦م ص ٨٠ –٨١.

## المبحث الثالث : المحسنات البديعية ودلالاتها :

لم يكن القدماء يفرقون بين البديع والفصاحة والبلاغة فكلها ألفاظ مترادفة وحين ظهر تقسيم البلاغة إلى: علم المعاني وعلم البيان – وعلم البديع، انصب اهتمام البلاغيين بالمعاني ثم البيان وجُعل تابعاً من توابع البلاغة، وهو في مفهوم بعض البلاغيين علم (يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة وهذه الوجوه ضربان: ضرب يرجع إلى المعنى، وضرب يرجع إلى اللفظ، بعد أن كان يمثل مستوى متميزاً ودرجة عالية يرتقي بها الفنان المطبوع، وقد وسّع البلاغيون دائرته فيما بعد وخاصة عند أصحاب البديعيات.

فعلم البديع هو أحد علوم البلاغة الثلاثة وقد احتل علم البديع مكانة عند القدماء لما كان له من تأثير في تجميل الصورة الشعرية ، استخدمه الشعراء القدامى إلا أن الشعراء العباسيين أكثروا منه و افتتنوا به و أفرطوا فيه حتى أصبح البديع عند بعض الشعراء هدفاً في ذاته و بالرجوع إلى أصل الكلمة بديع بدَع الشيءَ يَبْدَعُه بَدْعاً وابْتَدَعَه: أَنشأَه وبدأَه. والبَدِيعُ المحْدَثُ العَجيب.

والبَدِيعُ المبْدِعُ. وأَبدعْتُ الشيء: اخْتَرَعْته لا على مِثال. والبَديع من أَسماء الله تعالى لإِبْداعِه الأَشياء وإِحْداثِه إِيَّاها وهو البديع الأَوّل قبل كل شيء، ويجوز أَن يكون بمعنى مُبدِع أَو يكون من بَدَع الخَلْقَ أَي بَدَأَه، والله تعالى كما قال سبحانه: ((بَدِيعُ السمواتِ والأَرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون )) (١)أَي خالقها ومُبْدِعُها فهو سبحانه الخالق المخْتَرِعُ لا عن مثال سابق. (٢)

---

(١) سورة البقرة، آية ١١٧.

(٢) لسان العرب ج٣ مادة بدع .

والبديع يكون في الألفاظ المؤلفة و ليست في الكلمات المفردة ، قال صاحب الطراز :" اعلم ان هذا الفن من التصرف في الكلام مختص بأنواع التراكيب ولا يكون واقعاً في المفردات وهو خلاصة علمي المعاني و البيان ومصاص سكرهما ".(١)

وكان البديع في الشعر الجاهلي يأتي سليقة وبدون تصنع ولا تكلف وعلى هذا فقد كان ظهوره في شعره لا يوازي المعاني والبيان لاهتمامهم بهما و فرض الحياة الجاهلية عليهم ذلك لاعتمادها على الارتجال في المواقف والمباشرة وتصوير البيئة تصويراً دقيقاً يجعل القارئ والمتذوق يعيش الحدث ، ويظهر ذلك في وصفهم وبخاصة القوس إلا أنك تجد نزراً يسيراً لا يصل إلى درجة الظاهرة من البديع في وصف القوس ومن ذلك :

قول أوس في وصف قوسه (٢):

**وَإِن شَدَّ فيها النَزعُ أَدبَرَ سَهمُها إِلى مُنتَهىً مِن عَجسِها ثُمَّ أَقبَلا**

ففي هذا البيت يظهر طباق إيجاب بين أدبر وأقبل ؛ وغرض الشاعر من ذلك بيان شدة ليونة هذه القوس وقوة وترها ، فقوسه لمرونتها وحين يشد وترها ليدفع ذلك السهم القوي فما إن ينطلق حتى يقبل الوتر على مقبض القوس من شدة اندفاعه ، وفي هذا بيان وتصوير لقوسه المميزة ، وهذا الوصف الدقيق أتى في سياق ساقه الشاعر واصفاً فيه قوسه وسهامه كما مر في البحث .والطباق كما عرَّفه صاحب الإيضاح : الجمع بين المتضادين ؛ أي معنيين متقابلين في الجملة (٣).

ومنه كذلك قوله (٤):

**فَجَرَّدَهَا صَفْرَاءَ لاَ الطُّولُ عَابَهَا وَلاَ قِصَرٌ أَزْرَى بِهَا فَتَعَطَّلاَ**

---

(١)الطراز للإمام يحيى بن حمزة بن إبراهيم العلوي اليمني ، تحقيق د. عبدالحميد هنداوي ، المكتبة العصرية، صيدا ،بيروت لبنان ، ط١ ،١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م ، ج ٣ ، ص١٩٤ .

(٢)الإيضاح في علوم البلاغة، ص٣٦٢.

(٣)يُنظَر : الديوان، ص٨٥.

(٤) يُنظَر : الديوان، ص٩٦-٩٧.

فبين ( لا الطول – لا قصر ) طباق إيجاب ، فبين الطول والقصر تضاد ، وهو بهذا الوصف يبين مدى جودة قوسه وحسنها فلا هي بالطويلة المعابة ولا بالقصيرة المزدراة وخير الأمور الوسط كما بين الشاعر فهي وسط بين الطول والقصر ، ولما أن تكون القوس بهذه الصفة تكون عند الرماة أفضل وأجود حيث يتمكن منها ويحكم الرمي بها ويحدد الهدف .

ومنه كذلك قوله في وصف قوسه في قصيدة أخرى(١):

**فَمَظَّعَهَا حَوْلَيْنِ مَاءَ لحائها تُعَالَى عَلَى ظَهْرِ العَرِيشِ وَتَنَزِلُ**

فتجد الطباق واضح بين : ( تعالى – تنزل ) وهو بهذا يبين أنه تارة يعرضها في الهواء فوق العريش وتارة أخرى ينزلها داخل العريش وهذا فيه إحكام وإتقان في صناعة هذه القوس والعناية بها .

ومن صور البديع في وصف قوس الشماخ قوله :

**مطلاً برزقٍ ما يداو ى رميها وصفراءَ من نبعِ عليها الجلائزُ**

**فما زال ينحو كلَّ رطبٍ ويابسٍ وينغَلُّ حتى نالَها وَهْي بارزُ**

**قذوفٌ إذا ما خالطَ الظبيَ وإنْ ريع منها أَسلَمَتْهُ النواقزُ(٢)**

ففي هذه الأبيات الثلاثة تظهر صور بديعية ومنها : التدبيج أو طباق التدبيج وهو بين زرق وصفراء وفي هذا تدبيج كناية ومدح في آن واحد ، حيث كنى عن سهامه بلون الزرقة وفيه إخافة وإبراز قوة ، ومدح لقوسه الصفراء التي هي من أجود أنواع شجر القسي وهو النبع .

وفي البيت الثاني تجد طباق إيجاب بين رطب ويابس.

وتظهر المبالغة بارزة في قوله وإن ريع عنها أسلمتها النواقز حيث إن هذا الصيد لا يجد ملاذاً ولا مهرباً من هذه القوس بل أصبحت أقدامه هي التي تسلمه .

---

(١) الطراز للإمام يحيى بن حمزة بن إبراهيم العلوي اليمني ، تحقيق د. عبدالحميد هنداوي ، المكتبة العصرية، صيدا ،بيروت لبنان ، ط١ ،١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م ، ج ٣ ، ص١٩٤ .

(٢) يُنظَر: الديوان، ١٩٢–١٩٣.

والمبالغة : أن يدعى لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حداً مستحيلاً أو مستبعداً؛ لئلا يظن أن أنه غير متناه في الشدة والضعف[1].

ومن البديع ما يسمى بالتفسير وهو : أن يستوفي الشاعر ما شرحه وما ابتدأ به مجملاً، وقل ما يجيء هذا إلا في حد التفسير أكثر من بيت واحد . ومن ذلك قول الشنفرى [2][3]:

**ثَلاَثَةُ أَصْحَابٍ: فُؤَادٌ مُشَيَّعٌ وَأَبْيَضُ إِصْلِيتٌ وَصَفْرَاءُ عَيْطِلُ**

هذا البيت جاء في سياق حديث الشاعر عن قومه وتخليهم عنه وتركه لهم واستعاضته عنهم بهؤلاء الأصحاب الذين يجد فيهم أنسه مع من يعيش معه من الوحوش كما بين سابقاً ، وهو هنا فسر وبين للقارئ من هم هؤلاء الأصحاب الذين كفوه عن قومه و أغنوه عنهم فيبن أنهم قلبه القوي الشجاع الذي لا يهاب ، وسيفه المصلت على الأعداء المهلك لهم وقوسه الصفراء الطويلة .

و كما يظهر من خلال أبيات وصف القوس قلة صور البديع في شعر الجاهليين حيث الاهتمام بهذا العلم لم يظهر وينتشر بوفرة إلا في العصر العباسي و تلته العصور من بعده .

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، ص٣٩٠.

(٢) العمدة، لابن رشيق، ج٢، ص٣٥.

(٣) ديوان الشنفرى، ص٦٠.

# الفصل الثالث

## صورة القوس بين ( أوس بن حجر والشماخ بن ضرار ) :

المبحث الأول : المعجم الشعري .

المبحث الثاني : السياقات والمواقع .

المبحث الثالث : البناء الفني والدلالي .

بعد الحديث عن سياقات وصف القوس ، ومواقعه في بنية القصيدة الجاهلية ، والبناء الفني ودلالاته في أوصاف القوس، ستقوم الدراسة بمحاولة البحث عن تلك السياقات والمواقع والأبنية من خلال الموازنة بين شاعرين اشتهرا بوصف القوس وهما أوس بن حجر والشماخ بن ضرار ، مع التركيز على ثلاثة مباحث أساسية وهي : المعجم الشعري ، والسياقات والمواقع ، والبناء الفني والدلالي .

يقول محمد أبوموسى: (( لم أقرأ وصفاً للقوس ، في الشعر الجاهلي أقدم ولا أوسع ولا أجود من وصف أوس، وقصد وصف القوس في قصيدتين أطال في واحدة وأوجز في الثانية ، وقد جاء الشماخ بعد أوس وهو شاعر مخضرم ووصف القوس وصفاً عُرف وذكر وشهر وقد أفاد كثيراً من أوس )).[١] .

وهذا ما سيتضح من خلال هذا الفصل بإذن الله .

(١) الشعر الجاهلي ، د . محمد أبو موسى ، ص ٤٩٢

## المبحث الأول : المعجم الشعري :

إن أول ما ينبغي التركيز عليه في أية دراسة معجمية هو الطابع اللغوي للشعر ، فالشعر لغة أو هو مستوى راقٍ من مستوياتها وتستمد الوحدات المعجمية قيمتها من كونها العناصر الكبرى التي يتكون منها التركيب بصنفيه النحوي والبلاغي وهي لا تقتصر على تشكيل حقول دلالية داخل النص بواسطة الاشتقاق والترادف وما إليها من أنواع القرابة المعنوية التي يحققها تراكم مفردات بعينها، بل تتجاوز هذه الوظيفة إلى توفير عنصر الإبداعية والبحث عن المكون الشعري الخاص بالشاعر وخلال هذه السطور يحاول البحث عن المعجم الشعري الذي يعبر عن القاموس الشعري الخاص بكل من أوس والشماخ.

- **ألفاظ السلاح وأدواته :**

كان أوس بن حجر من الشعراء الذين ذكروا السلاح في أشعارهم وقد ألح هذا الأمر على أوس فجاء وروده كثيراً في شعره وقد سوغه البعض مما ذكر عن قبيلته بكر وغيرها وأن حالة البداوة بكل ما فيها من ثورة وعدم استقرار لازمتهم ، ولسيطرة النزعة البدوية عليهم نجد أن نزعة الحرب والقتال تسيطر على حياة أوس ولذا يقول :

**وَإِنّي امْرُؤٌ أعْدَدْتُ للحرْبِ بَعْدَمَا رَأَيْتُ لها نابًا منَ الشَّرِّ أَعْصَلاَ**[(١)]

لذا كثر ذكر السلاح ووصفه في شعره ، وفي قصيدته اللامية ما يدل على أنه خصصها لوصف الأسلحة الحربية ومطلعها :

**صَحا قَلبُهُ عَن سُكرِهِ فَتَأَمَّلا وَكانَ بِذِكرى أُمِّ عَمرٍو مُوَكَّلا**

وخلال هذه القصيدة يردد ذكر العديد من الأسلحة ، وكانت القوس أبرزها لذلك قالوا إن القوس من أكثر الأسلحة ذكراً في شعره .

(١) ديوان أوس ، ص ٨٣ .

وقد أشار النقاد القدامى إلى هذا الجانب في شعره ومنه قول ابن قتيبة : وهو من أوصفهم للحمر والسلاح[١] وذكره الجاحظ في حديثة عن العصي وصنعها والسهام[٢]

وقد ذكر القوس والسهم وأكثر من ذكرهما وكذلك ذكر السيف والرمح والدرع والمداوس والترس .

وقد كان ذكر القوس عنده في خمسة ألفاظ فقط ، وذكر السهام في ثمانية ألفاظ ، فألفاظ القوس: مبضوعة ، وصفراء ، وكتوم ، ومظَّعها ، انبضوا ، ونبع ، وألفاظ السهم : أسهم ، لؤام ، ثعلب وهو : ما دخل في جبة السنان ، مرقى : وهو خروج السهم من الجانب الآخر ، النضال : المحاربة بالسهام ، أنضاء : جمع نضي وهو السهم الذي لم يبر ، النضي : في موضعين وهو السهم الذي لم يبر. [٣]

وقد أخذت أدوات الحرب حيزاً لا بأس به في ديوانه فقد وصفها بدقة وإحكام وهذا يدل على اهتمامه بها واعتنائه ؛ لأنه أخو غمرات ، رجل حرب ، مقدام مدجج بأنواع السلاح .

كما أن للسلاح وأدواته وخاصة القوس منزلة خاصة عند أوس فكذلك الشماخ بن ضرار، كيف لا ؟! وقد كان فارساً وبطلاً ، وكان يحث الناس على الجهاد في معركة القادسية وغزا أذربيحان مع سعيد بن العاص و توفي في ميدان المعركة في غزوة موقان ، لذا كان للسلاح منزلة عندهَ وكانت القوس قريبةً من قلبه فهي تلازمه ولا يستغنى عنها في حرب أو سلم ، وكانت قصيدته الزائية خير بيان عن مدى تعلقه بقوسه وشدة ذلك حيث تحدث فيها عما يربو عن العشرين بيتاً ، ولم يذكر في قصيدته سلاحاً آخر بالوصف والتفصيل كما وصف وأبان وأجاد عن قوسه، ويعتبر الوصاف لها بعد أوس الذي أفاد من ألفظه وأوصافه

(١)الشعر والشعراء، لابن قتيبة ، ١/٢٠٢ ، ٢٠٩ .

(٢)البيان والتبيين ، للجاحظ ، ٣ / ٩٣ .

(٣)أوس بن حجر ومعجمه اللغوي ، د. سهام عبد الوهاب الفريح ، حوليات كلية الآداب ، كلية اللغة العربية ، جامعة الكويت، ح ١٩ الرسالة ٣٣١ ، ١٤١٨ هـ = ١٩٩٨ م ، ص ١٧ – ٢٠ بتصرف .

لقوسه حتى بان تأثره به في كثير من شعره وخاصة وصف القوس ، كما ذكر ذلك القدماء ، ولذا يقول :

**قَلِيلُ التِّلاَدِ غَيْرَ قَوْسٍ وَأَسْهُمٍ كَأَنَّ الذِّي يَرْمِي مِنَ الوَحْشِ تَارِزُ[١] (١)**

فالقلة هنا كناية عن العدم أي لا يملك من السلاح غير قوسه وسهامه وهذا القصر بطريق النفى الضمنى المفهوم من التعبير بلفظ ( قليل ) والاستثناء بـ ( إلا ) يشعرنا بقيمة القوس في حياة الشماخ ومدى تقديره لها وأنه إذا كان معه قوسه فمعه سلاحه الذي لا يرضى به بديلا .

وبهذا ترى كيف تملك القوس والسهم قلب الشماخ فما عاد يرى سواها ولا يتعلق بغيرها .

- **ألفاظ الألوان :**

ورد ذكر اللون الأصفر للقوس في شعر الشعراء الجاهليين وقد مر في ذكر ذلك بالشواهد ، وهو من الوصف الشائع[٢]،والحديث في هذا المبحث سيكون منصباً حول ما ذكره أوس والشماخ ، ويعتبر أوس من أشهر وصّاف القوس وقد ذكرها بالصفار في كثير من شعر ومن ذلك قوله :

**وصَفْراء من نبع كأَنَّ نَذِيرَها إذا لم يُخَفِّضْه عن الوحش أَفْكَلُ[٣]**

وكان الشعراء قديماً إذا تحدثوا عن القوس تحدثوا عن صفتين به وهما :

اللون والصوت ، وهنا كنى الشاعر عن قوسه بقوله : ( وصفراء من نبع ) وهذا الوصف واللون يكشف عن تلك البهجة التي يجدها صاحب القوس لأن اللون الأصفر من

---

(١)"ديوان" الشماخ ، ص١٧٣.

(٢)الشعر الجاهلي ، دراسة في منازع الشعراء ، ص ٥٠٣ .

(٣)ديوان أوس ، ص ٩٦ .

الألوان الحارة التي تبعث في النفس بهجة ، ونشاط كما هي الشمس بأشعتها الصفراء التي توحي بالإشراق والتجدد والنشاط والحيوية .

كذلك ذكر اللون مرة ثانية عندما أخذ يصف سهامه فقال :

**تخيّرْنَ أنضاءً وركّبنَ أنْصُلاً كجمرِ الغضَا في يومِ ريحٍ تزيَّلا**[1]

فهنا تشبيه نصال سهامه بحمر الغضا وبهذا فقد أشار إلى لونها دون التصريح به حيث إنه محمر شديد الحمرة كجمر الغضا وهذا يدل على شدتها ونفاذها كما أن اللون الأحمر يتلاءم مع النصال التي يختلط بها دم الفرائس التي تصطادها كما سبق وبين قبل ذلك.

ثم ذكر اللون مرة ثالثة في قوله :

**ثلاثة أبراد جياد وحرجة وأدكن من أري الدبور معسلُ**[2]

فوصف العسل بأنه أدكن أي مائل إلى السواد وهذا دال على أنه عسل من أجود أنواع العسل وأفضله .

أمَّا الشماخ فقد ذكر اللون في مواضع متعددة أيضاً من قصيدته الزائية فقال[3]:

**مُطّلا بِزُرْقٍ ما يُداوى رَميُّها وصفراءَ مِن نبْعٍ عليها الجلائِزُ**[4]

(١)ديوان الشماخ ، ص ١٨٣ .

(٢)" ديوان أوس ، ص٩٨ .

(٣)ديوان أوس، ص٩٨.

(٤)ديوان الشماخ ، ص ١٨٣ .

فوصف قوسه بالصفرة واللون الأصفر يدل على استواء هذا العود وأنه ظاهر الحسن كما يحمل معنى التهويل والترهيب للأعداء وهكذا تضح الثنائية ( الموت والحياة ) كما سبق إيضاحه ، ثم ذكر لوناً آخر عند ذكر سهامه وهو اللون الأزرق فقال :

مُطّلا بِزُرْقٍ ما يُداوى رَميُّها

والزرق كناية عن أسهمه ، والتعبير بهذا اللون فيه ترهيب للأعداء لأن زرقة العين مكروهة عند العرب لأن المراد بالزرق : العمى وعليه ففيه بيان بان سهامه عمياء لا تفرق بين أحد ولا بين شريف ووضيع ولا شك أن في ذلك من الترهيب والتهويل ما فيه ، كما ذكر ذلك امرئ القيس في قوله : (( ومسنونة زرق كأنياب أغوال )) .

وذكر كذلك لون الصفرة ولكن ليس بلفظه الصريح كما في قوله :

**كأنَّ عليْها زَعفرانًا تُميرُهُ خَوازِنُ عطّارٍ يَمانٍ كَوانِزُ** (١)

فأبان عن لون الصفرة بقوله ( زعفراناً ) وهذه الصفرة الشديدة تبين عن ابتهاج وسرور وفرح بهذه القوس وسرور صاحبها بها أيما سرور فهي صارت صفراء فاقع لونها تسر صاحبها وتسعده لأنه يعرف قيمتها وقدرها ، وقد ورد ذكر اللون الأصفر في كتاب الله حينما أمر اليهود بأن يذبحوا بقرة وترددوا في ذلك حتى بين لهم صفة من صفاتها وهي لونها الأصفر الفاقع الصفار ، وذلك في قوله تعالى : (( قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ )). (٢)

---

(١)ديوان الشماخ، ص١٩٣.

(٢)سورة البقرة، آية ٦٩.

- **ألفاظ الشموخ والكبرياء :**

كثرت اللكمات الدالة على الشموخ والفخر والكبرياء عند أوس بن حجر ومن ذلك قوله :

**وَمَبْضُوعَةً منْ رأسِ فرعٍ شظيّةً بِطَوْدٍ تَرَاهُ بالسَّحابِ مجلَّلاَ** [1]

تأمل كلمات : ( رأس ، طود ، السحاب ) فجميعها يوحي بالكبرياء والفخر والاعتزاز والشموخ .

وكذلك من قصيدة أخرى قوله :

**تَعْلَمَهَا فِي غِيْلِهَا وَهْيَ حَظْوَةٌ بِوَادٍ بِهِ نَبْعٌ طِوَالٌ وَحِثْيَلُ**[2]

انظر لقوله ( غيلها ، حظوة ، نبع ، طوال )

فكل هذه الكلمات وغيرها تعكس إحساس العربي بقوله إذ تمثل عنده جانباً مهماً من جوانب الحياة ، فهو من خلالها يعبر كما سبق عن فخر واعتزاز يمتلكه وبرهن عليه بعباراته الموحية بذلك في قاموسه الشعري عموماً وفي وصفه القوس خصوصاً .

كذلك تجد الشماخ يشمخ بقوسه ويعتز بها ويدلل على علو مكانها وصعوبته ومن ذلك قوله :

**تَخَيَّرَهَا القَوَّاسُ مِنْ فَرْعِ ضَالَةٍ لَهَا شَذَبٌ مِنْ دُونِهَا وَحَوَاجِزُ**[3]

لاحظ كلماته ( تخيرها و القواس ، فرع ، ضالة )

كذلك قوله :

---

(١)ديوان أوس، ص٨٣.

(٢)المرجع السابق، ص٩٧.

(٣)ديوان الشماخ، ص١٨٤.

**وَحَلأَهَا عَن ذِي الأَرَاكَةِ عَامِرُ      أَخُو الخِضْرِ يَرْمِي حَيْثُ تُكْوَى النَّوَاحِزُ**

وهنا كلمات ( عامر ، أخو الخضر ، الأراكة )

كذلك قوله :

**مُطّلا بِزُرْقٍ ما يُداوى رَمِيُّها      وصفراءَ مِن نبْعٍ عليها الجلائِزُ**

وهنا : ( مطلاً ، زرق ، صفراء ، نبع )

فكل هذه الكلمات وغيرها تشير إلى أن كلا الشاعرين نظر إلى قوسه نظر احترام وتقدير وأن كليهما رأى من الأوصاف والقوة ما يشمخ بها ويدل على أن الفوز بهذه القوس فوز بأمر عزيز على كثير من الناس .

- **ألفاظ العناية والاهتمام :**

كان أوس مهتماً بقوسه التي تخيرها بدقة وجشم نفسه للوصول إليها ومما يدل على ذلك في شعره .

قوله :

**يُطيفُ بِها راعٍ يُجَشّمُ نَفسَهُ      لِيُكلِئَ فيها طَرفَهُ مُتَأَمِّلا**

فلك أن تتأمل قوله : ( يطيف ، يجشم ، يكلئ ، طرفه ، متأملا )

وكذلك قوله :

**فَأَنحى عَلَيها ذاتَ حَدٍّ دَعا لَها      رَفيقاً بِأَخذٍ بِالمَداوِسِ صَيقَلا**

**عَلى فَخِذَيهِ مِن بُرايَةِ عودِها      شَبيهُ سَفى البُهمى إِذا ما تَفَتَّلا**

وهنا يلاحظ التعبير بـ ( أنحى ، رفيقاً ، صيقلا ، على فخذيه )

ومنه أيضاً قوله :

**فَمَظَّعَهَا حَوْلَيْنِ مَاءَ لحائها      تُعَالَى عَلَى ظَهْرِ العَرِيشِ وَتَنَزَّلُ**

وهنا أتى بكلمات ( مظعها ، حولين ، تعالى ، تنزل )

وكانت ألفاظ العناية والاهتمام ظاهرة بشكل أكثر عند الشماخ .

ومن ذلك قوله :

**تَخَيَّرَهَا القَوَّاسُ مِنْ فَرْعِ ضَالَةٍ      لَهَا شَذَبٌ مِنْ دُونِهَا وَحَوَاجَزُ**

فكلمة ( تخيرها ) وما تشير إلى أنه اختارها بدقة فهو يعرف قدرها حق المعرفة .

وكذلك قوله :

**فَمَظَّعَهَا حَوْلَيْنِ مَاءَ كَأَنَّهَا تَعَالَى عَلَى ظَهْرِ العَرِيشِ وَتَنَزَّلُ**

انظر التعبير بـ ( مظعها ، حوليين ، ينظر )

وكذا قول الشماخ :

**إِذَا سَقَطَ الأَنْدَاءُ صِينَتْ حَبِيرًا وَلَمْ تُدْرَجْ عَلَيْهَا المَعَاوِزُ**

فعبر بـ ( صينت ، أكرمت ، حبيراً )

كل ذلك وغيره يشير إلى اهتمام فوق العادة واحترام وتقدير وحب وعدم النظر إليها على أنها قوس عادية ولكنها بمثابة القوة والصديق والرفيق والعون .

قد أحس الشاعران بقيمة قوسهما ، وكل منهما كانت له عاطفة صادقة تجاه قوسه فلم يزيف ولم يبالغ ولكن أبان عما في نفسه لهذه القوس .

ولكن مع هذه الإبانة عن قوسهما إلا أن الشماخ استقى معظم أفكاره العامة من أوس، فهو قد اختار شجرها ، وصور مكانها ، ووصف الجهد المبذول في الحصول عليها .

ومن خلال هذه الأبيات تتضح صورة أوس في جزئيات من شعر الشماخ فتجده يستعير كثيراً من ألفاظ أوس ويوظفها في شعره ومن ذلك تجد عند أوس قوله ((تعلمها )) والشماخ (( تخيرها )) واستخرجها أوس من وادٍ فيه أنواع الأشجار ، وعبر عن ذلك الشماخ بأنه استخرجها من أشجار متلاصقة مشتبكة .

وغير هذه المقابلة كثير مما يوحي إيحاءاً واضحاً جلياً بتأثر الشماخ بأوس في وصفه لقوسه واستقاءه من ألفاظه ومعانيه .

## المبحث الثاني: السياقات والمواقع :

لقد سبق وأن بُينت سياقات وصف القوس عموماً عن الجاهليين عند شعراء الجاهلية ومواقع تلك السياقات ، ولعله في هذا المبحث يُقتصر على الشاعرين المتخصصين في وصف القوس والذي أسهبوا في وصفها وهم أوس والشماخ .

يقول الأستاذ محمود شاكر معلقاً على زائية الشماخ في وصف القوس :

شمخ بها الشماخ على عظماء الشعر ممن استلهموا الهياكل والجبال المقدسة[1]وهذا الثناء في تصور الباحث يشمل أوساً أيضاً لما بين الصورتين من تقارب فقد ذكر أوس ملامح قوسه ماراً بجميع مراحل تصنيعه منذ أن كان غصناً في رأس شجرة إلى أن صار يكسى بالريش اليمانى ، ولوتره صوتاً ترق له القلوب كصوت مطافيل الإبل ، فعود هذا القوس مقطوع من أعلى الشجرة وهذه الشجرة قد نبتت وسط صفوان في رأس جبل كساه السحاب وغطاه وهذا الصفوان أملس ناعم من ينزل على متنه يزلق من شدة ملاسته فرسم الشاعر شدة ملاسة الصفوان وزلقه عن طريق التشبيه المركب حيث شبهه بصفوان قد صب عليه من الوسط دهن مرة بعد مرة فزاد زلقاً على زلق ، ثم استطرد أوس في وصف المشبه به ( الصفوان ) وراح يذكر مراحل إعداد هذه القوس من مبدئها عندما كانت عود غصن من رأس فرع شظية إلى منتهاها واكتمال صنعها. [2]

صفات كل قوس :

**القوس الأولى عند أوس بن حجر :**

وصفها بأنها : مقطوعة من رأس شجرة على قمة جبل عالٍ ، و يصعب الوصول إليها لأنها بمكان يزلق المتنزلا حتي يئس المبدعانى منها ، ثم تركها لتتشرب ماء لحائها حتى تقوى وتصلب ، واعتنى بها فأخذ يبريها برفق بآلة حادة .

---

(١)القوس العذراء، أ/ محمود محمد شاكر، مكتبة الجانحى، الطبعة الثانية، دار الفكر – بيروت . ١٩٩٢م ، ص/ ٣٧ .

(٢)ينظر صنعة التشبيه بين أوس بن حجر وزهير بن أبى سلمى دراسة موازنة ، للباحث / يوسف بن طفيف بن مبارك العدوى ،جامعة أم القرى ص / ١٤٠ وما بعدها .

**القوس الثانية عند أوس بن حجر :**

وصفها بأن : لونها أصفر مأخوذة من النبع ،و صوتها شديد كالرعد ، ظاهرة الحسن منذ أن كانت شجرة وعوداً ، تركها لتتشرب ماء لحائها حتى تقوى وتصلب ، وأبقى عليها بعض اللحاء لتكون أمتن وأصلب وأشد ، وحدد ثمنها ليبيعها .

- أما قوس الشماخ :

وصفها بأنها : مقطوعة بيد خبير، وسهامها نافذة ، لونها أصفر مأخوذة من النبع متخيرة، استوت في مكانها ولم يتعجل بقطعها ، مظغها ماء اللحاء لتتشربه وتصير أقوى وأصلب، قومها وبراها بخبرة ، تمتاز بشدة مرونتها ، وصوت وترها عالٍ عند النبض ، سهامها النابضة عنها سريعة نافذة ، يعتنى بها صاحبها فهي مصونة محفوظة عنده . غالى في ثمنها وفارقها وهو كاره لفراقها .

- وبالنظر تجد أن الشماخ قد أتى على كل صفات القوس عند أوس في قصيدتيه فجمع كل الصفات في قصيدته وزاد عليها وهذا يدل على منزلة القوس عند الشماخ فهي عنده بمنزلة الولد فهو يعتني بها اعتناءً عجيباً فنظره إليها يقر عينه ويبهج قلبه ونفسه .
- وقد أبان أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى عن الفارق بين قوسي أوس بن حجر وقوس الشماخ ، وبين فضيلته عن أن كل قوس من هذه الأقواس ينتجها السياق الذي وردت فيه في القصيدة ، حتى إنه ينتج كل أحوالها وأوصافها ولذا يقول الدكتور : ( إن كل قوس هي نتاج سياق وهي جزء من قصيدة هي نفسها نتاج سياق تتشابه فيه كل المكونات [١]
- وأبان فضيلته أن قوس أوس في القصيدة التي أطال فيها وصفها والتي قائلاً:

**وَمَبضوعَةً مِن رَأسِ فَرعٍ شَظِيَّةً بِطَودٍ تَراهُ بِالسَحابِ مُجَلَّلا**

**عَلَى ظَهرِ صَفوانٍ كَأَنَّ مُتونَهُ عُلِلنَ بِدُهنٍ يُزلِقُ المُتَنَزِّلا**

هي هنا قوس رجل عنده من القدرة المتفوقة على إدراك النفاسة في الشيء الذي بينك وبينه حجب، أمَّا قوسه في القصيدة التي اختصر وصفها فيها والتي يقول فيها :

(١) الشعر الجاهلي، د.محمد أبو موسى ، ص ٥١٢.

وَصَفْرَاءَ مِنْ نَبْعٍ كَأَنَّ تّذِيرَهَا		إِذَا لَمْ تُخَفِّضْهُ عَنِ الوَحْشِ أفْكَلُ
تَعْلَمُهَا فِي غَيْلِهَا وَهْيَ حَظْوَةٌ		بِوَادٍ بِهِ نَبْعُ طُوَالٍ وَحَثْيَلُ(١)

فهي هنا قوس رجل تغيرت أحواله وقيد العدم نائله وتخير معشراً كراماً ليعينوه وهذا يتواءم جداً ويتناسب مع قوله :

فَجِئْتُ بِبَيْعِي مُولِيًا لاَ أَزِيدُهُ		عَلَيْهِ بِهَا حَتَّى يَؤُوبَ المُنَخَلُ

فحدد الثمن وعرف وجهته وتمسك به ليكون خلاصاً له مما يلاقى من شدة وعدم.

أمَّا قوس الشماخ في زائيته فقوس لم يقصد إلى وصفها الشماخ وإنما جاء وصفه لها تبعاً لحديثه عن الرامي وهى تلك القصيدة التي يقول فيها :-

وَحَلأَهَا عَن ذِي الأَرَاكَةِ عَامِرُ		أَخُو الخِضْرِ يَرْمِي حَيْثُ تُكْوَى النَّوَاحِزُ
قَلِيلُ التِّلاَدِ غَيْرَ قَوْسٍ وَأَسْهُمٍ		كَأَنَّ الذِّي يَرْمِي مِنَ الوَحْشِ تَارِزُ(٢)

يقول الدكتور محمد أبو موسى: (لا شك أن مدخل الحديث عن القوس عند الشماخ مختلف جداً عن مدخل الحديث عنها في شعر أوس ، فأوس كان يصف سلاحه في القصيدتين ، في واحدة رأى للحرب ناباً من الشر أعصلا فاستعد لها برمحه وسيفه ودرعه وقوسه ، وفي واحدة كان حديثه عن سلاح يدرأ عنه ميل ذى الجناح المعبل ، يعنى كان سلاحاً للوقاية ولم يكن سلاحاً لحرب راهنة . والشماخ مدخله للحديث هو ذكر الرامي وعير الوحش الذي كان ينجو بعشيرته من الأتن من كل باب من أبواب الخطر وكان الشماخ بارعاً في صياغة هذا الخطر وبارعاً أيضاً في تصوير مخارج العير وعشيرته منه) (٣)

وقوس الشماخ قوس انبرى لها بيع يغلى بها السوم رائز فقال :

فَوَافَى بِهَا أَهْلَ المَوَاسِمِ فَانْبَرَى		لَهَا بَيْعٌ يُغْلِي بِهَا السَّوْمَ رَائِزُ
فَقَالَ لَهُ: هَلْ تَشْتَرِيهَا فَإِنَّهَا		تُبَاعُ بِمَا بِيعَ التِّلادُ الحَرَائِزُ

فالقوس هنا قوس غالية عليه لا يريد أن يفرط فيها ولو ضوعف له فيها الثمن .

---

(١) ديوان أوس ، ص ٩٧ .

(٢)ديوان أوس ، ص ٥٦ .

(٣) الشعر الجاهلي ، د. محمد أبو موسى ، ص ٥١٤ ، ٥١٥ .

## المبحث الثالث :البناء الفني والدلالي :

إن الحديث عن البناء الفني في موضوع القوس قد تُطرق إليه بشكل عام عند من وصف القوس ، وفصل فيه القول من حيث الظواهر البلاغية البارزة فيها ، وأما في هذا المبحث فسيكون الحديث مخصصاً لشاعرين أجادا في وصف القوس وعمل مقارنة بينهما وبيان تميز بعضهما على الآخر ، وكل منهما له ما يميزه ، ولعل أول من سيتحدث عنه أوس بن حجر الذي يعتبر من أشهر من وصف القوس وأسهب في وصفها و يعتبر دليلاً وأنموذجاً للشعراء الذين تحدثوا عن القوس لاسيما الشماخ الذي سبق وذكر في البحث شدة تأثره بأوس في وصفه لقوسه .

فيقول في قوسه :

**وَمَبضوعَةً مِن رَأسِ فَرعِ شَظِيَّةً بِطَودٍ تَراهُ بِالسَحابِ مُجَلَّلا**

**عَلَى ظَهرِ صَفوانٍ كَأَنَّ مُتونَهُ عُلِلنَ بِدُهنٍ يُزلِقُ المُتَنَزِّلا**(١)

جعل قوسه مقطوعة من فرع شجرة شامخة في أعلى جبل شاهق مجلل بالسحاب وجعلها مطلباً صعباً ، الطريق إليه شاق وعسير ، فقد نبتت شجرتها على حجر صلد يزلق من يريد اعتلاءه أو النزول إليه ، وكأنه سقى مرة بعد مرة بالدهن .

ويسهب أوس في سرد قصة قوسه مذ كانت غصناً طرياً في أعالي الأشجار حتى صارت بيد صانعها ، ويلون قصته ، ويظهر الجهد في حماية القوس ورعايتها حتى تصبح جميلة بهية تمتع الناظر إليها ومن رعاها وحماها .

**يُطيفُ بِها راعٍ يُجَشِّمُ نَفسَهُ لِيُكلِئَ فيها طَرفَهُ مُتَأَمِّلا**

أظهرت الأفعال المضارعة ( يطيف ، يجشم ، ليكلئ )

في تتابعها في الزمن ، عنصر السرد ، فكل فعل منها يصور من حالات النفس البشرية التي تبذل الجهد بالعمل للتغلب على الطبيعة .

---

(١)ديوان أوس ، ٨٥ -٨٦ .

فالفعل ( يطيف ) وهو من الأفعال النمطية التي ترتبط معانيها بالاستدارة حول الشيء والإحاطة به والدوران حوله تزامن مع تجشم العناء ومقاومة إغراء النفس ، وتزامن أيضاً مع المتعة والتأمل والبهجة .

وتحيلنا هذه الأفعال أيضاً إلى ثنائية الطبيعة والحضارة إذ تشير إلى الجهد البشري في تشخيص الطبيعة وتطويعها وهذه الثنائية الرئيسة في النص تتصل بثنائية الحياة والموت فالقوس إحدى أدوات الحرب والصيد فهي تقتل الكائنات الحيوانية والبشرية ولكن الوعى الجمالى الشعري تعالى على فكرة الحرب بتجميل أدواتها .

ويوفر أوس لقصته مزيداً من عناصر القص ، فتتعدد الشخوص فيها ، فمن شخصية الرجل الراعي الذي يطيف بها ويجمعها ويمتع نظره بها إلى شخصية الرجل الخبير بالجبال الوعرة والمسالك الصعبة ويكون اختياره على رجل من ميدعان فيسأله عن خبير بالجبال والأشجار يستطيع أن يقتطع له قضيب القوس من شجرتها ويكشف الحوار عن تساؤل مفعم بالحيرة والرغبة والخوف من ضياع هذه الغنيمة.(١)

يقول :

**فَلاقى اِمرَأً مِن مَيدَعانَ وَأَسمَحَت قَرونَتُهُ بِاليَأسِ مِنها فَعَجَّلا**

**فَقالَ لَهُ هَلْ تَذكُرَنَّ مُخَبِّرًا يَدُلُّ عَلى غُنمٍ وَيُقصِرُ مُعمِلا**

**عَلى خَيرِ ما أَبصَرتَها مِن بِضاعَةٍ لِمُلتَمِسٍ بَيعًا بِها أَوْ تَبَكُّلا**

ثم يدخل قصة القوس بعض عناصر الإثارة والتشويق ويصف درب الأهوال إليها ، فهي فوق جبيل شامخ الذروة لا يمكن الوصول إليها إلا بشق الأنفس فدونها فرجة مهولة بين جبلين شاهقين تفصلهما أودية ومهاوٍ مخيفة .

---

(١) ينظر صورة السلاح في ديوان أوس بن حجر، د. مصطفى الحداد ، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، السنة الرابعة ، العدد الخامس عشر ٣٠ – ٣٩ .

ولكنه لا يتراجع بل يتابع سعيه من مكان صعب إلى آخر أصعب فلو زلت قدمه من المكان الذي صار إليه لتقطع إرباً إرباً ولكن العزيمة والجهد كانا أقوى من الخوف فلم يلتفت ليوجه اللوم إلى قوسه التي دفعته بإغرائها إلى أعلى المراقي أو بلوم نفسه المغامرة المخاطرة وتحتدم المشاعر في داخله من خوف إلى رجاء فأمل فرغبة في الانتصار .

وبعد الحصول على القوس تبدأ رحلة جديدة لإعدادها إذ عليه أن يمظعها أي يسقيها من ماء لحائها فيترك اللحاء عليها ولا يقشرها كي لا تجف وتيبس ثم ينحى عليها مصقله برياً وهو في كل ذلك يعاملها برفق خشية أن تتلف

**فَلَمّا نَجا مِن ذَلِكَ الكَربِ لَم يَزَل      يُمَظِّعُها ماءَ اللِحاءِ لِتَذبُلا**

**فَأَنحى عَلَيها ذاتَ حَدٍّ دَعا لَها      رَفيقاً بِأَخذٍ بِالمَداوِسِ صَيقَلا**

**عَلى فَخِذَيهِ مِن بُرايَةِ عودِها      شَبيهُ سَفى البُهمى إِذا ما تَفَتَّلا** (١)

وتظهر القوس في آخر المشهد بلونها الأصفر الأخاذ وهو أحد الألوان الحارة الفاقعة ، ويدقق الشاعر في عرض مواصفاتها فيحرص على أن يوفر لها صفة الاعتدال فلا هي قصيرة فتتفلت من حاملها ولا هي طويلة طولاً زائداً يعطل دورها فتترك .

**فجردها صفراء لا الطول عابها      ولا قصر أزرى بها فتعطلا**

يقول الخالديان عن قوس أوس هذه : ((وأما ذكره القوس ووصفه لها وحمل الَّذي قطعها نفسه على التسلّق في الجبال الوعرة والهضاب العالية حتَّى ظفر بها بعد طول الجهد ومعاناة الكدّ ثمَّ نقله إيّاه من حالٍ إلى حالٍ حتَّى بلغت نهاية ما أراد فهي صفةٌ ما نعرف لها نظيراً فنأتي به. ولقد أجاد في كل ذلك وأتى لم يتعاطه بعده أحدٌ من الشعراء في هذا المعنى من ذكر القوس خاصة، ولو أن صفته هذه وما حمّل نفسه من المكروه وعاناه من المشقّة في طلب جوهرة نفيسة أو درّة خطيرة لكان قد استغرق في ذلك مجهوده وبلغ نهاية حيلته. (٢)

---

(١)ديوان أوس ، ص ٨٧.

(٢)الأشباه والنظائر للخالديين ، ج ٢ ، ص ٥٠ .

ويتكلم الشاعر عن سهامه وهي من أسلحة الحرب أيضاً فيجعلها مقطوعة من فروع نادرة وغريبة من الأشجار وقد تحذق الصانع في صناعتها وتأنق وركب عليها النصال المسنونة التي يعلو بريقها ويتوهج وكأنه جمر الغضا هبت عليه رياح الصبا فتطاير شرره:

**وَحَشوَ جَفيرٍ مِن فُروعِ غَرائِبٍ　　تَنَطَّعَ فيها صانِعٌ وَتَنَبَّلا**
**تُخُيِّرنَ أَنضاءً وَرُكِّبنَ أَنصُلاً　　كَجَمرِ الغَضا في يَومِ ريحٍ تَزَيَّلا**

ويبذل الصانع خبرته وثقافته في تصنيع السهام فيكسوها ريشاً متناسقاً يلائم بعضه بعضاً ليناً حسن المنظر لونه أطحل بين البياض والسواد ثم يسهب في إظهار قدرة سهامه فهي تصوت ويسمع صوتها حتى في اليوم المطير

**كَساهُنَّ مِن ريشٍ يَمانٍ ظَواهِراً　　سُخاماً لُؤاماً لَيِّنَ المَسِّ أَطحَلا**
**يَخُرنَ إِذا أُنفِزنَ في ساقِطِ النَدى　　وَإِن كانَ يَوماً ذا أَهاضيبَ مُخضِلا**
**خُوارَ المَطافيلِ المُلَمَّعَةِ الشَوى　　وَأَطلائِها صادَفنَ عِرنانَ مُبقِلا**

تجلت في صورة السهام ثنائية الحياة والموت فإن كانت السهام لبنة طرية حسنة المنظر مزينة بأجمل الريش وأطراه فإنها سهام قاتلة إذ تنفذ في أجساد البقر الوحش ذوات الأطفال الصغار اللواتي تلتمع أطرافها من خصوبة المرعى ووفرته وتفرقها عن صغارها الراعيات معها في وادى عرنان الوسيع ذي الأرض المنخفضة المعروفة بكثرة وحوشها وغزارة نبتها .

إن مثل هذه الصور الشعرية تشكيلات ذات ماهية جمالية بذاتها من حيث الرؤية التي تحاول تقوض ماهية الحرب وقبحها بأن تعيد تأسيس الوجود الإنسان المحارب .

وتنغلق وحدة السلاح ببيتين فيهما عودة إلى الجملة المفتاح ( أعددت ) التي بدأ بها الشاعر حديثه عن سلاحه :

**فَذاكَ عَتادي في الحُروبِ إِذا　　وَأَردَفَ بَأسٌ مِن حُروبٍ وَأَعجَلا**
**وَذَلِكَ مِن جَمعي وَبِاللَهِ نِلتُهُ　　وَإِن تَلقَني الأَعداءُ لا أُلقَ أَعزَلا**

يحمل البيتان مجمل موقف الشاعر المضمر من الأسلحة إنها لدرء الأخطار فهي عتاده في الحروب إذا التهبت نارها وحلت الشدائد بالناس .

إن السلاح كما يراه أوس نعمة من الله أعطاها للإنسان ليدافع عن نفسه لأن الأعزل ضعيف .

وقد أظهرت وحدة السلاح في هذه القصيدة ثنائيات ضدية كان أبرزها ثنائية الحياة والموت والضعف والقوة وقد تبين من قراءة هذه الثنائيات أن الصور الشعرية يمكن أن تحمل ثنائيات ضدية لم يظهر لفظها وقد كشفت تلك الصور عن رؤية الشاعر للأسلحة والحرب والاقتتال .

كما تحدث أوس عن قوسه في قصيدة أخرى وتكلم عن قوتها وقوة صوتها وتكلم عن النبت الذي صنعت منه يقول :

**وَصَفْرَاءَ مِنْ نَبْعٍ كَأَنَّ نّذِيرَهَا إِذَا لَمْ تُخَفِّضْهُ عَنِ الوَحْشِ أفْكَلُ**

**تَعْلَمُهَا فِي غَيْلِهَا وَهْيَ حَظْوَةٌ بِوَادٍ بِهِ نَبْعُ طُوَالٍ وَحَثْيَلُ**

ثم تكلم عن صنعها وفصل القول وأسهب في سرد قصة تصنيع القوس ويبدو الجهد البشري في أجمل صورة إذ تجد صانع القوس يراقب مرونتها ليل نهار ويمضى حولين كاملين دون أن يمل أو تفتر همته وكان حريصاً على أن يبقى بعض قشرها عليها حتى لا يبدو قلبها عارياً مكشوفاً فتيبس وحتى تصبح أكثر صلابة .

ويبذل الشاعر للحصول على هذه القوس كل ثمين وهو الخبير بالأسلحة وجودتها فيدفع لصانعها أكسية مخططة من أفخر أنواع الثياب وزقاً أدكن مملوء بعسل النحل .

**ثَلاَثَةُ أَبْرَاءٍ جِيَادٍ وَجَرْجَةٌ وَأَدْكَنُ مَنْ أَرَى الْدَّبُورَ مُعَسَّلُ**

إن قصة الحصول على القوس وتعهدها بالرعاية والعناية والتصنيع والتزيين تكشف جهد الإنسان في معايشة الطبيعة والتغلب على صعابها بالعمل والثقافة .

ويمكن أن نعد نمط الحصول على القوس في كلتا القصيدتين أحد الأنماط الأصيلة أو الرموز الكلية المترسخة في الوجدان البشري .

وأما الشماخ ، فله قصيدته الزائية المشهورة التي أطال فيها وصف القوس :

**وَحَلَأَهَا عَن ذِي الأَرَاكَةِ عَامِرٌ أَخُو الخِضْرِ يَرْمِي حَيْثُ تُكْوَى النَّوَاحِزُ**

يتحدث الشاعر عن مصادفة الصائد للأتن عند مورد الماء فهو عامر منعها شرب الماء من خلال تسديد السهم عليها ، فقد نشب الصراع منذ اللحظة الأولى وقد رمز الشاعر للموت بالقانص المشهور ( عامر ) دلالة على قوة هذا الموت الذي يواجه الحياة المتمثلة بالأتن مما دعا الشاعر إلى توظيف الجملة الفعلية لتلك الحركة الملحوظة التي كانت ردة فعل من الأتن حينما صوب الصائد سهمه نحوها .

بعد هذا البيت يستطرد الشماخ في وصف القوس مذ كانت غصنا في الشجرة حتى اكتمالها قوساً في يد الصائد فقال :

**تَخَيَّرَهَا القَوَّاسُ مِنْ فَرْعِ ضَالَةٍ لَهَا شَذَبٌ مِنْ دُونِهَا وَحَوَاجِزُ**

يتحدث الشاعر في هذا البيت عن وصف القوس فهو يصور اختيار القواس الشجرة التي سيصنع منها القوس ، ثم يصورها بالندرة وبصعوبة الوصول إليها كل ذلك لتعزيز قوة الموت الذي يصنع بتمهل فكانت الجملة الفعلية أنسب في التعبير عن المشقة التي اعترت القواس في أثناء استحصاله القوس .

من خلال هذا القص نلحظ أن الشاعر يعزز من قوة الموت المجهول ، لكنه في الوقت نفسه يعلى من قيمة الحياة ، فالحياة قوية بحركتها وبحيويتها فلا بد من ضد ماثل لقوة هذه الحياة كي يقهرها فهذا الذي دعا الشاعر إلى إعلاء قيمة الموت إلى هذه الدرجة فشاعرنا حتى في أثناء مبالغته في كيفية صناعة الموت فإنه يعلى من شأن الحياة ليوحي بأن لولا قوة الحياة لما عد الموت العدة لمقابلتها .

وأخذ يستطرد في وصف القوس فقال :

**نَمَتْ فِي مَكَانٍ كَنَّهَا فَمَا دُونَهَا مِنْ غَيْلِهَا مُتَلاَحِزُ**
**فَمَا زَالَ يَنْجُو كُلَّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ وَيَنْغُلُ حَتَّى نَالَهَا وَهْوَ بَارِزُ**

عبر الشاعر عن تلك المشقة والجهد الذي بذله القواس في الحصول على قوسه بالجمل الفعلية لكونها تتضمن معنى الحركة ، فبعد أن نضج هذا الغصن في شجرته ذهب إليه القواس قاطعاً إليه مسافات طويلة مليئة بالعوائق من الأشجار وما في الغابة من صعوبات حتى إذا وصل إليه سدد إليه فأسه ليقطعه .

وفي أبيات أخرى يتحدث عن تفاصيل صناعة هذه القوس من حيث تخفيف مائها حتى تصير سلاحاً في يد الصائد والغاية من هذا الاستطراد في وصف هذه القوس هو تصوير قوة الموت الذي يعد لملاقاة قوة الحياة .

ولعل الأثر البيئي والحضاري والثقافي من أهم مكونات القصيدة في شكلها وبدئها وختامها .

ثم لك أن تتأمل قوسه وهو يصف صوتها فيقول :

**إِذَا أَنْبَضَ الرَّامُونَ عَنْهَا تَرَنَّمَتْ تَرَنُّمَ ثَكْلَى أَوْجَعَتْهَا الجَنَائِزُ**

فتكرار صوت النون في هذا البيت ثمان مرات مما يرمز إلى الترنيم فالقوس التي ترمى السهم تترنم بعد إرسالها له لكن المرسل عبر عن هذا الترنم بالموت من خلال توظيفه لفظة ( ثكلى ) فجعل القوس ترسل موتاً قبل أن ترسل سهماً .

وهكذا تتضح من خلال قصيدة الشماخ ثنائية الموت والحياة اتضاحاً بيناً جلياً كما اتضحت عند أوس بن حجر .

فرسم تلك الصورة الفنية لثنائية الموت والحياة وإحداث هذا الصراع الداخلي بينهما في القصيدة أمراً ليس بالهين ولا يقدر عليه إلا من كان في طبقة الشماخ بن ضرار وأوس بن حجر الشعرية. (١)

---

(١)ينظر مستويات الأسلوب في زائية الشماخ بن ضرار القوس والطريدة أنموذجاً ،د. رافعة سعيد السراج ،مجلة جامعة تكريت ، مجلد ١٩ ، العدد ١٢ ، ٢٠١٢ ، ص ٩٠ – ٩٥ ." بتصرف "

وبالنظر لقوس أوس من خلال قصيدتيه وقوس الشماخ من خلال زائيته يتضح ما يلي :

- التأثر الواضح الذي سبق بيانه من استيحاء الشماخ لمعاني أوس وأفكاره وصوره البيانية ، ومن ذلك قول أوس:

**تَعْلَمُهَا فِي غَيْلِهَا وَهْيَ حَظْوَةٌ بِوَادٍ بِهِ نَبْعُ طُوَالٍ وَحَثْيَلُ**
**وَبَانَ وَظُيَانَ وَرَنْفٍ وَشَوْحَطٍ أَلَفَّ أَثِيثَ نَاعِمٍ مُتَغَيِّلُ**

فتجد في هذين البيتين ما يدل على استفادة الشماخ من معاني أوس في قوله :

**تَخَيَّرَهَا القَوَّاسُ مِنْ فَرْعِ ضَالَةٍ لَهَا شَذَبٌ مِنْ دُونِهَا وَحَوَاجَزُ**
**نَمَتْ فِي مَكَانٍ كَنَّهَا وَاسْتَوَتْ بِهِ فَمَا دُونَهَا مِنْ غَيْلِهَا مُتَلاَحِزُ**

فكلا القولين تصوير لمكان هذه القوس ، وصعوبة مكانها لما يشتمل عليه من أشجار كثيفة متلاصقة وأغصان ملتفة ، يقول أبو موسى: (( أما أنا فأفضل قول أوس ، وأراه أسخى وأكثر امتلاء بالشعر ، وذلك لأن قول الشماخ تخيرها يعني أن عينه وقعت على نبع كثير فاختار من النبع أجوده ، وهي هذه وهذا ليس فيه غرابة ؛ لأنه يقع كثيراً في حياة الناس ، ويباشره الكل ، أما قول أوس تعلمها فإنه تفعل من علم وعلم الشيء غير اختياره ))(١)

وقول أوس :

**فَأَنحى عَلَيها ذاتَ حَدٍّ دَعا لَها رَفيقاً بِأَخذٍ بِالمَداوِس صَيقَلا**

فتجد جل ألفاظ الشطر الأول قد أخذها الشماخ في قوله :

**فَأَنْحَى عَلَيْهَا ذَاتَ حَدٍّ غُرَابُهَا عَدَو لأَوْسَاطِ العِضَاةِ مُشَارِزُ**

وقول أوس :

**فَمَا زَالَ حَتّى نَالَهَا وَهوَ مُعصِمٌ عَلى مَوطِنٍ لَو زَلَّ عَنهُ تَفَصَّلا**

قد أخذه الشماخ واستعمله في قوله :

---

(١)الشعر الجاهلي ، محمد أبو موسى ، ص ٥١٧ .

فَمَا زَالَ يَنْجُو كُلَّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ          وَيَنْغَلُ حَتَّى نَالَهَا وَهْوَ بَارِزُ

ومن أبيات أوس التي تأثر بها الشماخ قوله :

فَمَظَّعَهَا حَوْلَيْنِ مَاءَ لحائها          تُعَالَى عَلَى ظَهْرِ العَرِيشِ وَتَنَزَّلُ

أخذها الشماخ حيث قال :

فَمَظَعَهَا عَامَيْنِ مَاءَ لِحَائِهَا          وَيَنْظُرُ مِنْهَا أَيُّهَا هُوَ غَامِزُ

ويقول صلاح الهادي: (( انفرد أوس ببعض الصور التشبيهية البديعة كما في قوله :

عَلَى ظَهرِ صَفوانٍ كَأَنَّ مُتونَهُ          عُلِلنَ بِدُهنٍ يُزلِقُ المُتَنَزِّلا

وقد سبق بيانه ، وقوله : وقد أعجب به بعض القدماء ، لحسن التشبيه فيه وجودة معناه وصحته :

عَلى فَخِذَيهِ مِن بُرايَةِ عودِها          شَبيهُ سَفى البُهمى إِذا ما تَفَتَّلا

وقوله :

فمَلَكَ بِاللِّيطِ الذّي تَحْتَ قِشْرِهَا قشرها          كَغَرْقَى بِيضٍ كَنَّهُ القَيضُ مِنْ عَلُ

وهذه قد سبق بيانها وشرحها.)) (١)

و تفوق الشماخ على أوس في عدة أمور منها :

- سهولة ألفاظه عموماً وقلة الغريب فيها بالنسبة لما عند أوس من غريب الألفاظ ، وطرقه لمعانٍ جديدة لم يتعرض لها أوس وذلك كما في أبياته التي يصف فيها بيع القوس حيث قال :

فَلَمَّا اطْمَأَنَّتْ فِي يَدَيْهِ رَأَى غِنَى          أَحَاطَ بِهِ وَازْوَرَّ عَمَّنْ يُحَاوِزُ

---

(١) الشماخ بن ضرار حياته وشعره ، ص ٢٩٨ -٣٠١ . بتصرف .

وقوله :

كَأَنَّ عَلَيْهَا زَعْفَرَانًا تَمِيرُهُ خَوَازِنُ عَطَّارٍ يَمَانٍ كَوَانِزُ

وقوله :

إِذَا سَقَطَ الأَنْدَاءُ صِينَتْ وَأُكْرِمَتْ حَبِيرًا وَلَمْ تُدْرَجْ عَلَيْهَا المَعَاوِزُ

- فات الشماخ أوساً في بعض المعاني التي سبقه أوس إليها ؛ وذلك لإبداعه في التصوير وروعة خياله ، ومن ذلك قوله :

إِذَا أَنْبَضَ الرَّامُونَ عَنْهَا تَرَنَّمَتْ تَرَنُّمَ ثَكْلَى أَوْجَعَتْهَا الجَنَائِزُ

وقد سبق بيان الإبداع والصورة البيانية الجميلة فيها .

وإما للزيادة في المعنى مع الإيجاز في التعبير عنه كما في قوله :

قَذُوفٌ إذَا مَا خَالَطَ الظَّبْيَ سَهْمُهَا وَإِنْ رِيعَ مِنْهَا أَسْلَمَتْهَا النَّوَاقِزُ

ويقول كذلك صلاح الدين الهادي : (( للشماخ بعض الفلذات الوجدانية ، لا نجد لها نظيراً عند أوس ، كما أنه في بعض معانيه وصوره ، يمتاز على أوس بأنه لا يقيد خيال القارئ، ويحكم ربطه بالواقع المحسوس .. ، ويقول : أن أوساً وإن كان رائداً للشماخ في وصف القوس، إلا أن الشماخ أجاد معارضته ، وامتاز عليه بما ذكرنا مضافاً إليه رمزية الارتجال ))[1]

(١) الشماخ بن ضرار حياته وشعره ، ص ٣٠٢.

# الخاتمة

الحمد لله الذي أعان ويسَّر، والصلاة والسلام على النبي الأغر، وعلى آله وصحبه ومن اقتفى به الأثر وبعد :

فإن دراسة وصف القوس والسهم في شعر الشعراء الجاهليين ، وإظهار ظواهره البلاغية؛ كفيل بكشف أسرار وخبايا العديد من موضوعات الشعر الجاهلي وكشف مكنونه، وإن الحديث عن أبرز نتائج هذا البحث ليتلخص في النقاط التالية :

– بينت الدراسة قوة الوصف للقوس من خلال سياق الفخر والمديح والاعتداد بالنفس ، ومواطن الضعف أو القلة في سياق قصيدة الرثاء أو الرحلة أحياناً ، ويتنوع ذلك بتنوع الحال والمكان وغيرهما .

– أوضحت أن وصف القوس سمة بارزة عند شاعرين هما أوس و الشماخ ، لتفردهما في بيان تفاصيل القوس مذ كانت نبعة حتى صارت أداة .

– برزت ظواهر بلاغية في موضوع وصف القوس –على غيرها من الظواهر – كالفصل والوصل والتقديم والتأخير ، والتنكير ، والتشبيه والكناية ، و يظهر أن الكناية هي السمة الأبرز فيما سبق .

– تأثر الشماخ الواضح بأوس وخاصة في البناء الفني ، و ظهور تجديده في بعض المعاني والصور والأفكار .

– صنعت معجماً بلاغياً في الشعر الجاهلي .

ختاماً .. أسأل الله – سبحانه – أن يتجاوز عني وعمّا كان في هذا البحث ، من تقصير وزلل ، وأن يجعل هذا الجهد المتواضع قربة تقرب إلى رضوانه – عزَّ وجلَّ – ودافعاً يدفع عن سخطه – سبحانه – وتمهيداً أمهد به طريقي إلى مواصلة البحث العلمي ، والنيل من بركات العلم النافع ، ليكون عوناً ودافعاً لمعرفة كتاب الله وسنة رسوله عليه أفضل صلاة وتسليم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

# المصادر والمراجع


- ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ت: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف،مصر، ط٥.
- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ت محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل، بيروت، ط ٥ ، ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م ،ج ٢.
- ابن عبد ربه، العقد الفريد،: ت د عبدالمجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ ،١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م.
- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ت: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م.
- ابن قتيبة ، كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني، ، صححه سالم الكرنكوي ، ١٨٧٢هـ – ١٩٥٣ م ، دار النهضة الحديثة ، بيروت لبنان .
- أبو العباس ثعلب، شرح شعر زهير ، ت د . فخر الدين قباوة ، مطبعة الغوثاني ، دمشق، ط ٣، ١٤٢٨ هـ = ٢٠٠٨ م .
- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور لسان العرب ، ، دار المعارف ، القاهرة ط١ .
- أبو سعيد السكري ، ديوان كعب بن زهير ، شرح ودراسة مفيد قميحة ،دار الشواف، ط ١ ،١٤١٠ = ١٩٨٩م .
- أبو سعيد السكري شرح أشعار الهذليين، ت: عبد الستار فراج، مراجعة: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.
- أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق :د . أكرم عثمان يوسف، منشورات جامعة بغداد، مطبعة دار الرسالة—بغداد،ط١٤٠٢،١ هـ — ١٩٨٢م.

- أبو بكر محمد، وأبو عثمان سعيد الخالدان ، الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، ت: السيد محمد يوسف، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، .
- أحمد الشايب، الأسلوب ، مكتبة النهضة المصرية، ط٩، ١٩٩٥م.
- أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، تعليق ، سليمان الصالح ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٢٦ هـ = ٢٠٠٥ م .
- أبي القاسم الزمخشري ، أساس البلاغة ،ت محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١ ، ١٤١٩ = ١٩٩٨ م.
- إسماعيل الصيفي، المحاكاة في مرآة الطبيعة والفن، دار المعرفة الجامعية، ط١، ١٤٠٩هـ.
- الأصمعي، الأصمعيات، ت أحمد محمد شاكر ، عبد السلام محمد هارون، ط ٣، ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م.
- امرئ القيس، ديوان ،ت: محمد إبراهيم أبو الفضل، دار المعارف، مصر، ط٥،١٩٩٠ م.
- أمية بن أبي الصلت ، ديوان، ت عبد الحفيظ السطلي ، المطبعة التعاونية بدمشق.
- أوس بن حجر،ديوان ، تحقيق محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٣٩٩هـ=١٩٧٩م.
- ابن مقبل ،ديوان ، تحقيق عزة حسن ، دار الشرق العربي ،بيروت لبنان ، ط . د ، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م .
- تأبَّط شرًّا وأخباره، ديوان ، ت: علي ذي الفقار شاعر، دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢، ١٤٠٤- ١٤١٩هـ= ١٩٨٤- ١٩٩٩م.
- الحطيئة، ديوان ، برواية وشرح ابن السكيت (١٨٦-٢٤٦هـ)، ت: نعمان محمد أمين طه، مكتبة الخانجي القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

- الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، المعاني والبيان والبديع ، ت محمد عبدالمنعم خفاجي ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ،ط ١ ، ١٤٢٦ هـ = ٢٠٠٦ م .
- الخطيب التبريزي ، شرح ديوان عنترة ، قدم له مجيد طراد، دار الكتاب العربي ، بيروت ط١ ١٤١٢هـ = ١٩٩٢ م.
- رافعة سعيد السراج ، مستويات الأسلوب في زائية الشماخ بن ضرار القوس والطريدة أنموذجاً ، مجلة جامعة تكريت ، مجلد ١٩ ، العدد ١٢ ، ٢٠١٢ م .
- الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني ، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي ، ت محمد خلف الله أحمد ، د . محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٦م .
- سعدي ضناوي ، أثر الصحراء في الشعر الجاهلي، دار الفكر اللبناني،بيروت، ط ١، ١٩٩٣م.
- سلامة السويدي، القوس في الشعر الجاهلي والإسلامي، مجلة كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، العدد [٢١]، ١٤١٩هـ=١٩٩٨م.
- سهام عبد الوهاب الفريح، أوس بن حجر ومعجمه اللغوي ، حوليات كلية الآداب، كلية اللغة العربية، جامعة الكويت ، ح ١٩ الرسالة ٣٣١ ، ١٤١٨ هـ = ١٩٩٨م .
- السيد نوفل، شعر الطبيعة في الأدب العربي، دار المعارف، مصر، ط١، د.ط.
- الشماخ: ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ،تحقيق صلاح الدين الهادي ، دار المعارف ،القاهرة مصر ١٣٨٨ هـ =١٩٦٨ م
- الشنفرى: ديوان الشنفرى، عمرو بن مالك، جمعه وحققه وشرحه إيميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي . ، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

- شهاب الدين النويري ، نهاية الأرب في فنون العرب ، ت علي أبو ملحم ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ج ٦ .
- شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، دار المعارف ، ط ١١.
- شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط ٢٤ .
- صلاح الدين الهادي، الشماخ بن ضرار الذبياني، حياته وشعره،دار المعارف، مصر، ١٩٦٨م.
- ضياء الدين ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، قدمه وعلق عليه د.أحمد الحوفي و د. بدوي طبانة ، نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ج ٢.
- طرفة، ديوان ، أخرجه الأعلم الشنتمري، ت: درية الخطيب، لطفي الصقال، دار الفارس للنشر، الأردن، ط٢.
- طفيْل الغنوي، ديوان ،شرح الأصمعي، ت: حسان فلاح أوغلي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
- عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط٧ ، ١٤١٨ هـ = ١٩٩٨ م .
- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة ، تعليق :الشيخ محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ = ١٩٩١ م .
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ، تعليق :الشيخ محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ .
- عمرو بن قميئة ، ديوان ،ت حسن كامل الصيرفي ، جامعة الدول العربية ، معهد المخطوطات ، ط ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٥ م .
- عبيد بن الأبرص ، ديوان ، شرح أشرف أحمد عدرة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م .

- عبد الحميد المعيني، القوس عند ثلاثة من شعراء الجاهلية والإسلام ( أوس و الشنفرى و الشماخ)،مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد [٦٠]، العدد [٣]، يوليو، ٢٠٠٠م.
- عبد العظيم علي قناوي ، الوصف في الشعر العربي، ط١ ، ١٣٦٨ = ١٩٤٩ م .
- عبد العظيم علي قناوي، الوصف في الشعر العربي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط١، ١٣٦٨ه/١٩٤٩م.
- علي الجندي، شعر الحرب في العصر الجاهلي، دار الفكر العربي ، القاهرة، ١٩٨٩م.
- فوزرية مبارك الدوسري، الوصف لدى الشعراء الصعاليك حتى نهاية العصر الأموي، رسالة دكتوراه، ١٤٢٩-١٤٣٠ه (بتصرُّف).
- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، ت د عبدالمحسن الأحمد ، مؤسسة الرسالة ، ط ١، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م ، ج ١٤.
- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ت محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، د ط.
- المرزوقي ،شرح ديوان الحماسة ، ت أحمد أمين ، عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م ، ج ١ .
- محمد أبو موسى، خصائص التراكيب ، مكتبة وهبة – القاهرة ط٤، ١٤١٦ هـ= ١٩٩٦م.
- محمد عبد المنعم خفاجي، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١ه.
- محمد عبدالمنعم خفاجي ،الشعر الجاهلي، دار الفكر اللبناني،بيروت، ط ٢، ١٩٧٣م.
- محمد محمد أبو موسى، الشعر الجاهلي، دراسة في منازع الشعراء، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١.
- محمد مشعل الطويرقي ، شعرية القوس ، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدبها ، ج١٩ ، ع ٣١ رمضان ١٤٢٥ هـ .

- محمود محمد شاكر، القوس العذراء، مكتبة الجانحى، الطبعة الثانية، دار الفكر – بيروت. ١٩٩٢م .
- الميداني، مجمع الأمثال ،ت محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥ م .
- محمد السيد سلام، تشبيهات الشماخ بن ضرار الذبياني، دراسة بلاغية وموازنة ، رسالة ماجستير .
- النابغة الذبياني ،ديوان،ت محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف، القاهرة ،ط ٢ .
- نورة الشملان ، أبو ذؤيب الهذلي ، حياته وشعره ، عمادة شؤون المكتبات ، جامعة الرياض، الرياض ، ط١ ، ١٤٠٠ = ١٩٨٠ .
- نوري القيسي ، وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية ، مؤسسة دار الكتب، الموصل، الجمهورية العراقية ، ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م .
- يحيى بن حمزة بن إبراهيم العلوي اليمني ، الطراز، تحقيق د. عبدالحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا ،بيروت لبنان ، ط١ ،١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢ م .
- يحيى الجبوري ، قصائد جاهلية نادرة ،الشاعر امرؤ القيس بن جبلة السكوني ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ ، ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨م .
- يحيى الجبوري،شعر عمرو بن شأس الأسدي،دار القلم، الكويت، ط٢ ، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.
- يحيى بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، مطبعة المقتطف بمصر، ١٣٣٣.
- يوسف بن طفيف بن مبارك العدوى، صنعة التشبيه بين أوس بن حجر وزهير بن أبى سلمى دراسة موازنة جامعة أم القرى.
- يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، دار غريب ، القاهرة، د. ط.

فهرس الموضوعات